جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY
معهد ابراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

إبراهيم أبو لغد: مقاومة، منفى وعودة

محادثات مع هشام أحمد فرارجة

وحدة الهجرة القسرية واللاجئين

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية

جامعة بيرزيت

بيرزيت- فلسطين

٢٠١١

طبع هذا الكتاب بدعم من مؤسسة التعاون

مؤسسة التعاون
WELFARE ASSOCIATION

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY
معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

إبراهيم أبو لغد: مقاومة، منفى وعودة

محادثات مع هشام أحمد فرارجة

آب/ أغسطس- ٢٠١١

جميع حقوق الطبع محفوظة

ISBN 978-9950-316-44-7

وحدة الهجرة القسرية واللاجئين
معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
جامعة بيرزيت، ص.ب ١٤، بيرزيت- فلسطين
تلفاكس: ٢٩٨٢٩٣٩(٢)٩٧٠+ أو ٢٩٨٢٩٣٩(٢)٩٧٢+
بريد إلكتروني: ialiis@birzeit.edu
الصفحة الإلكترونية: http://home.birzeit.edu/ialiis

مؤلف الكتاب باللغة الإنجليزية والصادر عن معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية عام ٢٠٠٣ هو هشام أحمد فرارجه:

Ibrahim Abu-Lughod: Resistance, Exile and Return

نقله إلى العربية: رائد بدر

تحرير النص: رائد اشنيور

طبع هذا الكتاب في الذكرى السنوية العاشرة لوفاة الدكتور إبراهيم أبو لغد والذي تم إحياء ذكراه من خلال عقد مؤتمر دولي بعنوان: "إبراهيم أبو لغد والمثقف الملتزم: إحياء نموذج" بتاريخ ١٢ نيسان/ إبريل ٢٠١١، والذي تم تنظيمه بدعم من: مؤسسة التعاون، المركز الفلسطيني الأمريكي للأبحاث (PARC)، ومؤسسة عبد المحسن القطان.

مؤسسة التعاون
WELFARE ASSOCIATION

PARC
PALESTINIAN AMERICAN RESEARCH CENTER

مؤسسة عبد المحسن القطان
A. M. Qattan Foundation

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية.

إلى إبراهيم أبو لغد، معلمي، الإنسان الذي ستبقى دوما ذاكرته حية

قائمة المحتويات

تقديم المترجم ١

كلمة شكر ٥

تمهيد ٦

مقدمة ٧

ملاحظة المحرر ١٠

الفصل الأول: أيام الطفولة المبكرة ١١

قراءة جانبية ١٢

التطور من خلال الشدائد ١٢

التوجه الديني والوطني ١٤

المطاردة من أجل الفوز برضى الله ١٥

الشيخ الصغير أم المحامي الصغير؟ ١٦

الشاب والبحر ٢٠

العلاقات الأسرية ٢٠

الفصل الثاني: ذكريات يافاوية ٢٤

تعايش وتوترات ٢٨

"لعنة الله عليهم" ٣٢

هدفهم: طردنا ٣٧

شمع أحمر ٣٩

متفاني ونشيط ٤١

الفصل الثالث: كل شيء بدأ في يافا ٤٤

الانفجار المروع ٤٨

معركة يافا ٤٩

النزوح ٥١

اكتشاف العالم العربي ٥٣

العودة إلى نابلس ٥٥

توزيع المنشورات ٥٧

العودة إلى عمان ٥٩

الفصل الرابع: الإبحار إلى الولايات المتحدة الأمريكية ٦٣

التعلم عن أمريكا ٦٦

التوجه الفكري ٦٧

عمل ودراسة ٧٠

صدمة الطرد من الجامعة ٧٦

مناقشات حول فلسطين ٧٩

الفصل الخامس: مسألة الهوية ٨٢

عالِم بِحُكم الظروف ٨٤

ابن الشيخ ٨٨

صدام الثقافة ٩٠

تجربة منطقة "حزام الكتاب المقدس" ٩٦

سياسات الاحتجاج ٩٦

الفترة الذهبية ١٠٠

الفصل السادس: العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ١٠٦

خجل في سميث كوليدج ١٠٧

الانتقال إلى جامعة مكغيل ١١٠

غضب عربي في مونتريال ١١١

الأكاديمي والسياسي ١١٧

الفصل السابع: الحرب تندلع من جديد ١٢٢
مسرح نيويورك للأفكار ١٢٣
بناء رابطة خريجي الجامعات العرب الأمريكيين ١٢٦
تصريح نيكسون ١٣٥
دعم وإعانة رابطة خريجي الجامعات العرب الأمريكيين ١٣٨
رابين يزور نورث ويستيرن ١٤١
الفصل الثامن: كيف أصبحت فلسطينيا ١٤٤
تحت الحصار ١٤٦
دروس وعبر من لبنان ١٥١
الثورة من خلال التعليم ١٦٩
الفصل التاسع: العودة إلى الوطن ١٦٣
خشية الموت في المنفى ١٦٨
تخطي المضايقات المعتادة بـ "الواسطة" ١٧٩
أطارد مثل مراهق ١٧٠
التواصل مع التاريخ ١٧٤
طلاقي من الولايات المتحدة الأمريكية ١٧٧
الخاتمة ١٨١

تقديم المترجم

إنه لمن النادر أن نولي اهتماما بهذا النمط من الكتابات. ليس من شك أن يكون هناك إصدارات أخرى من هذا النوع من الكتب القيمة والمهمة؛ ولكن، بنشر هذا الكتاب باللغة العربية، بعد أن كان قد صدر باللغة الانجليزية في العام ٢٠٠٣، يخطو معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية في جامعة بيرزيت، خطوة مهمة، في نشر هذا النوع من الكتابات وإيصالها إلى قطاع أكبر من المجتمع الفلسطيني، للتعريف بواحدة من المراحل البالغة الأهمية في التاريخ الفلسطيني. تزامن إصدار ترجمة هذا الكتاب اليوم إلى اللغة العربية، مع عقد المؤتمر الذي نظمه المعهد إحياءً للذكرى العاشرة لوفاة إبراهيم أبو لغد، والذي شارك فيه العديد من الباحثين وبعض من أفراد عائلته وأصدقائه ومعارفه.

جاء هذا الكتاب ليجيب على أسئلة كبيرة حول العام ١٩٤٨ والنكبة، بناء على التجربة المصغرة التي حصلت في أماكن محدودة وصغيرة، وليزيح بعض جوانب الجهل بهذا المجتمع. حيث يمكننا مشاهدة ما كانت تمثله يافا في تلك الفترة من حداثة ونهضة ثقافية – دار للسينما، ومسارح وحفلات لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، ومحطة للإذاعة وسبع صحف أشهرها "جريدة فلسطين" – جاعلة منها عاصمة للثقافة والصحافة والتعليم، رغم ما كانت تعانيه فلسطين من احتلال بريطاني.

يمكن للقارئ لرواية إبراهيم أبو لغد، الاضطلاع على خصائص تلك المرحلة، ومميزات تلك الحقبة التاريخية؛ فبتنوع الأحداث، وجدَة الرأي والتحليل، وطرح الإشكاليات والحلول، يتدرج الدخول والانخراط في التحولات التي عاشتها المنطقة طوال القرن العشرين، ليتحقق التواصل مع التاريخ، في أول زيارة يقوم بها أبو لغد ليافا بعد ٤٣ عاما من الهجرة القسرية؛ لقاءٌ أعاده إلى المكان الذي ولد وترعرع فيه، لقاءٌ أعاده من جديد إلى العام ١٩٤٨، وكأن شيئا لم يكن.

لا شك أن هذه المذكرات، ستتيح للقارئ فرصة التعمق أكثر، في التعرف على المشهد الفلسطيني، وعلى السياسة الإسرائيلية القائمة لمحوه لما يزيد عن الستين عاما. مذكرات جديرة بكل الاهتمام، لما لأسماء الأماكن من دلالة عميقة تظل تعبّر كخزان مليء بالمعلومات، كانت ستندثر لو لم تبقى ملتصقة بالمكان. مذكرات ستعوض ولو جزئيا شح المصادر المكتوبة حول هذا الموضوع، عن يافا

بوجه خاص وعن فلسطين بوجه عام.

سيجد القارئ في هذه المذكرات متعةً في إعادة قراءة التاريخ الفلسطيني، وإبحاراً من جديد في المشهد الفلسطيني الأصيل؛ من سيدنا علي إلى الشيخ مؤنس، ومن العامرية إلى الجريشة. سيتوجب علينا معرفة أن "اليركون" ما هو إلا الاسم البديل لنهر الجريشة الفلسطيني، كما أن مدرسة العامرية التي احتضنت الآلاف من أبناء يافا، ما زالت قائمة في المكان عينه وإن كان اسمها تحول بقدرة قادر إلى "مدرسة وايزمان".

تعمل إسرائيل على تشويه الذاكرة الفلسطينية، ومحوها من الوجود، إذ لم يعد هناك إمكانية لمعرفة معالم يافا وحدودها؛ إذ لم يتبقى من يافا سوى بعض المباني وسط المدينة، وستعمل إسرائيل على إزالتها في التوقيت التي ستراه مناسبا، أو تركها كشاهد على حقبة انتهت، مثلها مثل الآثار الرومانية أو غيرها في المدينة. حينئذ، لن يعد بالإمكان تصديق الروايات حول فلسطين، وستصبح جزءا من التراث الخرافي إن لم يكن هناك مشروع للحفاظ على الذاكرة الفلسطينية. تسعى إسرائيل لبناء ذاكرة أخرى، من خلال القيام بأفعال إجرائية وعملية على الأرض، ورغم مقاومة ووعي فلسطينيي الداخل، إلا أن أحياء بالكامل تم تدميرها في يافا كما هي حال القرى المدمرة والتي تشكل ذاكرتنا الحية في فلسطين.

حان الوقت للاهتمام بالذاكرة الفلسطينية، ونشرها وتعميمها لتبقى نابضة في الوجدان. حان الوقت لكتابة التاريخ الفلسطيني، المتعلق بتلك الفترة، حتى تبقى المعركة قائمة، وتبقى يافا وفلسطين في داخلنا. تاريخ يافا هو صورة عن تاريخ فلسطين، والاهتمام بذاكرتها هو بداية الاهتمام بالذاكرة الفلسطينية.

سيساعدنا إبراهيم أبو لغد، من خلال ذكرياته تلك، على الاضطلاع على حقائق وتحاليل لم نعهدها من قبل، عبر قراءة جديدة لواحدة من تلك الفترات التاريخية والمصيرية لفلسطين. تجربته، وإن كانت بنظر البعض، تشبه أو قريبة من تجارب العديدين ممن عايشوا سنوات الانتداب البريطاني والنكبة، إلا أنها تبقى تجربة فريدة من نوعها في تحليل الأحداث بشكل موضوعي. قراءته الجديدة، بنيت على النقد اللاذع للقيادة الفلسطينية وعدم جاهزيتها في الدفاع عن فلسطين، التي قُسِّمت في العام ١٩٤٧ بقرار أممي. نقد ذاتي جريء، نتيجة جهلنا بالآخر، "بالعدو" وبإمكاناته وقدراته

وبأهدافه التي جاء من أجلها ولتحقيقها، تناسينا حقيقة أنهم جاؤوا لتحقيق هدف معين، وأنهم جاؤوا للانتصار، وليس للهزيمة. اعتقدنا بأن الانتصار سيكون حليفنا حتى دون تحضير أنفسنا، لم نأخذ الأمر على محمل من الجد، واعتقدنا أن الأمر شبيه بمباراة لكرة القدم. لكن الخصم، العصابات الصهيونية، حضروا أنفسهم بما فيه الكفاية لهزيمتنا. وأخيرا نقد للجيوش العربية التي لم تقم بنجدة فلسطين وأهلها؛ جيوش خسرت معظم حروبها بسبب عدم الجاهزية لخوض أي منها.

لم يكن العالم العربي مستعدا، حتى للنتائج التي قد تترتب على خسارتنا للمعركة، لهذا، كان الاستقبال عكس التوقعات. وكانت الأنظمة في الوطن العربي أنظمة تابعة، من نظام فاروق في مصر إلى نظام فيصل في العراق. ومنذ أن بدأ باكتشاف حقيقة "الوطن العربي" المحيط به، كان لديه اعتقاد بضرورة وجود حاجة إلى أن يكون هناك تحول في العالم العربي، وأن هذا التحول من شأنه أن يجلب قيادة جديدة.

لقد قاوم إبراهيم أبو لغد، فكرة معاملته في العالم العربي كسائح لا كلاجئ. وبقي مؤمنا "بالوطن" العربي وبشعبه وبالقدرة على التغيير، رغم الحقد واللاعقلانية تجاه الفلسطينيين حتى في أحلك الظروف، واستقبالهم بقساوة، واتهامهم بالعمالة والخيانة لخسارتهم الحرب في ٤٨ و ٦٧، وبالجبن في حصار بيروت. كان المستقبل، يمثل بالنسبة له الأمل والحلم، بعد الخروج من حالة الحداد والحزن على ما حصل لنا، تماما كما فعلت دول أخرى عديدة دمرت من قبل.

كانت كلماته (باستطاعتنا التغيير والانتصار، باستطاعتنا القضاء على الطغيان القائم في العالم العربي، من خلال الإيمان بالإنسان وبقدراته على التغيير)، نابعة عن أيمان راسخ، ومنذ البداية، بالشباب العربي، الذي كان يُعوّل على دورهم في التغيير، وعلى أهمية المعرفة والتعليم وبرامج محو الأمية والتواصل بين كافة فئات المجتمع للخروج من الوضع المهيمن في العالم العربي. على عكس الكثيرين ممن قاموا بتقييم خاطئ للعالم العربي، وفوجئوا بما حصل في تونس ومصر في الأمس القريب، وما يحدث اليوم في العديد من أرجاء الوطن العربي. وكان قد أطلق على فترة إقامته الأولى في مصر بين عامي ١٩٥٧-١٩٦١ بـ "الفترة الذهبية"، بحيث كانت الفترة التي عمل خلالها على تدريب المئات من الموظفين الشباب من دوائر الخدمات المدنية في وزارات الصحة والتعليم والزراعة وتنمية المجتمع من كافة الدول العربية، وكان يعوّل عليهم في التغيير. بالتأكيد،

سيكون إبراهيم أبو لغد سعيدا بالتغيرات التي حصلت، ولكن بحذر. وسيقدّر لحظة الأمل والتحرر والترقب التي نعيش اليوم في العالم العربي، بعد عقود طويلة من القمع والركود.

عادت النظرة الشمولية (عالم واحد، شعب واحد) لتظهر من جديد بعد "الثورات" أو "التحولات" التي يشهدها الوطن العربي. ولربما تحدث إبراهيم عن هذه التجربة في عملية التكوين وتوحيد الوطن العربي، في الفترة التي كان منقسما بين قطب شرقي وآخر غربي. وأكثر ما نحن بحاجة إليه اليوم، في عالمنا العربي، الذي تحدث عنه وعمل من أجله إبراهيم أبو لغد، هو الالتقاء والفهم بين كافة شعوب الوطن العربي، في المغرب وفي المشرق، وتعزيز المؤسسات في العالم العربي، للتطور التربوي، والنهوض بالاقتصاد ولتعزيز النظام الاجتماعي، الذي يبقى الأساس في صنع المستقبل.

رائد بدر

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية – جامعة بيرزيت

صيف ٢٠١١

كلمة شكر

لم يكن بالإمكان انجاز هذا الكتاب دون مساعدة العديد من الأشخاص.

بداية وقبل كل شيء، لم يكن بالإمكان الوصول إلى هذا الكتاب، بصيغته النهائية التي بين أيدينا، دون استعداد وجاهزية صاحب هذه الأحداث وراويها، إبراهيم أبو لغد، الذي ظل طوال فترة المقابلات، كريما في وقته ومضيافا في منزله. حتى عندما كان مريضا، وعندما كانت الحواجز المنتشرة على الطرقات تعيق وتمنع محاولات اللقاء، كان دائم الاستعداد لاستيعاب التغيرات وترتيبات اللحظات الأخيرة. وساعدت روحه المرحة على خلق بيئة مواتية وحافزا قويا طوال الوقت. لقد جعل من هذه التجربة ممتعة طوال فترة المقابلات. لهذا، كل الشكر والتقدير إلى إبراهيم لمنحنا هذه الفرصة لمعرفة المزيد عن هذه الفترة من حياته وما تمثله.

الشكر موصول أيضا إلى كل من فيكي مور، ونانسي ماكدونالد، ونيكول جاجيه، وإينجيبورغ موا وبيت مولدرو، الذين ساهموا جميعا في عمليات نسخ المقابلات وتحرير الكتاب.

أخيرا وليس آخرا، الشكر للأستاذ روجر هيكوك، لدوره المحوري في اقتراح الفكرة ومواكبته لهذا المشروع خطوة بخطوة.

تمهيد

هذه المذكرات، مذكرات إبراهيم أبو لغد السياسية، هي نتيجة لعدد من المقابلات الشفوية التي أجريت معه في منزله في رام الله، فلسطين، على مدار عامين، ابتداء من تموز – يوليو ١٩٩٩ إلى أيار – مايو ٢٠٠١، تاريخ وفاته. في هذا الكتاب، يتحدث إبراهيم أبو لغد عن نفسه، من خلال سرده للمراحل المختلفة من حياته التعليمية والاجتماعية والمهنية والسياسية. خلاصة، هذه الرواية تنتهي تماما من حيث بدأت: حتم على إبراهيم أبو لغد، المولود في ١٥ شباط – فبراير ١٩٢٩ في يافا، في فلسطين، أن يدفن بالقرب من منزله هناك، في مدينة الآباء والأجداد، على الرغم من كل اعتراضات الحكومة الإسرائيلية.

سيحصل القارئ، بدون شك، عند قراءته لهذا الكتاب، على معرفة إضافية حول التاريخ، والجغرافيا، ونمط الحياة والسياسة في فلسطين وأجزاء أخرى من العالم خلال الفترة التي تغطيها حياة أبو لغد. من خلال عرضه لقصة حياته، نجح إبراهيم أبو لغد في إيجاز تفاصيل المراحل التاريخية العديدة للنضال الفلسطيني، وتمكن من جعلها مرآة تعكس تجربة العديد من الفلسطينيين حول العالم. هذه الخصوصية من حياة الشعب الفلسطيني الجماعية تظهر ديناميكيات الانتداب البريطاني على فلسطين، وحياة الكثير من الفلسطينيين في الولايات المتحدة، وانطلاق وظهور الدوافع لممارسة حق العودة.

كان من المفترض لهذا الكتاب [بنصه الأصلي باللغة الإنجليزية والذي نشر عام ٢٠٠٣] أن يرى النور العام الماضي [٢٠٠٢] على أبعد تقدير. لكن، للأسف، مرض ومعاناة إبراهيم أبو لغد خلال الأشهر الأخيرة من حياته، بالإضافة إلى الاضطرابات الناتجة عن التوغلات الإسرائيلية المتكررة على المدن الفلسطينية ونتيجة للحواجز الكثيفة والمنتشرة في كل مكان، أخرت إنجاز الكتاب ونشره.

نأمل لهذا العمل، الذي يستند، بشكل أساسي، على معلومات من مصدر مباشر وأولي لا يقدر بثمن، أن يساهم في المعرفة وفي التأريخ المتعلق بفلسطين، وأن يساعد في المقام الأول، في إحداث المزيد من البحث والتحليل حول الثراء الساحر من حياة إبراهيم أبو لغد.

مقدمة

كان إبراهيم أبو لغد، كما تشير حياته الفريدة والمتعددة الأوجه، شخصا ذو إمكانات ومساهمات هائلة. فقد كرس حياته كلها، ومنذ أن كان شابا، لتحسين حالة ووضع الشعب الفلسطيني. كما استطاع، على مستوى العالم العربي، أن يفرض نفسه كأكاديمي متعدد التخصصات، أصيل، ومفكر مستقل بكل ما تعنيه الكلمة. وسيذكر، على المستوى العالمي، كعالم وكناشط مهم كرس حياته للمعرفة العليا والعدالة.

لم يكن إبراهيم أبو لغد المعلم النموذجي بالمعنى التقليدي للكلمة. وإنما، درس الحياة بأبعادها المختلفة. يشهد له من عرفه، شخصيا و/ أو من خلال كتاباته الوفيرة بدون شك، بدهائه وثراء فكره.

حتى أنه من الصعب جدا، تصور إمكانية اجتياز الحدود المكانية والزمانية التي أبحر فيها أبو لغد بشجاعة، وبرفقة روحه الشابة وإخلاصه الذي لا يلين. خلال اللحظات الأخيرة من حياته، كان يتابع الانتفاضة الفلسطينية باهتمام شديد، مقتنعا بنجاحها الحتمي. وواصل تساؤلاته حول المسارات الممكنة لتقدم الإنسانية نحو التحرر والعدالة، حتى حينما كان على فراش الموت.

كان إبراهيم أبو لغد مدرسا، وأكاديميا، ومخططا، واستراتيجيا، ومقاتلا ومحسنا. ميراثه، لا يزال نموذجا لكل أولئك الذين يكافحون دون كلل من أجل كرامة الجميع. قدرته على غرس الأمل في قلوبنا وإحيائه في نفوسنا، وقدرته على الدفع بنا للنظر نحو المستقبل، مستمرة لا تلين. وما زالت الكلمات، إلى اليوم، تعجز عن اكتشاف سحر وجوده.

أعلينا أن نتذكر إبراهيم، صبيا صغيرا، يصعد إلى أعلى المئذنة لمسجد في يافا، بدلا من الإمام الكسول، لرفع الآذان مناديا الناس للصلاة ليكون الأقرب لنعم الله وبركاته في السماء؟ أم بمضايقته للجنود البريطانيين في فلسطين، شابا، وإمطارهم بالحجارة والقمامة في أزقة المدينة؟ أم طالباً منظما للمظاهرات احتجاجا على تفاقم الأوضاع في فلسطين، حتى قبل نكبة العام ١٩٤٨؟ أم صورته كمقاتل شاب يقاوم بصمود برفقة آخر مجموعة من المقاتلين قبل طردهم على متن آخر قارب تم تخصيصه لإجلاء أهالي يافا؟ آلام الشتات في بيروت ودمشق وعمان خلال الأيام الأولى من اللجوء بعد النكبة؟ صورة الشاب، المفلس تقريبا، مبحرا فيما وراء البحار إلى عالم غير معروف

له، الولايات المتحدة الأمريكية؟ صدمته، كطالب كرّس وقته للدراسة، من خطر التعرض للطرد من الولايات المتحدة، بعد تشخيص خاطئ لمرض السل؟ أم علينا تصوره متحديا عاصفة ثلجية في شيكاغو ليتمكن من ركوب الطائرة التي أعدت خصيصا لنقل طيارين وتقنيين، مسافرا لحضور الاجتماع السنوي الأول لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب والذي كان سيعقد في واشنطن دي سي.

عندما أصبح العيش بكرامة أمرا مستحيلا، وجد إبراهيم نفسه لاجئاً من جديد، عندما كان طالبا في الولايات المتحدة، حيث كان يتوق إلى المزيد من المعرفة. لم يعد بالإمكان بالنسبة له أن يحقق حلمه في أن يصبح شيخا وواعظا، كما حاول دائما أن يفعل حين كان طفلا يؤذن بالناس للصلاة من أعلى المئذنة، أو أن يصبح محاميا، بعد أن فشل في تحقيق طموحه بدراسة المحاماة في القاهرة، متأثرا بالفنان يوسف وهبي "المحامي" وبمرافعاته داخل المحكمة.

كطالب فلسطيني لاجئ، بعيدا عن أرضه وشعبه الذي أحب، استطاع، إبراهيم أبو لغد، بكل تأكيد، ونتيجة لجهوده الشاقة، أن يرقى بمستواه الأكاديمي إلى حد التفوق. لقد طرد من فلسطين خالي اليدين، وافترق عن عائلته الفقيرة. كان من الواضح أنه رجل ذو إرادة وعزيمة قويتين؛ فقد قام ببناء نفسه بنفسه من خلال العمل بوظائف مؤقتة، كالعمل في مطعم أو في مغسلة للثياب على سبيل المثال. كان عليه أن يكافح بلغة جديدة، وبنمط حياة جديد، مع تحمل الآم الحنين إلى الوطن ومعاناة التمييز. لا شيء، مع ذلك، يستطيع إضعاف شعوره بالانتماء والالتزام نحو فلسطين، والعالم العربي والإنسانية.

من خلال تميز مآثره في الأوساط الأكاديمية، البحثية منها أو التدريسية، استطاع الدكتور إبراهيم أبو لغد تكوين السمعة و نيل الإعجاب الذي يستحق. كان متابعا لهموم شعبه دون كلل أو ملل، ولعب دورا مهما في زيادة الوعي بالقضية الفلسطينية والعربية في الولايات المتحدة، حيث كانت صورة العرب عند الغرب، صورة شيطانية وملطخة. وقد كانت هذه هي الصورة السائدة في الولايات المتحدة، لا سيما خلال الحرب العربية الإسرائيلية في العام ١٩٦٧. وفي محاولة لمقاومة مثل هذا النوع من الأفكار أو الصور النمطية من خلال كسر الصمت والتأكيد على حق الكرامة للجميع، لعب إبراهيم أبو لغد دورا محوريا في تأسيس رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. وقد

شكلت تلك المنظمة عاملا وأداة مهمة في الحديث والظهور نيابة عن الجاليات العربية والفلسطينية، في وقت كانت فيه الجمعيات الأخرى عاجزة بسبب ألم الصدمة والإحباط.

كان طبعه حازماً وقاسياً، كما كان حبه آسراً وغير محدود. غمر بالحب معارفه وأصدقاءه، الذين أحبوه بشغف. وبشيء من البساطة والجمالية كتب عنه محمود درويش قائلا: "لا أحد يمكنه الإفلات من حب إبراهيم". لم يكن أنانيا، لا مع وقته، ولا مع مواهبه، لا بجهده ولا بالتزامه، قدم كل شيء دون أن ينتظر شيئاً في المقابل.

من الصعب وصف ما يمثله إبراهيم أبو لغد لنا. ولم يكن بالإمكان أن نصل إلى ما نحن فيه لولا مساهمته ودعمه، فقد كان إبراهيم قدوة، وصديقا، ومعلما وأخا ومصدرا للأمل.

أبقى على تفاؤله المتين دوما فيما يخصنا نحن الشعب الفلسطيني وما سنصبح عليه.

حتى عندما كان يحتضر، بقي السؤال الذي يلازمه: "أين نذهب من هنا؟".

هشام أحمد فرارجة

ملاحظة المحرر [للكتاب باللغة الإنكليزية]

يستند هذا النص بالأساس، إلى نسخ للمقابلات الشفوية. وقد ارتأينا بأن تقتصر عملية التحرير على الحد الأدنى، لنبقي على الشكل الأساس للمقابلات، لكي تعكس أكبر قدر ممكن من نبرة الصوت، واللغة وروح الراوي. الخطاب هو بعد أساسي من هويته، وحاولنا تقليص التداخل بين صوت الراوي وجمهوره إلى حده الأدنى.

الفصل الأول

أيام الطفولة المبكرة

هناك علاقة بين مرحلتي سن الرشد والطفولة، إذ كثيراً ما يعوّل علماء النفس على الطفولة، لأن القيم عادة ما تكتسب خلال تلك المرحلة، وتتأثر بها وجهة النظر إلى الحياة، نتيجة للتربية التي نتلقاها ونكتسبها في المنزل. البداية كانت مع والدَي، ولا يمكنني أن أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك.

كان جدي قاضيا زمن العثمانيين واستمر في عمله لاحقا خلال فترة الانتداب البريطاني، لكن ليس كقاضي، على الأرجح، تابع ككاتب في المحكمة، أو شيء من هذا القبيل. كان جدي، الذي تلقى تعليمه في اسطنبول، ذو مكانه عالية في المجتمع. أذكر جيدا عندما كنا أطفالاً صغاراً، لا سيما في فصل الشتاء، كنا نجلس حول "المنقل"، نقص الحكايات، ونطرح الأسئلة. سألناهم مرة، عن المهر الذي دفعه والدي. أجابت والدتي، بأن المهر الذي دفعه كان صغيرا، عشرة جنيهات، أو ما يعادل ليرة عثمانية "مجيدي" واحدة. كان والدي مغرما بوالدتي، وكان اعتاد أن يأتي دوما إلى الشرفة، وهكذا كان باستطاعته النظر إليها ورؤيتها. في العادة، عندما كنا نتساءل عن كيفية زواجهما ضمن تقاليد الأسرة، كانت والدتي تقول لنا أن جدي – والد أمي– لم يكن مقتنعا أو موافقا من الزواج بشكل كاف. لم يكن هذا لأنه هو نفسه لم يوافق. هذا بالطبع ما قالته أمي، لأن والدي لم يكن ليتحدث أبدا عن الزواج. كانت أمي تقول أن زوجة أبيها، والتي توفيت والدتها عندما كانت صغيرة، كانت تهيمن على جدي. وقالت إنها لا تريد أن يكون والدي زوجا للابنة التي تحب، على الرغم من أن أمي لم تكن ابنتها الحقيقية. كانت تفضل تزويجها بشخص أكثر ثراء وأفضل مركزا. بعد ذلك، كانت والدتي ترد عليها بأنها لا تحتاج إلى أي مال. أترى، هنا تكمن القيم التي حصلنا عليها. اعتقدت والدتي أن مسألة المال كانت خاطئة. بعد كل شيء، هو أيضا ابن عمها. "إذاً، لم المال؟" كانت أمي تقول. وكانت أمي قد أعادت له ما كان قدم لها عند الزواج من مبلغ بسيط، ومن الذهب والأساور لمساعدته في تأمين رأس المال اللازم لإنشاء شركة للسكب في العام ١٩٢٩. لم يقم والدها بإسلاف المال لزوجها بسبب تأثير زوجة الأب، التي لم توافق على المشروع الذي اقترح إنشاءه.

وقد تعلمنا قيمتين ذات أهمية من ذلك؛ الأولى، أنه لا يوجد مثيل للزواج عن حب، حتى وان كان بين أبناء العمومة، والزواج بين أبناء العم هو زواج تقليدي. والثانية، أن المهر ليس بتلك الأهمية، ويتعين علينا عدم التمسك بالمهر، وهذا أصبح مهما جدا في تقاليدنا العائلية لاحقا، إذ لا أهمية للمهر في عائلتنا، وأعزو ذلك إلى حديثنا في البداية عن العلاقة بين والدَي.

قراءة جانبية

هناك قصة طريفة عن والدتي؛ فقد كانت جادة وشديدة الرغبة بالتعلم، وقد تلقّت تعليمها من خلال حضورها لجلسات الكتّاب، وليس المدرسة. لهذا، يمكنها القراءة والكتابة، وواصلت القيام بذلك، وتحسنت مع تقدم العمر. قالت لي هذه القصة لأن الجريدة كانت جزءاً من حياة المنزل، بالمناسبة، هي ما زالت كذلك، ونداوم على قراءة الصحف إلى اليوم. لم يكن باستطاعة والدتي فهم واستيعاب هاجس والدي مع الصحيفة. في أحد الأيام، بعد أن ذهب أبي إلى العمل، أخذت الصحيفة وقرأتها دون أن تجد فيها شيئا. كيف يمكن له أن يضيع كل هذا الوقت في قراءتها، وعند القراءة، لا يمكن له أن يعير اهتماما لأحد؟ عندما عاد والدي إلى المنزل، واجهته وسألته لماذا يضيع وقته بقراءة هذا الهراء: "قرأت الصحيفة نفسها، لكني لم احصل على شيء منها، لم تعنيني بشيء". وفقا لقصة والدتي، طلب منها والدي أن تجلس بالقرب منه قائلا لها: "حسنا، اقرأي الآن على مسامعي". هكذا، بدأت بالقراءة. الآن، علينا أن نعرف أن الصحيفة تتشكل من عدة أعمدة، وكل عمود يقرأ بشكل منفصل. لم تفهم والدتي تقسيم الصحيفة إلى أعمدة. ذلك، أنها بدأت من بداية السطر واستمرت إلى نهاية الصحيفة. بطبيعة الحال، لا معنى لهذه القراءة. أبي كان لطيفا للغاية، ولم يضحكه هذا. قال لها: "لا، هذه طريقتك في القراءة، أريد منك أن تقرأي الصحيفة على هذا النحو". علمها كيفية القراءة. قراءة الصحيفة كان بمثابة وفاق، بمعنى أن تتعلم كيفية القيام بذلك، لأن قراءة الأعمدة ليست تقليدية. الصحيفة هي منشور من نوع خاص، ولا أحد علمها كيفية وطريقة قراءتها. كان عليها أن تتعلم، ومنذ ذلك الحين، داومت على قراءة الصحيفة بشكل يومي.

التطور من خلال الشدائد

كان والدي، المنحدر في الأساس من عائلة صغيرة، الأهم في تكويني من حيث تحديد الاتجاه في

حياتي. لم تكن عائلة والدي عشيرة كبيرة، وبالتأكيد لم تكن قبيلة. أفراد الأسرة، الذين أتذكرهم من فترة الطفولة، ربما عددهم عشرة، خمسة عشر أو عشرين شخصا. كان لوالدي خمسة إخوة وأخوات. أخوه الأكبر، عمي واسمه محيي الدين قام على تربيته، إذ توفي جدي عندما كان والدي صغيرا، وبالتالي، أصبح عمي المسؤول عن هذه العائلة النواة. كان لديهم ثلاث شقيقات؛ اثنتان كانتا أكبر سنا من والدي، والثالثة كانت أصغر منه سنا. هذه هي العائلة التي كنت أعرفها حقاً. كان لي جد وهو أيضا أبو لغد، لأن والدي ووالدتي كانا أقارب – أبناء عم – من الدرجة الأولى. هذا هو النمط التقليدي، إلا أنه في حالة والدي – استنادا على رواية والدتي– لم تكن المسألة أبناء عمومة فحسب، بل كانا يحبان بعضهما البعض أيضا.

كان والدي، وفقا لوالدتي، يتيما. أعتقد أن عمره كان ستة أعوام عندما توفي جدي، ولذلك، كان قد بدأ للتو بالذهاب للمدرسة. لا أظن أنه أنهى أكثر من ثلاثة أو أربعة صفوف في مدرسة إسلامية. لكنه بالتأكيد كان يعرف القراءة والكتابة، وكان يستطيع القراءة بشكل جيد. ببساطة، كان هذا، لأنه كان شخصا جادا، مكرسا نفسه للقراءة. ولكن، لا أعتقد أنه تعلم إلى ما هو أبعد من الصف الرابع. قرأ القرآن، والأشياء الدينية، والصحف؛ كان مواظبا على قراءة الصحف قبل توجهه إلى العمل في الصباح وكأن الأمر دينيا. التحق بالمدرسة مبكرا ولكنه ترك مقاعد الدراسة في سن مبكرة أيضا، من أجل الذهاب إلى العمل. ولذلك، كان وضعه أقرب إلى عامل.

استطاع والدي تعليم نفسه بنفسه وتعلم أيضا من الآخرين؛ كان يلجأ إلى حضور الدروس الدينية، وكان يذهب إلى المسجد للاستماع إلى الوعظ. كان بإمكانه القيام بعمليات حسابية بسيطة، من طرح وجمع وضرب. كم تعلم من كل هذا في المدرسة؟! أو كم تعلم منه خلال خبرته مع الألمان؟ لست أدري بالضبط. لقد اكتسب مهارته من مصنع ألماني اسمه "فاغنر" وهو عبارة عن مسبك لتحضير قوالب من الصلب. كان هذا المصنع قائما خلال الفترة العثمانية، وقد كان المكان الذي تعلّم من خلاله أبي كل شيء. كان مصنع "فاغنر" يعتمد بالأساس على العمال اليهود بالإضافة إلى عدد قليل جدا من العمال العرب. ذهب والدي للعمل في مصنع يهودي حيث تعلم ما نطلق عليه "سكناجي"، لغة الأشكناز أو ايديش، Yiddish، وكان يتكلّمها بشكل جيد. كان لدينا مهندس يعمل في مصنع السكب لا يجيد سوى اليديشية، وكان يعمل لدينا بعض اليهود المختصين بإحضار

المعدات لمصنع السكب أو يتم التعاقد معهم على شكل مناولة الاختصاص. كان والدي الوحيد المكلّف بالحديث معهم، إذ أنه يعرف اللغة بما فيه الكفاية للاستمرار في محادثة مطولة سواء من الناحية المهنية أو الشخصية. من الواضح، أنه كان يمارس اللغة مراراً، حيث كان يعرف أساسيات اللغة الإنجليزية، لكن ليس جيدا بما فيه الكفاية. لم يكن هناك شك حول حقيقة أن لغته العربية لا تشوبها شائبة.

ذكرياتٌ مميزة حقاً تلك التي روتها والدتي عن المعاناة التي عاشها والدي، وكيف استطاع أن يبني نفسه عبر النمو والتطور من خلال الشدائد والصعاب. تولى شقيقه رعايته، لكن كان لديه مسؤوليات أخرى. ولذلك، لا يمكنه حقا، أن يعطيه كل الوقت الذي يريد. اضطر والدي للالتحاق بالعمل في سن مبكرة وكان عاملا ضليعا. استطاع كسب ما فيه الكفاية من خلال عمله ليكون قادرا على توفير المال. تمكن من توفير ما يكفي لزواجه، ونجح في اكتساب مهارات مكّنته من التحكم بأفضل الأسعار في السوق العربية. بشهادة الجميع، كان إنسانا صالحا، ومخلصا ووفيا، وعاملاً دؤوباً، وصادقاً ومتواضعاً. هذه هي الصفات التي أتذكر والتي أثني بصدق على حكم والدتي، لأن والدي كان خجولاً، ومتواضعاً، ومخلصاً جدا. اهتم بالناس، وقام بعمل العديد من الأمور الجيدة في الحياة. كان والدي يتحدث بهدوء. اهتم كثيرا بالأسرة، وكان مهتما كذلك بالقضايا العامة. التزامه بقراءة الصحف كان يعبر عن اهتمامه بالشؤون العامة، وهكذا أصبح أكثر اهتماما بالسياسات الوطنية.

التوجه الديني والوطني

كان والدي مسلماً جيداً، حيث كان متمسكاً بالأيمان ومؤمناً بصلاحية النظام الديني. كان ممارسا لكافة الشعائر الدينية في أوقاتها وبطريقة حسنة. لم يكن متفاخراً على الإطلاق. كان شديد التواضع في أداء الفرائض، لكنه كان يؤديها جميعا. كان مواظبا على أداء الصلوات الخمس، وصيام رمضان وصلاة التراويح. لم يكن يذهب بالضرورة إلى المسجد للصلاة، باستثناء أيام الجمع، خلاف ذلك، كان يصلي في المنزل. كنا نراه يصلي دائما ويهتم بتعليمنا الديني. ونظراً لكونه لم يحصل على تعليم ديني جيد، فقد كان يعتمد في بعض الأحيان على عمي ليعلمنا الحديث ويعطينا الموعظة. كان عمي شبه شيخ، كان يقوم بنسخ الأحاديث النبوية وبعض آيات القرآن ومن ثم مشاركتنا الحكمة الموجودة في الآيات والأحاديث. كما كان يحتفظ بدفتر ملاحظات مغلف بجلدة سوداء، يسجل فيه ملاحظاته

بشكل دائم. وعندما كان يتحدث إلينا، كان ينظر دائما إلى ملاحظاته التي يدونها في دفتره.

كان والدي واسع الأفق بما فيه الكفاية: على الرغم من توجهه الديني، كان يسمح لنا بالذهاب إلى السينما. كانت لدينا في يافا واحدة من دور السينما الأولى التي أنشئت في فلسطين، الحمراء، والتي ما زالت تعمل إلى اليوم، ولكنها الآن في أيدي اليهود. كنا نشاهد أفلام "لوريل وهاردي، Laurel and Hardy، التخين والرفيع". شاهدنا الأفلام العربية لنجيب الريحاني وعلي الكسّار، كما استمعنا إلى عروض نجيب الريحاني الذي حضر شخصيا إلى يافا. أم كلثوم هي الأخرى جاءت إلى يافا، ومحمد عبد الوهاب كذلك. كان هناك ثقافة فنية متاحة لنا في يافا. سمح لنا والدي، وقام بمرافقتنا لمشاهدة هذه العروض. كان يقدر هذه الأنشطة الثقافية وكان يريد لنا من خلالها الثقافة والتعلم. بالنسبة إليه لم يشكل الدين عائقاً للاستماع إلى أم كلثوم أو عبد الوهاب، أو لمشاهدة المسرح.

المطاردة من أجل الفوز برضى الله

كانت تجربتنا المدرسية الأولى، نظرا للاهتمام والالتزام الديني لوالدي، مدرسة إسلامية خاصة. كانت المدارس الحكومية متاحة، لكن الإشاعات في ذلك الوقت كانت تتحدث عن إدارتها من قبل الحكومة البريطانية، التي كانت تقوم على تقويض الدين، أي تقويض ثقافتنا. كانت المدارس الحكومية تركز على تدريس المواضيع العلمانية. إنهم في المدارس الحكومية لا يعلمون الدين بشكلٍ كافٍ: لم يكن كافيا تعليم القرآن والتجويد والقراءة. حرص والدي على أن نذهب جميعا، أنا وأخوتي إلى المدرسة الإسلامية ذاتها التي كان يديرها مدير، كان اسمه الأول سعيد، من عائلة الكيالي. المدرسة التي التحقت بها كانت المدرسة الابتدائية الإسلامية. لا أستطيع أن أتذكر الآن ما إذا كانت المدرسة تحتوي على الصف السابع الذي كان ما زال جزءا من الابتدائية في تلك الأيام، لكن والدي قام بنقلنا من تلك المدرسة في الصف الثالث أو الرابع، لا يمكني الإجابة عن السبب الذي دفعه للقيام بذلك. لكن، باعتقادي أن وفاة المدير، كان له علاقة بالنقل. مدير المدرسة الابتدائية، سعيد الكيالي، هذا، كان صديقاً لوالدي، كلاهما كانا فاعلين في السياسة المبطنة، أو ما يمكن أن يطلق عليها السياسة السرية. كانا من مؤيدي المفتي، الحاج أمين الحسيني. كنت على علم باجتماعاتهم بشكل دوري مثل الماسونية. كانوا يلتقون مرة في الأسبوع في منزل احدهم، يشربون القهوة ويناقشون السياسة. كان موت مدير المدرسة نتيجة لنوبة قلبية حادة، وأظن أن نقلي

من المدرسة كان له علاقة بشكل أو بآخر بموت المدير. لن تكون المدرسة نفسها بعد هذا الحادث. في الواقع، أغلقت المدرسة في نهاية المطاف. كان سعيد الكيالي مديرا جيدا للمدرسة، شهرته وقلقه صنعا مسيرة المدرسة. المعرفة التي ما زلت أحمل من المدرسة تكمن في القدرة على تذكر عدد من الآيات القرآنية، فقد حصلت على توجيه ديني متين في سن مبكرة، كنت متديناً عندما كان عمري ربما أحد عشر أو اثنتي عشرة سنة. أذكر حينما كنت صغيراً، وكان عمري ما بين عشر سنوات إلى ثلاثة عشر سنة، كنت اذهب دوما إلى مسجد حسن بيك، الذي ما يزال قائما إلى الآن، والذي تم ترميمه أيضا. كنت أذهب للصلاة، وكان الإمام الذي ينادي إلى الصلاة كسولا، لذلك، كان يرسلني إلى أعلى المئذنة. كان مثيرا للاهتمام الوصول إلى أعلى المئذنة والفوز برضى الله ورضى الوالدين. كنت أبتغي الهداية بالشكل الصحيح، حتى أكافأ من قبل عائلتي وأفوز برضى الوالدين كوني أصبحت متدينا وطاهرا. ولكن، ومع سنوات المراهقة، بدأت أتراجع.

الشيخ الصغير أم المحامي الصغير؟

كان لدى أبي فكرة راسخة في ذلك الوقت: كان يريدني أن التحق بجامعة الأزهر لأصبح عالماً، أي شخصية قيادية دينية. كان يرى أن هذا ما قد يلائم شخصيتي. كما اعتقد بأنني جدير لأكون عالما ممتازا، عصريا، لا عالما رجعيا مثل الآخرين. كان الأزهر هو المكان الأفضل لذلك، للدراسة مع تلاميذ الشيخ محمد عبده، الذين كانوا يشكلون النموذج لمستقبلي حسب والدي. خلال سنوات المراهقة الأولى، قرر والدي بأن الدراسة في الأزهر لم تعد ملائمة لي عندما أكتشف أنني كذبت. وقال حينها: "علينا أن نرسلك لدراسة المحاماة، لأنه من المفترض على المحامين الكذب". منذ ذلك حين، وبتأثر من النجم السينمائي المصري، يوسف وهبي، زادت لدي الرغبة والاهتمام بالمحاماة. كان هناك ربط بين المحاماة وبين الأداء الدرامي للمحامي، وارتداء هذه الثياب، ذلك، أن البريطانيين أصروا على كيفية المثول أمام المحكمة مثل القضاة.

أعتقد، من دون التأكيد على ذلك، أن والدي حدد هذا التحول في سلوكي واهتمامي، لذلك، قام بتحديد المهنة التي يمكنني ممارستها. من المهم جدا معرفة ما كان يجول في خاطره: علي أن أكون متعلما. ذهبت إلى مدرسة إسلامية واكتسبت قيما إسلامية، ثم ذهبت إلى مدرسة حكومية. أدرك والدي أن المدرسة الحكومية كانت ذو توجه مختلف وإن كان كلاهما، التعليم الإسلامي والتعليم

الحكومي، سيتلاقيان، وسيتجلى ذلك في بعض مما لدي من الخصائص الضعيفة كالكذب، وتحولي نحو المحاماة. لم يكن يساوره شك بأن لدي ما يكفي للحصول على مهنة مختلفة عن تلك التي امتهنها هو. وهذا أوجب علي دراسة المحاماة. لم تتقيد تطلعات والدي بمدينة يافا، ولم يقتصر أفقه على فلسطين. أعرب أبي عن اعتقاده بأننا سنتمكن من الحصول التعلم والتعليم في مصر أو في أي مكان آخر. من هذا المعنى، أود القول أن تطلعاتنا ووجهة نظرنا للعالم كانت محددة ومشروطة بما كان يعتقد، وبالطبع كان اعتقاده من الناحيتين الإسلامية والعربية. لا أريد القول بأنني ما زلت ملتزما بذات النظرة إلى العالم، على الرغم من ظهورها في كتاباتي، إذ لا زال لدي بعض العبارات من التقاليد ومن القرآن، التي عادة ما يتم استخدامها في محاضراتي ومداخلاتي العامة. في الفترة التي التحقت فيها بالمدرسة الحكومية، كان مستوى التعاليم الدينية ودراسة القرآن، أقل مما كان لدينا في المدرسة الابتدائية، حتى سورة ياسين. الدروس التي كانت مخصصة لتعليم الدين والقرآن كانت أقل.

أحياناً أميل إلى الحديث عن الطريقة التي تأثرت من خلالها بشكل حقيقي من قبل الأسرة وما كانوا يبتغون، لأنني لا أعتقد أن الطريقة التي نشأنا بها كانت تلقائية وعفوية، أظن أنه كان هناك اتجاه ما لنمونا. عندما أفكر في طفولتي المبكرة، أعتقد أن هناك اثنتان من القضايا الهامة المتعلقة أساسا بالتنمية الذاتية اللاحقة، كانتا من الجوانب الهامة لنموي وتطوري، حيث العائلة بالمعنى المكتسب. الأولى كانت دراستي وحقيقة أني التحقت بالمدرسة الإسلامية الخاصة والمدرسة الحكومية العامة على حد سواء. أما الجانب الآخر ذات الأهمية من طفولتي فقد كان ما تعلمته من والدي ومن غيره من الناس الذين تعرضوا للاعتقال والسجن من قبل البريطانيين.

كان بيتنا دينيا بمفهوم الإيمان والاعتقاد. كانت أمي وأبي مسلمين بمعنى الكلمة، ممارسين وملتزمين بإقامة الشعائر والفرائض الدينية. كانوا مسلمين ذو أفق واسع، وكانوا يؤمنون بأن الإسلام يمنحك شعورا ومعان من القيم، وقد كانا مهتمان جدا بنقل ذلك لنا كأطفال. وأظن أن إحدى الطرق التي حاولوا إتباعها لتحقيق ذلك هي تسجيلنا في مدرسة كانت بالأساس مدرسة إسلامية. لا أذكر أني ذهبت يوما إلى الكتّاب، على سبيل المثال. ذهبت إلى ما كان يعرف باسم المدرسة الابتدائية الإسلامية، وهي مدرسة عادية، تفرض علينا حفظ القرآن والحديث. من العنوان، استطاعت المدرسة إعطاء نفسها بعداً معيناً: كانت مدرسة إسلامية. كان لوالدَي، بشكل أساسي لوالدي، حضورا في تعليمنا ودراستنا. قاموا بوضعنا جميعا، أطفالا، في المدرسة نفسها. ولذلك، اهتم

والدي بتعليمنا، وأعتقد أن هذا ما كان يفكر به، إذ أن المدرسة الحكومية في ذلك الحين لم تقدم الأساس الجيد لتعليم إسلامي كما كانت تفعل المدرسة الإسلامية. أفسر هذا لأبيّن أنه كان مهتما بحق في سبيل تحقيق الرفعة لنا في المجتمع الذي هو أساس راسخ في النظام الإسلامي. لذا، ذهبنا، إخوتي وأنا إلى المدرسة، لكن إلى حد معين فقط. وكان هذا قد زودنا بالأساس الذي بنيت عليه تنميتنا في وقت لاحق بسبب انجذابي لتلك التعاليم الإسلامية، حتى بعد انتقالنا إلى المدارس الحكومية.

على الأرجح أنني استمررت حتى الصف الثالث، إن لم تخني الذاكرة، قبل أن ينقلنا والدي إلى المدرسة الحكومية. في الصف الثالث، حصلت على ما يكفي من أسس النظام الإسلامي. كنت مداوما على الصلاة، وعلى الصوم وعلى القيام بجميع الفرائض والشعائر الأخرى. تعلمت كل هذه الأشياء وما قد تعنيه، في المدرسة. أعتقد أن تأثير تلك الفترة منحني التوجه نحو مهنة ما، في المستقبل. نتعلم الكلام، نتعلم إلقاء خطاب، أو محاضرة، نتعلم تلاوة القرآن والاستشهاد به وبالحديث الشريف، وتعلم كيف تدعم كلامك بالاقتباسات من القرآن والسنة. أصبح هذا معروفا بشكل واضح لجميع عائلتي، أصبحت حريصا بشكل كبير بأن يكون المستقبل ذو منحى ديني، جزئيا بسبب اهتمامي الدائم والمستمر بالعبادات والاقتباسات، وكنت أذهب دوما حتى في سن مبكرة إلى المسجد للصلاة.

أذكر جيدا هذه المرة، حيث التوجه الديني الذي اكتسبته أظهر ذاته. كنا في المنطقة الواقعة جنوب مدينة يافا والمسماة النبي روبين، وهي عبارة عن مجموعة من التلال، وربما تبعد مسافة عشرة إلى خمسة عشر كيلومترا تقريبا إلى الجنوب من يافا. كانت هذه المنطقة منتجعا صيفيا لجميع الناس، وفي شهري تموز وآب من كل عام، عمليا يذهب جميع سكان يافا إلى هناك ويعملون على نصب وبناء الخيام. يذهب الرجال عادة إلى العمل كل يوم، ويعودون في المساء، وما عداهم من النساء والأطفال، يبقون في المكان الذي تنبعث فيه الحياة ليلا. كان هناك المقاهي، والكاراكوز، والمسرحيات بالإضافة إلى جميع أنواع الأنشطة الأخرى. بالنسبة لأهالي يافا، كان هذا نشاطا موسميا. كانوا يأخذون عرباتهم، ويذهبون على ظهور الجمال. المدينة كلها كانت تهاجر خلال الصيف. هناك، كنت معتادا على الاحتفاظ بطائر الهدهد، في لحظة ما، وحين كنا هناك، توفي الطير. أعتقد أن عمري كان في ذلك الوقت عشرة أو احد عشر سنة، وأردت حينها دفن الهدهد.

أقمت جنازة وقمت بالصلاة على الهدهد. فعلت بالطريقة إياها وتماما كما نفعل عادة عند موت أحد الناس. بعد ذلك، أصبحوا ينادونني بالشيخ.

بسبب توجهي الديني هذا، كان على والدي أن يدرس جيدا أوجه المقارنة والشبه بين الأزهر ودار العلوم، لتحديد المكان الأفضل لتعليمي المستقبلي. اشتهرت دار العلوم لتكون نسخة حديثة من الأزهر، حيث بإمكانك أيضا الحصول على أسس في اللغة العربية وآدابها. يمكن للنتيجة أن تكون متوجة بالحصول على شهادة غاية في الأهمية. كان مسرورا بفكرة أني أرغب بالالتحاق بالأزهر وأن أصبح عالما وبالتالي، إماما للمصلين. وكما نعلم، كان العلماء في المجتمع الإسلامي التقليدي ذو وضع بالغ الأهمية. هذا الوضع منحهم كذلك مكانة عالية في الأسرة التي ينحدر منها العالم.

انتقلت آمال وتوقعات والدي لي من الدين إلى المحاماة، التي هي نشاط علماني. بل هو كذلك شرط أساسي للانخراط في السياسة، لأنك تتعلم فن الخطابة: عليك أن تكون متحدثا بارعا، وذو تواصل، ومجادل، كما عليك الدفاع نظريا عن كل ما هو عادل. كان هناك، على ما أعتقد، انطباعا عاما شعرنا به وهو أن المفاوضات مع البريطانيين تتطلب هذا النوع من الكفاءة. في سن مبكرة، كنت أريد عمل شيء ما في الصيف، كنت على الأرجح في سن الثالثة عشرة أو أربعة عشر، وكنت قد تدربت عند محام كان اسمه فايز كنفاني، والد غسان كنفاني، الكاتب والروائي الفلسطيني المعروف. كنت أعرف ذلك الرجل عندما كان والدي في مشكلة أو في السجن، كنا نذهب عادة إليه، وكان يقدم لنا المشورة بشأن ما ينبغي فعله. قضيت صيفا كاملا أعمل كصبي مأمورية في مكتبه. ولأسباب متعلقة بمهامي، كنت معتادا على المثول في المحاكم، وكنت فضوليا جدا للتعرف على ما كانوا يفعلونه هناك. كان لدي انطباع قوي جدا حول عمل المحكمة، وكنت معتادا على رؤية القضاة البريطانيين يرتدون ثيابهم. هذه التجربة عززت كذلك الميول الذي تكوّن لدراسة المحاماة.

محام آخر أصبحت في اتصال معه هو بطرس ملك. أتذكر مجادلاتي معه عندما عزمنا على تنظيم وتأسيس اتحاد الطلبة. طوال تلك الفترة، حضرت مرافعة القضايا في المحاكم، حتى أنني ذهبت مرة في مهمة إلى مدينة الرملة بتكليف من السيد كنفاني لأطلب من القاضي تأجيل محاكمة. كنت أرتعش وأنا أمثل أمام القاضي للقيام بهذا الطلب البسيط. كان القاضي عربيا، وقاسيا نوعا ما تجاهي. وقد سألني، لماذا لم يستطع كنفاني المجيء بنفسه. أجبت: "يقول أنه منشغل". لم أصبح

أبدا محاميا، لكنني كنت دائما مهتما بالمحاماة. فكرت لاحقا، عندما ذهبت إلى الولايات المتحدة، أن مدارس ومعاهد القانون هناك لن تهيئك لهذا النوع من القوانين التي نحتاجها في فلسطين. لذلك، درست التخصص الأكثر قربا إليه، ألا وهو العلوم السياسية.

الشاب والبحر

تعلمت التمايز الاقتصادي من حيث المهن. كانت يافا مدينة البساتين والبيارات، فقد كانت بساتينها شاسعة وكبيرة، وبيارات البرتقال كانت داخل المدينة. هناك أجزاء من المدينة، اليوم، حديثة البناء نسبيا، لكني أتذكر جيدا عندما كانت بيارات البرتقال خارج مدرستي بحوالي مئتي متر. من خلال الصيادين، اكتسبت حب البحر كمصدر للغذاء، بالإضافة إلى كونه مكانا للمتعة ومصدرا للحياة. وبقي ذلك الحب للبحر متأصلاً بي، إذ كنت دائم الانجذاب نحو الماء ونحو الأسماك. إن ما تمثله يافا بالنسبة لي، ليس سوى نوع من الحياة المثالية: النظر إلى البحر والحلم دوما بما يوجد في الطرف الآخر من الأفق، أن تتاح لك فرصة الحلم، والتفكير في عالم كبير جدا، منفتح على الخارج. ما زلت شديد الانجذاب للبحر، بحيث أن نشاطي المفضل يبقى المشي قرب البحر، والنظر إلى الجانب الآخر وتخمين ما يكمن هناك. ماذا يفعلون؟ من هم هؤلاء الناس؟ يترعرعون من خلال البحر. لم أكن مقتصرا على المدينة، لم أكن مقتصرا على مجتمعي. بدلا من ذلك، كنت جزءا من العالم الذي هو كبير حقا، وحلمت بالذهاب للتعرف عليه واكتشافه. أحيانا، وبين الفترة والأخرى، كنت أركب البحر برفقة الصيادين، كنت مبهورا بهذا الامتداد من المياه. كنت في منتصفها، وكنت أعتقد أنها المعجزة، بأن استطيع أن أكون على متن سفينة تحركها الأشرعة. وإذا ما منحت حرية الاختيار، حتما سأفضل العيش قريبا من شاطئ البحر. وواحدة من أحلامي، هي أن يكون لي مركب صغير خاص بي والإبحار به بعيدا في البحر.

العلاقات الأسرية

كان والدي رجلا جادا، ولم تكن لديه روح الفكاهة أو على الأقل لم أذكر أنه كان صاحب نكتة. اعتدنا في مجتمعنا، أن نكون أصحاب وجوه عابسة، لم نعتد على أن نكون أصحاب ابتسامة على طريقة الأمريكيين في ابتسامتهم. أتذكره دوما بنفس الشخصية التي تبينها الصورة: رجل جاد

عبوس، لم يبتسم أبدا، على الأقل على صورته، ولا أستطيع تذكره مبتسما في الماضي. ومع ذلك، كان والدي حنونا بشكل فظيع، وكان يشبهنا في الكثير من الجزئيات والخصوصيات التي تكتسينا كأطفال. كان انضباطيا صارما، بالطبع، ضربنا، وهذا كعقاب بدني، كان عاديا.

أعتقد أن حسن، أخي الأكبر، كان يشكل إلى حد ما، خيبة الأمل بالنسبة لوالدي، لأنه لم يكن مجتهدا في المدرسة التي أخرجه منها حين كان في الصف الرابع الابتدائي. كان حسن مشاغب و"أزعر". ما أتذكره عن حسن، الضربات التي كان يتلقاها من أبي نتيجة لعدم انصياعه، لبقائه خارج المنزل ليلا أكثر مما ينبغي، والدخول دوما في صراعات ومشاكل مع الآخرين. أراد والدي لابنه أن يكون مهذبا ومراع لرغبات الآخرين، وأن يظهر احترامه لوالده وللجميع، لكن حسن كان في سن المراهقة المتنامية.

أخي الثاني، محمود، لم يكن هو الآخر مجتهدا في المدرسة، وكان مصيره مشابها لمصير أخينا الأكبر، حيث قام والدي بإخراجه من المدرسة كذلك. قام والدي بأخذ الاثنان للعمل معه في مصنع السكب. أصبح حسن عامل مخرطة، أو فني خراطة محترف، واكتشفت لاحقا بأنها مهنه مهمة جدا في الولايات المتحدة الأمريكية. لم يكن محمود يحب هذا العمل وكان مستاءً من العمل في مصنع السكب، بالرغم من أنه أصبح صاحب مهنة. محمود، للأسف، لم يعش طويلا، قتله البريطانيين في العام ١٩٤٧. كان على ما يبدو، يقوم بنقل أسلحة في سيارته إلى يافا. حاول أفراد الشرطة البريطانية توقيفه، لكنه لم يمتثل للأوامر. وهكذا، أطلقوا النار عليه وعلى الراكب الذي كان معه. توفي محمود على الفور عن عمر يناهز ٢٢ عاما.

الأخ الثالث، أحمد، كان ملاكا والطفل المفضل في العائلة. كان لطيفاً جدا، مؤدباً جدا ومطيعا للغاية، وكان مجتهدا في المدرسة، وكان بالتأكيد المفضل بالنسبة لوالدتي بسبب طاعته لها. عندما كان والدي يقوم بإحضار صندوق من التفاح، كانت والدتي تخبئ له وحده بعض التفاحات، بسبب كوننا أشرارا، وكنا نتقاتل ونتصارع للاستيلاء عليها. لذا، عندما كنا ننتهي من أكل ما لدينا، كان أخي لا يزال يأكل نصيبه من التفاح. شقيقي الأكبر الثاني وأنا، كنا نهجم عليه ونضربه، لكونه مفضل العائلة. لكن، هذا الابن المفضل، كان لطيفا، ولكونه أكبر مني، كان في صف متقدم في المدرسة، وقد انتخب في الانتخابات الطلابية ليصبح زعيماً طلابياً في يافا. كنت دائما أشعر أنني

منافس له، ومستاء لكونه المفضل في البيت وفي المدرسة. في بعض الأحيان، كنت أود فعل أشياء معاكسة، بهدف جلب الانتباه والملاحظة. كان التنافس بيننا قويا، لكنني خسرت دائما بسبب دعم عائلتي لأحمد. لا أعتقد أننا تمكنا من التخلص من روح التنافس هذه حتى بلغنا سن الأربعين.

بدون شك، وبطريقة مختلفة، أحب أبي وأمي سعيد، أخي الأصغر بعامين؛ كان طفلا لطيفا. كنت أرى المودة المتدفقة نحوه من والدَي. كانا يحترمانه ويحبانه كثيرا، كانا يظنان أنه كان دائما على ما يرام. كان جادا ومجتهدا، لكن سعيد هذا، كان "أزعرا" وشقيا، كان شيطانا. كانت لديه القدرة على الخروج من المشاكل والمتاعب بسحره و"فتانته" لأمي وأبي.

كانت والدتي جد مسيّسة، نتيجة للمحن والصعاب التي عاشتها، استطاعت أن تكوّن أراء سياسية قوية. كانت من المؤيدين والداعمين للحكيم، جورج حبش، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت شديدة الحذر، لم تكن تريد أن يمسسنا ضرر. كانت على معرفة بأن أبناءها ناشطين سياسيا، كانت قلقة من أن يصيبنا ما أصاب والدنا، نتيجة هذا النشاط السياسي، لكنها لم تطلب أبدا منا الابتعاد عن السياسة. حلت والدتي مكان أبي بعد وفاته كرب للأسرة. بحيث كان لها كبير الأثر على طباع أطفالها، بما فيهم أنا. لم تكن والدتي تحب الطهي، كانت تفضل أن تكون مع الناس، أن تزور صديقاتها وأن تتبادل الأحاديث معهن. كانت تكره البقاء ملتصقة في المطبخ، وهذه واحدة من السمات التي ورثت عنها.

توفي والدي في العام ١٩٤٤ وكان صغيرا جدا، كان عمره ٤٣ أو ٤٤ سنة. آه، لو كنا نعرف أكثر عن الطب في تلك الأيام، ربما لبقي إلى اليوم على قيد الحياة، لأنه كان يعاني من ضغط في الدم. الذاكرة الأخيرة التي لدي عن أبي حينما كان على سرير الموت، كانت ساعته الأخيرة ربما، وقد جئنا جميعا لوداعه، كونه كان في اللحظات الأخيرة من حياته. كان سعيد في الخارج يلعب مع أصدقاءه، كان عمره، ربما تسع أو عشر سنوات، كنت استطيع ملاحظة ورؤية المودة الكامنة لسعيد عند أبي. أشرقت عيناه بهجة عندما رآه، وضع يده على شعره، قائلا: "خليك... شاطر". كانت تلك كلماته الأخيرة. وهكذا، أصبحنا نسمي سعيد ب "البيبي" أو الطفل. كان يحب أن ينادى بهذا، وأستمر في ذلك حتى أصبح كبيرا. ومع ذلك، بقي يلعب نفس اللعبة مع والدتي.

أصبح سعيد كابتن فريق كرة قدم في عمان. قضى مرحلة شبابه في عمان، بعد أن أصبحنا لاجئين.

أصبح الكابتن على مستوى المدرسة بداية ثم على مستوى الأردن، بعد أن تمكن فريقه من هزيمة كافة فرق كرة القدم الأخرى، فائزا بالكأس الفضي، قبل أن نجيء به إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة. ذهب إلى جامعة أوكلاهوما وأصبح مهندسا في علم الجيولوجيا. بنى نفسه بنفسه، لم يكن لدينا المال منذ أصبحنا جميعا في مرحلة الدراسة الجامعية، لذلك، وبسبب عمله إلى جانب دراسته، استغرق حصوله على شهادة البكالوريوس سبع سنوات كاملة.

كنت المستقر الوحيد في العائلة في ذلك الوقت، كنت قد تزوجت حينها، لذلك، كان بإمكان أخي سعيد المجيء والبقاء مع أسرتي. كانت والدتي دائمة القلق عليه في تلك الأيام. لم نكن نتصل بأحد: كنا نتواصل عبر الرسائل البريدية، لم أتكلم مع عائلتي عبر الهاتف لمدة ثماني سنوات متواصلة، إذ لم تكن لدي الإمكانات للقيام بذلك. لم أعرف كيف حصل هذا، وعلى أية حال، لم يكن لدى عائلتي هاتف. لذا، كنا نتواصل عبر الرسائل التي كان يحتاج تسلمها لأسبوعين أو ثلاثة. لكن، أخي سعيد لم يكن يكتب، لذلك قلقت والدتي: "هل هو حي أم ميت؟ أنت لا تقول الحقيقة، ماذا حدث له؟". لذلك، كان علينا أن نؤكد لها وجوده. عندما كان في زيارة لنا، طلبت منه الجلوس على المكتب وأن يكتب عشرة رسائل. عشرة من رسائل البريد الجوي. رسالة إلى والدتي، يكتب فيها ما يلي: "كيف حالك؟ أنا مبسوط. المدرسة كويسة... كيف صحتك أنت؟ كيف الأولاد؟". كانت رسالة تقليدية أو كلاسيكية، رسالة أكثر شكلية. أما الرسالة الثانية فيكتب فيها: "شكرا على رسالتك. تعلمت الكثير من رسالتك". كله كذب و"هيلمة". في بداية كل شهر، كنت آخذ رسالة وأرسلها في البريد. كانت أمي تقول: "حبيبي سعيد، الله معه. هو أفضل واحد. هو دائما يكتب لي". أحيانا، كنا نجلس جميعا معا: أخي الأكبر، سعيد وأنا، وخلال إحدى هذه الجلسات، واجهنا والدتي واتهمناها بالتحيز. "أنت لست ذات موضوعية، تفضلين سعيد لأنه يبدو لك هادئا. سعيد قام بخداعك. سعيد هذا، شيطان صغير. سعيد لم يكتب لك أبدا أية رسالة".

أنظر إلى نفسي الآن، وأرى كيف أتعامل مع أطفالي. أواجه الحقيقة، التي هي في الواقع، كآباء، أننا نحب أبناءنا وأنهم يحبوننا، لكن لكل طفل مميزات وطريقة رد مختلفة عن الآخرين. لكن، هذا ما لم نكن نعرف في ذلك الوقت. لذا، كنا نضرب أخانا الأكبر، أو محاولة معاقبته لكونه المفضل. الأخ الأصغر، لا يمكننا ضربه: كنا فقط نريد له أن يصبح أفضل في المدرسة لأنه كان مدللا. فقط، يمكنك أن تتعلم هذا في المنزل.

الفصل الثاني

ذكريات يافاوية

كنا نعيش في حي المنشية، على حافة الجزء من المدينة التي تسمى "ارشيد". وحي ارشيد عبارة عن حارة متميزة، أنشئت في القرن التاسع عشر، من قبل من تبقى من الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا. و "ارشيد" هي رشيد، المدينة المصرية. يحكى أن المستوطنين المصريين الأوائل لهذا الحي من المدينة قدموا من مدينة رشيد، لذا أطلقوا عليها اسم ارشيد. بعض الأسر التي أعرفها هي من أصول مصرية: عائلتا أبو لبن وأبو الجبين كلاهما جاءوا من مصر.

لذا، فإن طرح جوان بيترز، Joan Peters، تلك السيدة المخادعة، فيه الكثير من المبالغة رغم أنها مأخوذة من الواقع، لكن لم يعتبر الفلسطينيون أبدا أنفسهم شعباً مختاراً أو شعباً استثنائياً. تاريخيا، فلسطين، معروفة بأنها أرض لشعب مختلط. الصليبيون قدموا إلى هنا واستقروا في فلسطين، وهم هنا كفلسطينيين. لهذا، نحن لسنا حصرا من أصل واحد، وإنما شعب مختلط. لقد أساءت جوان بيترز فهم واقع الشرق الأوسط الذي يشكل منطقة مفتوحة الحدود، والناس يتحركون ذهابا وإيابا وفي كل الاتجاهات. هناك عائلات لبنانية في فلسطين، وعائلات فلسطينية في لبنان. فلسطين، على وجه الخصوص، تم احتلالها وفتحها من قبل المسيحيين، واليهود والمسلمين والباكستانيين والأفغان، هذا لا يعني أنهم ليسوا فلسطينيين. بهذا المعنى، رشيد ذكرت في كتب القرن التاسع عشر كمدينه يقطنها ٣٠٠٠ نسمة. الجميع أقر بأن سكان هذه المدينة هم من فلول الجيش المصري الذي جاء مع إبراهيم باشا.

كان هناك في يافا سبيل، وهب من قبل شخص يدعى أبو نبوت، وبالتالي أصبح يطلق عليه سبيل أبو نبوت. أبو نبوت هذا، كان واحدا من قادة الجيش المصري الذي أراد منح فائدة السبيل إلى العامة، وبقي السبيل قائما بالتأكيد حتى غادرنا في العام ١٩٤٨. وبما أنني كبرت هناك، كان مصنع السكب الذي أنشأه والدي يقع في الجهة المقابلة من الشارع الذي يقع فيه السبيل. كنا نذهب إلى هناك للغسيل أو لشرب الماء، يا له من ماء عذب. هو جاف الآن، ليس لدي أي فكرة عن التاريخ الذي جف فيه السبيل، لكن عندما جئت لأول مرة عائدا إلى فلسطين في العام ١٩٩١، كان السبيل جافا.

عشنا في منزل استأجرناه من عائلة زين، ومن هذا المنزل، أذكر جيدا، أنني خرجت في أول مظاهرة في يافا، أتذكرها كما لو كانت بالأمس. حملت أخي سعيد، الذي كان يصغرني بسنتين على كتفي وسرنا متوجهين إلى المظاهرة الضخمة في يافا، والتي كانت تبعد عدة أمتار عن مكان إقامتنا. سمعتهم يصرخون، لذلك ذهبت لرؤية التظاهرة. كانت المظاهرة، ربما، على علاقة بالإضراب أو أنها جاءت مباشرة بعد الإضراب، في نهاية العام ١٩٣٦. كانت مظاهرة ضخمة، ورأيت، أو على الأقل، لمحت، وللمرة الأولى قوات الجيش البريطاني وشرطة الخيالة التي كانت تمتطي ظهور الخيل مسلحة بالهراوات الكبيرة، تضرب رأس أحد المتظاهرين، ورأيت الدماء تسيل من رأسه. وكنت أقول لأخي الأصغر، الذي كان مجرد "أحمق" ذو الأربع سنوات، "شايف هيك"؟ بالطبع كنت أحاول أن أطمئن نفسي، لكنه كان يصرخ: "آه... آه.... شايف... شايف".

كان هذا ما يطلق عليه البريطانيين "أعمال الشغب". لكن، "أعمال الشغب" هذه كانت تسمية غير حكيمة. كانت هذه الأحداث أكثر من انتفاضة. أتذكر، بطبيعة الحال، هتافات مثل: "تسقط الامبريالية البريطانية"، "يسقط وعد بلفور"، "تسقط الصهيونية" وغيرها من الهتافات. كانت جميعها، هتافات: تسقط... تسقط، ولم نسمع أي هتافات: "تحيا... تحيا". أذكر ذلك اليوم، حيث كان هناك وجهتي نظر متناقضتين تماماً حول ما يجري في فلسطين. هناك الشباب الذين يذهبون إلى المواجهة على خط التماس مع الجيش الإسرائيلي، وهم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٠ عاما، يلقون الحجارة والجنود الإسرائيليون يردون بإطلاق النار عليهم. الانطباع من خارج فلسطين، في الغرب وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية، بأننا لا نستطيع أن نبقى أطفالنا في المدرسة، وأننا بدلا من ذلك نقوم بإرسالهم إلى نقاط التماس للمواجهة مع الإسرائيليين. هي الفكرة كلها حول تضحية الأمهات بأطفالهن ودفعهم للذهاب إلى هناك. أذكر جيدا، أنه في حالتي لم يدفعني أحد للذهاب إلى المظاهرة. كنت أعرف تماما أنها كانت ضد البريطانيين وضد الصهيونية. لم يكن يساورني شك، في سن السابعة، حول من هم أعداء الفلسطينيين، كنت أعرف هذا دون الحاجة لطرح الأسئلة.

الشيء المثير للاهتمام عندما عدت من المظاهرة وبعد أن تمكن البريطانيون من التغلب على الانتفاضة، واعتقال وجرح الكثيرين من أبناء شعبنا، نتيجة الاعتداء عليهم بطريقة وحشية، قيام أمي بتوبيخي

وتأنيبي بعد أن فتحت لنا الباب. لكنها لم تؤنبني بسبب ذهابي إلى المظاهرة، بل كان التوبيخ بسبب اصطحابي لأخي الأصغر: "كيف تجرؤ على اصطحاب شقيقك الأصغر؟"، صارخة في وجهي. لذلك، كان الأمر طبيعيا بالنسبة لي الذهاب إلى المظاهرة في سن السابعة. كنت كبيرا بما فيه الكفاية لكي أفهم.

تفهم الأمهات جيدا ما يقوم به أطفالهن. ولا تستطع الأمهات تقييد الأبناء أو حجزهم في المنزل، لأن هذا العمل جزء من التحرر الوطني: أنت في مواجهة العدو، وبالتالي تستمد القوة من جديد من رموز السلطة في المجتمع الذي تعيش فيه. وهكذا، في كل مرة اسمع هذه الملكة البائسة – ملكة السويد– تقوم بتصريح غبي حول أننا لا نقوم بحماية ودعم أطفالنا، أود أن أقول لها: "علينا تحرير البلاد، من سيحررها إن لم نكن نحن؟" هذا هو السؤال.

لنعد إلى بيتنا، على يسار المنزل، كان هناك فرن اسمه فرن خلف، وكان هذا الفرن لعائلة أبو لحية. وكان فرنا جيدا، وكانت هناك العديد من الأفران أيضا من هذا القبيل. كان هناك على سبيل المثال، فرن أبو العافية الذي لا يزال قائماً إلى اليوم. في كل مرة أذهب فيها إلى يافا، أقوم بشراء بعض الأشياء من هناك. يقدمون خبز بالزعتر، بالجبن وبالبيض، الباجيت والكرواسون الفرنسي... الخ. يقومون بعمل كافة المعجنات العربية كذلك. بالطبع، لقد تغير الزبائن، واستطاعوا في الفرن التكيف مع العصر الحديث. في أيام الطفولة، كان والدي يحضر معه بعض المعجنات إلى البيت لمكافئتنا. كان هناك نوع خبز جديد وصل إلى يافا، وكان يسمى، خبز فينو؛ وهو عبارة عن خبز سميك ذو قشرة صلبة. كان يصل من الفرن طازجا. كنا نتناوله مع الجبنة الصفراء والشاي، وكان ذلك عشاءا رائعا. كانت حقا مكافأة ووليمة رائعة. على الأقل مرة في الأسبوع، كان والدي يكافئنا بهذا الخبز. وأصبح هذا تقليدا إلى أن أصبح أخي الأكبر صاحب المسئولية عن العائلة. حاولت أن أفعل ذلك في رام الله، لكني لم أجد خبز فينو هنا، كان بالإمكان معاودة ذلك في باريس، حيث هذا النوع من الخبز موجود لدى الفرنسيين.

هذا الفرن، فرن أبو العافية، ما زال موجودا إلى وقتنا هذا، ولديهم اليوم مطعما أضافوه لاحقا، اسمه كذلك، مطعم أبو العافية. عائلة أبو العافية، عائلة مثيرة للاهتمام. أحد أبناء العائلة، واسمه خميس، كان مراسل التلفزيون المصري، ويقوم بتغطية الأنباء القادمة من إسرائيل. هو خبير في

الشؤون الإسرائيلية، وكان خميس هذا قد أنهى دراسته في الجامعة العبرية، كان دائما ينهي تقاريره بالقول: "هذا خميس أبو العافية من تل أبيب– يافا".

لذا، لدي شعور بالاستمرار في الذهاب دوما إلى يافا وتذكر هذه الأماكن. أعطيت جولات من ذاكرتي لهيئة الإذاعة البريطانية والى طلاب من جامعة بيرزيت. ووعدت كذلك طلابي في الدراسات العليا بمرافقتهم إلى يافا كمكافأة إذا كانوا جيدين. وبالفعل ذهبنا في جولة، وسبحنا في البحر. عندما عقدنا في جامعة بيرزيت مؤتمر آفاق المشهد في فلسطين، قمنا بأخذ المتطوعين العاملين في المؤتمر معنا كسياح في هذه الجولة. أخذنا الحافلة إلى يافا وأمضينا وقتا رائعا.

استطعت تحديد أبو العافية، حيث عشنا في هذا الجزء من المدينة، حيث كانت المنازل المختلفة. لقد تم هدم جميع هذه المنازل، لكن باستطاعتي تحديد مواقعها بدقة، وتذكر العائلات التي كانت تعيش فيها. أتذكر أصدقاء الطفولة: فاروق القدومي الذي كان يسكن خلفنا، وشفيق الحوت الذي كان يسكن على الطرف. يمكنني تحديد مكان المظاهرة ومركز الشرطة البريطانية حيث اعتادوا اعتقال الناس وضربهم وتعذيبهم. تعلمت من المظاهرات وتعلمت من بيوت الدعارة على حافة الشاطئ، حيث كنت أجتاز الطريق نحو المدينة للذهاب إلى المدرسة.

كان هناك شارعا في غاية الأهمية، وكان يقسم المدينة، وكان يسمى شارع جمال باشا. كان هذا الشارع فريدا من نوعه في فلسطين. وكان جمال باشا قائدا تركيا، أعتقد انه كان حاكم يافا مثل حسن بيك، عندما توفي حسن بيك، بنى جمال باشا مسجدا يخلد اسمه بعد وفاته: جامع حسن بيك. بني المسجد في العام ١٩١٤. أما شارع جمال باشا فقد بني قبل هذا التاريخ. وقد صمم هذا الشارع، بدون شك، على نمط الشوارع الفرنسية الكبيرة: الشارع الطويل الذي يقسم المدينة. كانت هناك جزيرة في منتصف الشارع تقسم جانبي الطريق بأشجار النخيل الضخمة التي تمتد على طول كيلومتر وأكثر. لا يوجد شوارع بهذا الحجم لا في رام الله، ولا في القدس ولا حتى في تل أبيب. إن هذا يمنح يافا جوا خاصا بها، ويمنحها كذلك الشعور بأن تكون مكانا مختلفا.

بما أنني كبرت هناك، بدأت الحظ عملية تحديث وتطور الخدمات. في احد الزوايا من شارع يافا– تل أبيب، وعلى الجانب الآخر من الشرطي الذي كان يقف وسط الجزيرة ويقوم بتنظيم حركة المرور، كان هناك محلا لبيع "الآيس كريم". ولم يكن بائع "الآيس كريم"، سوى امرأة أوروبية، ربما

كانت امرأة هنغارية. كنا، صديقي وأنا، نحب كثيرا الذهاب إلى هذا المحل، لشراء "الآيس كريم"، وللنظر كذلك إلى البائعة. كنا مراهقين وكنا أكثر اهتماما بالسيدة من "الآيس كريم"، لكن، بالطبع، كان لا بد من شراء "الآيس كريم" لكي نقف هناك وننظر إليها. لم يسبق أن رأينا من قبل نساء يعملن، كانت النساء عندنا محجبات، لذا، لم نكن نرى النساء كثيرا، ولم نكن نرى الفتيات. في الحي المسيحي للمدينة، كان يمكننا رؤية النساء، لكن النساء لم تعمل أبدا. كنا ننظر إليها ونقول لبعضنا البعض: "ابتسمت لي".

ظهرت بدايات التحديث كذلك في المساكن الجديدة. هناك منزل حديث جداً في يافا، دائماً ما أصطحب الناس إليه. هذا المنزل شيد حوالي العام ١٩٤٦ وكان يطلق عليه اسم فيلا، وكانت الفيلا الأولى في يافا. كان المنزل عبارة عن فيلا حديثة، لكن بقدر كبير من الطراز المعماري القديم. اليوم، هذا البناء هو مقر إقامة السفير الفرنسي في إسرائيل. يمكنك أن تلحظ وتشاهد مظاهر الحداثة هذه في معظم الأماكن تقريبا في المدينة. هناك المستشفى الفرنسي، المصانع، والصناعة وحتى محلات الآيس كريم. يمكنك معايشة ومشاهدة هذه المظاهر تنمو وتزداد بشكل تدريجي بنفس الوتيرة للنمو والكبر التي لدى الأطفال. نعم، كنا متأخرين. التحقنا في المدرسة الإسلامية، ودرسنا فيها، لكننا تعلمنا اللغة الانجليزية، ولعبنا الكثير من الألعاب الحديثة مثل كرة السلة وكرة القدم وغيرها من الألعاب الرياضية الأخرى.

تعايش وتوترات

كنا نعيش في يافا، التي نسميها عروس البحر، والتي تعتبر واحدة من المدن الفلسطينية المهمة. وقد كانت مدينة نشطة للغاية على الصعيد الوطني. يمكن اعتبارها مدينة للطبقتين المتوسطة والدنيا. لم يكن لدينا الأرستقراطية الإقطاعية، ولم يكن لدينا العائلات البارزة كتلك الموجودة في القدس. كانت يافا مدينة مختلطة، وكانت في الأساس مدينة عرب مسلمين، ولكن كان هناك سكان يهود، لقد ترعرعت ونشأت في أحياء كان لليهود تواجد فيها، بالقرب من تل أبيب. وأما المنطقة المسيحية فكانت في الجنوب.

الجالية اليهودية التي كانت موجودة في يافا لم تكن أصولها من تل أبيب، بل نشأ السكان في الأصل

في مدينة يافا، فالمهاجرون اليهود الأوائل، الذين كانوا من الحجاج جاؤوا وسكنوا في المدينة. معظمهم كانوا ممن يطلق عليهم اليوم باليهود الشرقيين. كانوا من اليهود اليمنيين، والعراقيين ومن شمال أفريقيا، ولقد ترعرعت وكنت واعيا تماما للطائفة اليهودية التي كانت تتحدث العربية. ربما كان يتكلم أبناؤها اليديش أو العبرية: لا يمكنني الإجابة الآن، لكنهم بالتأكيد كانوا يتكلمون العربية، لغتهم العربية لم تكن سليمة تماما، لكنها كانت مقبولة. وحين كبرت، بدأت بملاحظة الاختلافات كما وبدأت اشعر بالكلمات العبرية.

في الفترة المبكرة، سنوات ١٩٣٦-١٩٣٧، لم أكن واعيا بأن هؤلاء الناس غرباء، فهم جزء من الأحياء أو الضواحي. لكنني بدأت أدرك أن لديهم طقوس وعادات مختلفة عن التي لدينا. كنت أتطلع أنا وأصدقائي إلى مساء الجمعة، أي بداية السبت "شبَات" لأنهم سيقومون بإعطائنا قرشا مقابل إطفاء الأنوار. ذلك، كنا نعرف بعضاً من الطقوس اليهودية وكنا نتطلع إليهم والى عاداتهم كمصدر للدخل.

كنا على علم ببعض الاختلافات الأساسية، المتعلقة بالممارسة، بين المسلمين واليهود، لكننا لم نفكر بها من الناحية السياسية على الإطلاق. كانوا، بقدر ما كنت مهتما، جزءا من مجتمعنا: لدينا المسيحيين، ولدينا اليهود، ولدينا مسلمين. كانت يافا مدينة للديانات الثلاث. مع الوقت، أصبحت مدركا للأعياد المسيحية، وأشياء مثل بيض عيد الفصح والأعراف والتقاليد اليهودية. معرفتي بشكل عام، كانت سطحية بطبيعة الحال. لكني، كنت على بينة من الفروق والاختلافات في الهويات. ومع ذلك، كانت هذه الطوائف تعيش معا أيضا. لذا، كان لديهم ثقافة مشتركة. الفروق والاختلافات بين الطوائف نشأت بعد ثورة ١٩٣٦-١٩٣٧، بعد الإضراب الكبير، عندما غادر اليهود الحي المجاور وهاجروا إلى تل أبيب أو إلى أطراف تل أبيب. الحدود كانت ما تزال مختلطة، بينما المدينة أفرغت من السكان اليهود.

أتذكر أيضا لعب كرة القدم في الشوارع. بالطبع كان هناك ملعب لكرة القدم، لكن نحن سكان الضواحي كنا نلعب في الشارع. في هذا الشارع، كانت جميع المنازل والمساكن الموجودة على الجانب الأيمن عربية، فيما كانت بعض المنازل الموجودة على الجانب الأيسر لليهود. عندما كنا نلعب، كان هناك، هذا الصبي، صاحب الوجه المنمش، ودائم الارتداء للسراويل القصيرة. كان

يقف وينظر بشوق إلينا ونحن نلعب. لم يكن يلعب معنا، لكنه، في بعض الأحيان، كان يتمنى ذلك. كنا ندعوه إلى اللعب معنا، وأحيانا كان يفعل، لكن والدته كانت تأتي وتسحبه خارجا. كان يهوديا أشكنازيا، وكذلك والدته، وكان بدأ يتكلم العربية، لكن والدته لم تتحدث العربية قط. كان واحدا من المهاجرين الجدد من أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى. عندما كنت طفلا، لم يعن لي شيئا كونه كان يهوديا. كنا نلعب ونلهو، وإذا كان يعرف اللعب، كنا نريده أن يكون معنا في الفريق. لم يكن يعرف اللعب جيدا، لكني لن أنسى وجهه أبدا. وإذا ما كانت لي القدرة على الرسم، استطيع رسم وجهه، لا سيما عيناه اللتان كانتا مفعمتين بالشوق إلى اللعب معنا، لكنه ممنوع من اللهو معنا من قبل أمه.

في ذلك الوقت، ازداد التوتر. وكنا تعلمنا أنا وأصدقائي في تلك الفترة، أنه يجوز حرق المباني التي يعيش فيها اليهود. لم نكن نعرف كيف يمكننا حرق المباني، لكننا حملنا مرة صفيحة من البنزين وذهبنا إلى احد المنازل، العائدة إلى اليهود، لكن، لم يكن أحد في المنزل. قمنا بصب البنزين بالقرب من الجدار وأشعلنا فيه النار. كان بالطبع هناك حريق، وركضنا بعيدا خوفا من الاعتقال من قبل الشرطة. عندما تأكدنا من أن الطريق أصبح آمنا، عدنا مرة أخرى لإلقاء نظرة على المنزل، ورأينا أنه لا يزال يراوح مكانه. لذا، قلنا لأنفسنا، أنه يجب القيام بعمل أفضل في المرة القادمة. وتحدثنا مع أناس آخرين عمّا قمنا به، وهكذا انتشرت القصة سريعا. وتلقينا تحذيرا من قبل عائلاتنا. أهمية هذا التحذير أنهم لم يقولوا لنا أن هذا عملا سيئا، أو أن هذا فعل مستهجن من شأنه أن يؤثر سلبا علينا، لكنهم قالوا: "لو أن الشرطة علمت بالأمر، لكانت اعتقلتكم وزجت بكم في السجن". المهم في الأمر هو العقوبة، وليس حرق منزل شخص ما. أظن أنهم قد يوافقون لو أننا نجحنا في محاولة حرق المنزل، أظن ذلك، ولكن، لا يمكنني تأكيد هذا.

أتذكر إفراغ المدينة من اليهود، اقتصر تواجد اليهود بعد ١٩٣٦-١٩٣٧ على مناطق محددة جدا في المدينة، كما على سبيل المثال، في "حي الشراميط"، حيث كانوا جميعا من اليهود. وكانوا أيضا في سوق اليهود، حيث سمح لهم بالإقامة في هذه المنطقة وعلى حدود المدينة، سواء الغربية أو الشمالية منها. كانت الحدود هذه مثل حدود جبل طارق أو تلك التي بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك، حيث يتعلم السكان في تلك المنطقة ما يمكن تسميته بلغة الحدود. كانوا يتكلمون

العربية، وفي نهاية المطاف تعلم العرب بالمقابل اللغة العبرية. هكذا هي ذاكرتي حول المناطق الحدودية ليافا، كل فئة تعلمت لغة الآخر. كان بإمكاننا أن نشتم بعضنا البعض كل بلغة الآخر، لكننا كنا نزاول التجارة، من خلال بيع الخضار والفواكه والملابس وجميع الأشياء التي يمكن أن تباع في سوق السلع المستعملة، التي ما زال أحدها قائماً إلى اليوم، سوق الكرمل.

في سنوات ١٩٣٠ و ١٩٤٠ أصبحت مدركاً "لحي الشراميط". النساء اللاتي يعملن في هذا الحي، في بيوت الدعارة، كن في أغلب الأحيان، يهوديات من اليمن. واعتبرت هذه الدعارة "شرعية"، حيث أقرها البريطانيون واعترفوا بهذه الأماكن ونظموها. كنت قد شاهدت فيلما وثائقيا من ثلاثة أجزاء حول فلسطين – إسرائيل، وكانت هيئة الإذاعة البريطانية عملت مقابلات مع أحد أفراد عائلة شيتريت، أحد وزراء إسرائيل. وتحدث عن هذه الدعارة: "كان لدينا مخابرات ممتازة. اعتاد الجنود البريطانيين التردد على بيوت الدعارة هذه، وكانت الفتيات في الواقع من عناصرنا. كنا نملك معلومات كاملة عن مدينة يافا وعن حركة الجيش والشرطة البريطانية". كان يتحدث عن سنوات الأربعينيات، وعن "حي الشراميط"، الذي نعرف. نادرا ما كان يذهب فلسطينيو يافا إلى هذا المكان للبحث عن زوجة هناك، وإذا ما حصل هذا، تصبح النساء بعد زواجهن جزءا من المجتمع العربي.

كانت يافا مدينة مختلطة السكان. وإذا ما استثنينا فترات الأزمات الوطنية، نرى أن الجميع كان يعيش معا نسبيا بشكل ودي. بدأ يظهر في فلسطين شعور الوئام بين الطوائف، والتي تجسدها هذه المدينة: الاختلافات في الإيمان لا تؤدي بالضرورة إلى هذا النوع من الصراع الذي نقرأ عنه، خلافا لما يحدث في بعض البلدان العربية. أظن انه كان كذلك، في جميع المدن المختلطة في فلسطين في ذلك الوقت. في كتب التاريخ، تجد أنه كان في فلسطين العديد من المجتمعات والطوائف التي تتعايش جنبا إلى جنب. قد يكون التعايش بشكل منفصل في أماكن مختلفة، ولكن السمة الرئيسية للتعايش كان أساسها السلم. لم أفاجأ مطلقا من المواقف الايجابية التي تبرز لدينا عندما نواجه مسألة وجود الطائفية في أي مكان، ليس في فلسطين فحسب، وإنما خارج المنطقة أيضا. حمل الفلسطينيون قيمة الوئام والتعايش بين الطوائف معهم في الأماكن التي أقاموا فيها. في الولايات المتحدة الأمريكية، يعيش الفلسطينيون جنبا إلى جنب مع السود والهيسبانيك –اللاتينيين– واليهود. أعتقد أن هذه الميزة

أو القدرة هي جزء من تراثنا الثقافي. أنا لا أعرف من أين أتت بالمعنى الأبسط للكلمة، لكن بالتأكيد التجربة المعيشية تهيئ لهم عادة قبول الاختلاف والتعايش مع بعضهم البعض.

هذا التقليد من التعايش هو أيضا جزءمن التربية الإسلامية. إذ في تربيتنا الإسلامية، لا يقوم التعايش الطائفي بالضرورة على المساواة، لكنه بالتأكيد نمط حياة مقبول. لقد قبل الإسلام بالمسيحية واليهودية، وضمن لليهود والمسيحيين كل الحق بواسطة القانون: في جميع أنواع وأشكال الوجود، كانوا جزءا من المجتمع. الآن، ربما كانوا تابعين أو خاضعين في يوم من الأيام، لكن، بالتأكيد في أيامي، لا النصارى ولا اليهود كانوا خاضعين من حيث الوضع الاجتماعي في المجتمع. بعض المسيحيين كانوا أرفع مقاما بسبب الدخل الأعلى.

"لعنة الله عليهم"

قام البريطانيون بسجن والدي في عدة مناسبات مختلفة؛ لهذا، فقد كبرت معتادا على السجون التي وضع بها. عرفت سجن صرفند، الذي زرته لأنني ذهبت لرؤية والدي. عرفت المسكوبية، المجمع الروسي، في القدس من تلك الأيام. ذهبت أيضا إلى عتليت، والى السجن في بيت لحم، والى بناية تاغارت في اللد. كنت أعرف كل هذه السجون، وكنت أعرف أن وظيفة المحاميين تكمن في المرافعة والدفاع عن هؤلاء السجناء.

بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ كانت الثورة العربية في أوجها. وكان أبي مسجونا في سجن صرفند. كنت في الثامنة أو التاسعة من العمر، لكني فهمت لماذا كان في السجن. كنت أعرف عن التعذيب وعن حظر التجوال. كانت عائلتي تقوم بزيارة والدي في السجن، كنت أحاول استيعاب سجلّ السجن، علو السياج وبرنامج المواعيد لزيارة السجن. لكن، كنت على بينة من الاختلافات بين السجناء: أولئك الذين كانوا هناك لأسباب وطنية، والمجرمين الذين ارتكبوا جرائم قتل أو سرقة.

كنا معتادين على مداهمة البريطانيين لمنازلنا منتصف الليل، كنا نطلق على هذه المداهمات، "كبسية". في بعض الأحيان، وفي وقت متأخر من المساء، كنا نتسلى بأكل المكسرات، البزر، عندما كانت قوات الجيش والشرطة البريطانية، تقوم بمداهمة المنازل فجأة، من خلال ضرب الباب بأعقاب البنادق. في بعض الأحيان، كان الجيران يقومون بلفت انتباهنا، عندما كانوا يلحظون

قدوم الجنود، حينئذ، كنا نقوم بفتح الباب. ليبدأ بعدها الجنود بالصراخ: "ارفع ايدك، ارفع ايدك". كانوا يتجهون مباشرة نحو المطبخ، حيث أماكن تخزين المواد التموينية، وكانوا يقومون بغرس أيديهم في الطحين وفي الأرز يبحثون عن الأسلحة. كنت مجرد طفل، لكن، كانوا يقومون بإيقافنا في صف واحد تجاه الحائط، بما في ذلك الضيوف. كان لدينا عادة بعض أبناء عمومتنا من الذين يرتدون القمباز، اللباس التقليدي. حيث كان يأتي هؤلاء الرجال إلى يافا للحصول على المال والسلاح، ومنزلنا كان يعتبر إلى حد ما منزلا "آمنا".

كان الجنود عادة يصطحبون معهم خلال هذه – الكبسيات – مخبرا عربيا، منهم المخبرون الجيدون والمخبرون السيئون. لم يكن كافة المخبرين متعاونين بشكل كلي: بعض الرجال كانوا يقومون بحمايتنا. كان والدي يقول: "هذا المخبر، رجل جيد". كانوا يقومون بحماية والدي أو الادعاء بأن هذا الرجل هو ابن عمنا. كانت الكبسية، تستغرق عادة حوالي النصف ساعة. في بعض الأحيان، كانوا يقومون باعتقال والدي رافضين الإجابة عن أية تساؤلات. كان علينا الانتظار حتى الصباح لمعرفة مكان اعتقال والدي من خلال محامي العائلة.

في غياب والدي، كانت أمي السلطة الحقيقية والوحيدة للأسرة، كانت امرأة محجبة، منيعة وذات معرفة. كانت تعرف المحامين التي يتوجب عليها الاتصال بهم، وماهية الأسئلة التي تطرح. أحد الأشخاص الذين كانت لدينا اتصالات معهم هو السيد حمدي قمبرجي الذي عمل مع السلطات. كان شخصا مثيرا للإعجاب، لكن والدتي كانت مرتابة جدا منه، بالرغم من حبها لزوجته. وبادراك متأخر، أعتقد أنه كان يعمل في دائرة التحقيقات الجنائية لدى السلطات، على سبيل المثال، كان مدنيا في الجيش، لم يكن محاميا لكن كانت لديه العديد من الاتصالات.

حتى العام ١٩٤١، كان من السهل معرفة المكان الذي وضع فيه والدي. كنا نعرف ذلك عندما كان يتم نقله بشكل دائم إلى "المعتقل"، من خلال اتصالاتنا. لم يكن يسمح لنا بالالتقاء به ورؤيته، عندما كان يجري استجوابه، لكن هناك دائما وسيلة للحصول على معلومات. كان الحراس البريطانيون مرتشين، وأذكر أحدهم على وجه الخصوص واسمه جورج. جورج هذا، ولقاء خمسة إلى عشرة جنيهات، كان يجد طريقة ما للقاء أو تهريب أغراض وسلع مثل الوسائد والغذاء. أحيانا، كان يقوم بترتيب لقاء بحيث يمكننا رؤية والدي عن بعد والتمكن من تحيته.

المرة الأخيرة التي ذهب فيها والدي إلى السجن كانت في العام ١٩٤٢، أي قبل وفاته بوقت قصير. عدت وقتها من المدرسة لأجد والدتي مكتئبة وعابسة الوجه. كنا جميعا، إخوتي وأخواتي، قد أحطنا علما بأمر اعتقال والدي عند عودتنا وحتى قبل أن ندخل البيت. لم تكن هناك أسرار في يافا، لكن لم يكن لدينا فكرة عن كيفية اعتقاله. قيل لنا أن الجيش قد وضع آلات تنصت خارقة للجدران، لمعرفة ما إذا كانت هناك أصوات أو أجهزة بث أو إرسال. كان الشك يساورهم بأن والدي يزود الألمان بالمعلومات في ذلك الوقت. ذهبوا إلى المنزل وقاموا بتفتيشه بشكل دقيق، وقاموا بمصادرة جميع الأوراق، بما في ذلك الأوراق التي تحتوي على واجباتنا المدرسية، كانوا يبحثون عن شيء مختلف، شيء خارج المألوف. في الماضي، كانوا قلقين من إمكانية وجود الأسلحة، هذه المرة، الخوف من وجود رسائل أو أجهزة إرسال. بطبيعة الحال، لم نفهم شيئا. قاموا بأخذ الصور التي كانت معلقة على الجدران لمعرفة ما إذا كان هناك أي شيء، إذا ما كان هناك فراغ ما. بوضوح، كانوا يبحثون عن جاسوس أو عميل، بالتأكيد، ليس عن الشخص الذي كان يقوم بتصنيع الألغام.

لم يكن الجنود الذين قاموا باعتقال والدي من الشرطة: كانوا من قيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط. فالمسئولية إذاً كانت لقيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط ولم تكن للجيش البريطاني في فلسطين. لم تكن هذه المرة كسابقاتها، إذ كنت أرى الخوف على وجه أمي. وعندما ذهبنا إلى السيد كنفاني، أجاب: "حسنا، سأدرس الملف، وسأرى ما أستطيع عمله". لدي انطباع جلي الوضوح بأنه عاد في مساء اليوم التالي، وقال: "لا يمكنني أن أقدم أية مساعدة، لكنني سوف أعطيكم أسماء اثنين من المحامين الذين يمكنهم التعامل مع هذه القضية". حتى تلك اللحظة، لم نكن نعلم مكان وجود أبي. في العادة، كانت لديه طريقة لأخبارنا عن مكان وجوده، ولكن هذه المرة، فشلنا في معرفة مكان اعتقاله، لم تخبرنا الشرطة بمكان وجوده، ولم يفعل الجيش ذلك، لقد بذلنا كل ما في وسعنا من جهد لمعرفة أين يمكن له أن يكون، لذلك كان الأمر إلى حد بعيد غير عادي. جاء السيد كنفاني في المساء وقال لنا: "سأعطيكم اسمين، وسأرافقكم للالتقاء بهما، كلاهما في القدس".

كان هنري القطان احدهما، والذي التقيت به بعد ذلك بعدة سنوات. وربما كان أفضل محامي فلسطيني معروف على مستوى فلسطين. الشخص الآخر كان جوزيف شابيرو، الذي أصبح لاحقا وزيرا للعدل في إسرائيل، وكان في ذلك الحين حاكما لمنطقة القدس خلال حرب العام ١٩٤٨

وكان أحد الأعضاء في قيادة الحركة الصهيونية، ولكن يبدو أنه كان محاميا مؤهلا وكفؤا للغاية. وأضاف السيد كنفاني: "هؤلاء هم أفضل محاميين يمكنهم التعامل مع هذه القضية". بعد ذلك، ذهبت والدتي، بصفتها المفاوضة، لرؤية هنري قطان. قلنا أننا سنتخذ المحامي العربي: لن نكلف المحامي اليهودي بالدفاع عنه. وافق السيد هنري قطان بالقيام بالمرافعة عن القضية، قائلا: "حسنا، سأحاول معرفة ما الذي حدث لأبيك". وعاد في اليوم التالي وقال: "ليس هناك ما ينبغي فعله، فلا تنفق أموالك، إذا كان بريئا، سيخرج من السجن، وإذا كان هناك اتهام ضده، بمعنى تورطه في قضية ما، حينئذ يمكنه توكيل محام. لكن، إلى الآن، ليس هناك ما ينبغي عمله. عليك الانتظار، وسوف أبقيكم على اضطلاع". السبب الذي جعل السيد هنري قطان يقول لنا، ليس هناك ما يمكن القيام به هو حقيقة أن القضية كانت ضمن مسئولية قيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط، وهذا يعني أن حالة والدي كانت خارج إطار التشريع الفلسطيني.

بقي أبي مفقودا لما يقارب الشهر، قبل أن نتوصل إلى أخبار من طرفه. في أحد الأيام، جاءت سيارة إلى مصنع السكب، وخرج منها رجل ليقول: "لقد رأيت أبو حسن، وكنت معه، وهو يريد الحصول على الأشياء التالية. . . . وهكذا يمكنكم الحصول عليها". كان أبي مسجونا في مبنى "تاغارت"، الذي بني في العام ١٩٣٦-١٩٣٧ من قبل الجيش البريطاني في فلسطين. ذهبنا إلى هذا المبنى مصطحبين لجميع طلباته: فراش، بعض الطعام، وغيرها من الأشياء. وكانت قد أعطيت لنا بعض الكلمات لاستعمالها كرمز لكي نتمكن من الدخول، لكن والدي كان بمعزل عن العالم الخارجي. وعوضا عن ذلك، توصلنا برسالة للتحقق بواسطة جورج، لمعرفة ما إذا كان والدي يقبع في المبنى. كان يعرف والدي أن البريطانيين كانوا في طريقهم لنقله من المعتقل، حيث اعتادوا على نقله من سجن إلى آخر. هذه المرة، تم نقله إلى سجن "المسكوبية" في القدس.

أنشأ البريطانيون مبان عديدة على شاكلة "تاغارت" في جميع أنحاء فلسطين، وعرفت بتاغارت، نسبة إلى المهندس المعماري، كما بنيت على مفترقات الطرق الإستراتيجية، في جميع أنحاء البلاد، وكانت تستخدم لإيواء الجيش والشرطة، ودوائر التحقيق. في هذه المباني كانت تحدث الاستجوابات، وانتزاع الاعترافات وعمليات التعذيب. استخدمت هذه المباني بداية من قبل البريطانيين. ثم استخدمها الأردنيون والمصريون، قبل أن تستخدم من جديد من قبل الإسرائيليين.

والآن، تستخدم من قبل السلطة الفلسطينية. صحيح أن هناك عملية ترميم وتجديد للمبني في رام الله، لحساب السلطة الفلسطينية، إلا أن المبنى ما زال قائما إلى اليوم.

اتهم والدي بالتعامل مع العدو، كجاسوس لدول المحور. كانت وسيلة الاتصال بوالدي هو حسن سلامة، وقد وجدت هذه المعلومات بعد القيام ببحث حول هذا الموضوع لاحقا. حسن سلامة هذا، كان من أتباع المفتي، الذي احضر إلى يافا على يد النازيين. كانت مهمته التنظيم لانتفاضة شعبية، ولم يكن والدي سوى احد الأسماء التي زود بها. كان والدي قد أخبرنا، في مرحلة لاحقة، أن حسن سلامة حاول مقابلته، لكن أبي رفض ذلك. لم يكن يعرف من كان هذا الشخص في ذلك الوقت، لذلك يمكن اعتبار أن هذا الرفض، لحسن الحظ، كان حادثا موفقا.

تمكنا في نهاية المطاف من الالتقاء بوالدي في بيت لحم، وأخبرنا، انه لا حاجة لتبذير المزيد من المال على الرشاوى. كان لديه شعور بأنه سيتم الإفراج عنه قريبا، ليس على الفور ولكن بشكل تدريجي. سمح البريطانيون له بالذهاب إلى المدينة، لكن مصحوبا بقوات الشرطة. أرادت الشرطة من خلال ذلك أن يرى من قبل الناس، لأن حكايته شاع صيتها. لكن، في نفس الوقت، لم يكن لدى البريطانيين دليل قاطع على اتهامه، كما لم يتمكن شاهد العيان على "تجسس" والدي من التعرف إليه. حيث وصف والدي بالقصير والأصلع، بالرغم من أن الحقيقة تبين أن والدي كان رأسه مليء بالشعر. وفي أحد الأيام وبدون ضجة تذكر، تم الإفراج عن والدي، حيث وضعوه في سيارة أجرة وأعيد إلى البيت.

لقد كبرت في فلسطين في جو محفوف بالتوتر الدائم، ما من شك أنه كان ينظر إلى البريطانيين، الذين كانوا يسيطرون على المجتمع، على أنهم عدو. كانوا مختلفين كليا عن شعبنا، وإن لم يكونوا أصحاب بشرة شقراء، فهم قريبون جدا لها. كانوا يتحدثون بلغة مختلفة، وكانوا يملكون القوة بكل وضوح: كانوا يتحكمون في كل شيء، وكانت لديهم الأسلحة. كل شيء عنهم يخبرك بأن هؤلاء الناس لديهم القوة والسلطة، وبأن لديهم كامل السلطات علينا. لم نتطرق إلى ذكرهم مطلقا في أحاديثنا البيتية، سوى بسبهم بالقول: "لعنة الله عليهم". كنت مشبعا بالعداوات منذ أن أصبح كل شيء يشير لهم بالسلبية. لكنهم أيضا ملهمين للخوف، لا يمكنهم سوى القيام بالأذى، كانوا مثالا للشر. تعلمنا في المنزل، ومن ثم في المدرسة، بأن دورهم ومهمتهم كانت تقوم على تجهيز كل

شيء ممكن لكي يستطيع اليهود المجيء والاستيطان واحتلال أرضنا. لذلك، كان البريطانيون هم العدو الحقيقي للفلسطينيين.

كان اليهود ضعفاء في ذلك الحين، وكانوا أقل عددا، إضافة إلى ما كان لدينا من ازدراء تقليدي إسلامي لليهود بأنهم جبناء. كنا نظنهم كما يصفهم القرآن، بمعنى، أنهم محتالون. في ذلك الوقت، كنا نجهل تماما الإمكانية التي تمكنهم من أن يصبحوا أقوياء. لم نكن ننظر إليهم كتهديد. كان بالإمكان الملاحظة بوضوح أن أعدادهم كانت في ازدياد مستمر، ولكننا عزينا كل هذا إلى الحماية التي كانوا يحصلون عليها من البريطانيين. لذلك، كل أنواع الثورات والتظاهرات التي حصلت كانت ضد القوات البريطانية. بعد ذلك، كان يمكن لهذه التظاهرات أن تتحول ضد اليهود. لكن، العدو الحقيقي، والغاية من غضبنا وخيبة أملنا، كانوا البريطانيين. هم الذين اعتقلوا أبناء شعبنا، والذين فرضوا حظر التجوال، والذين قتلوا شعبنا. البريطانيون أول من قام بفعل كل هذا، وها هم الإسرائيليون يقومون بذلك اليوم. هي ذات القصة تعيد نفسها.

هدفهم: طردنا

يعرّف الاحتلال على أنه السيطرة على أرض بالقوة رغم إرادة شعبها. من خلال العيش تحت الاحتلال، أصبحت مألوفا وقريبا من النشاطات السياسية. كان والدي من المشاركين في الحركة الوطنية، من خلال دعمه للمفتي. كانت يافا مدينة تابعة للمفتي. مع مرور الزمن، كنت أقول: "سيف الدين، الحاج أمين"، "الحاج أمين، هو الزعيم". كانت القيادة والحركة الوطنية في يافا داعمة للمفتي.

كان والدي مجلسي، عنصر من "المجلسيين"، أنصار الحاج أمين الحسيني. لم يكن والدي بارزا سياسيا، لكنه كان ناشطا. كان يعي حقيقة أن أنشطته السياسية يمكن أن تودي به في السجن. وقام بتقديم خدمة بحيث قام بتحويل مصنعه، مصنع السكب، إلى مصنع للألغام. كان لدى البريطانيين معلومات استخبارية تفيد بأن هذا النشاط كان يحدث في مصنع السكب، وقاموا بإغلاقه.

تعلمت أن أفرق بين نشاط وطني وجريمة عادية. فالجريمة العادية الهادفة إلى تحقيق مكاسب فردية مختلفة كليا عن النشاط الوطني. يكون الاعتقال من قبل البريطانيين ذو قيمة إيجابية إذا أتى في

سياق وطني، وفي الدفاع عن الأرض. ما الذي كنا ندافع عنه؟ شعرنا أن ديننا كان في خطر. كان البريطانيون بيضاً ومسيحيين، وكانوا ينقلون اليهود إلى فلسطين. كانوا يمنحون أرض المسلمين لليهود. عارضناهم، ليس بسبب كونهم بريطانيين، لكن لكونهم محتلين.

لقد تعزز هذا الاستياء تجاه البريطانيين في المدرسة. وقد تعلمت من الاعتقالات الأخرى لآباء زملائي في المدرسة. اكتشفت شبكة كاملة من الناس الذين عانوا على يد المحتلين البريطانيين، على الرغم من أن قسم التعليم، كان مسيطراً عليه من قبل البريطانيين، وكنا نواجه المعلمين والأساتذة بأيدلوجيات قومية. استطاع هؤلاء المعلمين تبيان وتوضيح الأساس لعصيان وطني، كما أوضحوا تصريح بلفور وهدف لجنة بيل. كانوا يعرفون لماذا جاء البريطانيون في منتصف الليل لاعتقال الناس، وكانوا يعرفون كذلك الغرض من حظر التجوال.

كان يمكن لنا رؤية النمو الذي كانت تشهده تل أبيب، وكان على المعلمين أن يفسروا معنى الهجرة اليهودية إلى فلسطين. تمثل الدور البريطاني في تسهيل التهجير الفلسطيني من خلال السماح لليهود بالهجرة بحرية، ومن خلال فرض الضرائب على الفلسطينيين وإجبارهم على بيع أراضيهم. كانت هناك أيضا عمليات مصادرة الأراضي. وبنقل ملكية الأراضي يتحقق شرطين أساسيين لإقامة الدولة اليهودية: الأرض والشعب.

بدأت بالتظاهر بشكل منتظم وكجزء من النشاط المدرسي. من المثير للاهتمام التفكير في ردود الفعل المختلفة حيث كان المدرسين يشاهدون المظاهرات. لم يعاقب المعلمين الطلبة الذين كانوا يشاركون في المظاهرات بقسوة، لكنهم كانوا يردون بصرامة على أي انتهاك غير وطني لقواعد المدرسة. تعلمنا فكريا كيفية ربط السلوك مع الأهداف، وقد ساعدنا مدرسونا جيدا في هذا الاتجاه. لم أعرف أياً من المعلمين الذين دافعوا عن البريطانيين أو اليهود، لكنهم كانوا مدركين للقيود المفروضة على التلاميذ. بعض المعلمين كانوا منتقدين للمفتي. لم نفهم هذه الاختلافات، لكننا عرفنا أن هناك مناقشات سياسية كبيرة ومهمة كانت تتم بينهم. غير أن الإدراك والشعور المسيطر كان القدرة على حشد وتجنيد السكان الفلسطينيين ضد البريطانيين وضد اليهود، المستفيدين من الدعم البريطاني. على حد معرفتي، لم يكن العداء لليهود سياسيا بشكل علني، ولم يكن ذلك كونهم يهوداً، كانوا أوروبيين وكنا نعرف هذا. هدفهم كان طردنا وتهجيرنا: لإقامة دولة يهودية على أرضنا.

شمع أحمر

كان المصنع الذي أنشأه والدي في العام ١٩٢٩ يقوم على إنتاج المواد الضرورية للتنمية الصناعية في فلسطين. وبالتالي، كان بمثابة الصناعة المقابلة للصناعة اليهودية، أي كان جزءا من الاقتصاد البديل. خلاف ذلك، كنا نعتمد على اليهود الذين قدموا من أوروبا، والذين عرفوا الصناعة، الذين كان لديهم الآلات والمهندسين. بإنشائه للمصنع، يكون والدي قد قدّم خدمات في غاية الأهمية لشعبنا، بحيث كان يعتبر مصنعا صناعيا، منتجا لمضخات المياه المستخدمة في البيارات والمزارع. كما كان ينتج الكسارات ومعاصر الزيتون، حيث يعتمد الفلاحون الفلسطينيون على هذا النوع من الآلات، سواء أكانت للبرتقال أو للزيتون. كان المصنع يقوم كذلك بعمل كافة خدمات التركيب والتجميع لمنتجاتنا. كنا ننتج المناهل التي كان يتم استخدامها في كافة أنحاء فلسطين. حتى يومنا هذا، في يافا، يمكن العثور على هذه المناهل، محفور عليها اسم مصنعنا: "شركة السكب الفلسطينية المحدودة الأسهم".

في أواخر الثلاثينيات قام البريطانيون بإغلاق مصنع السكب في أكثر من مناسبة. مما دفع بوالدي بالتوقف عن العمل لفترة، لكنه قرر فجأة معاودة العمل من جديد. وبدأ بالتوجه كل مساء خفية إلى المصنع آخذا معه اثنان من إخوتي واثنان من أبناء عمي. كان المصنع يقع على مشارف بساتين البرتقال، حيث كانوا يتسللون عبرها للولوج إلى داخل المصنع. بدأوا بإزالة جميع المعدات، وسحبها عبر حقول البرتقال، ونقلها على ظهور الحمير إلى موقع آخر جديد. هذه العملية كانت محفوفة بمخاطر هائلة، حيث كانت دوريات الشرطة البريطانية تجوب المنطقة القريبة، وفي إحدى المرات، قررت إحدى الدوريات النظر إلى داخل المصنع، ولاحظوا أن الآلات اختفت بالكامل. كان والدي حينئذ قد انتهى من إنشاء المصنع الجديد في موقع آخر جديد. وكان من السهل على الدورية العسكرية البريطانية تحديد الموقع الجديد، بسبب استحالة القيام بالعمل في المصنع خفية. لم تستطع الشرطة البريطانية إثبات أن المصنع الجديد كان يعمل بواسطة معدات وآلات المصنع القديم، لكنهم قاموا مرة أخرى بإغلاقه بالشمع الأحمر لمدة ثمانية أشهر متتالية. رغم هذه الإغلاقات، استطاع أبي بتفانيه وإصراره أن يبقي المصنع قادرا على الاستمرار في العمل والإنتاج.

لم يكرس والدي حياته وجل وقته للمصنع فقط، ولكنه كان كريما وسخيا من خلال خدماته. وقام

بالتبرع بمعدات وآلات المصنع لدار الأيتام الإسلامية في القدس. قام بهذا العمل بسبب إيمانه بالحاج أمين الحسيني، إذ كان أبي مجلسيا، متدينا، لكنه كان أيضا قوميا وطنيا. كان مدافعا عن الأمة وعن الإسلام من خلال مساعدة الأيتام وأبناء الشهداء.

كان والدي كذلك سخيا مع شركاءه وداعميه. وقد أخبرتنا أمي قصة حول إنشاء المصنع. إذ كان مصنع والدي واحدا من الشركات المساهمة الحقيقية الأولى في فلسطين. لا أعرف من أين جاء بهذه الفكرة، ربما من الألمان أو اليهود. كان لدى والدي شريك لديه جزء من رأس المال، وقامت أمي ببيع الذهب الخاص بها لصالح استثمار والدي. وفجأة قرر شريكه أن هذا الاستثمار غير مربح، وأنه لم يعد مجديا، حتى أنه باع حصته إلى ابن عم والدي مقابل عشرة الآف دولار، وكان هذا مبلغا كبيرا في ذلك الوقت. بقية المساهمين في المصنع كانوا من العائلات الفقيرة، حيث كان استثمار كل منهم يتراوح من خمسة إلى عشرة جنيهات. وكان أبي يقوم بتوزيع الأرباح على المساهمين أربع مرات في العام، وهذا الشيء كان رائعا ولافتا للنظر في إبداعه، بحيث تستطيع أن تقدم وتعطي الأشخاص الفقراء أربعة جنيهات في كل مرة. بالطبع، كان ذلك مصدر دخل بالنسبة لهم. عند موته، كان قد تمكن من مضاعفة رأس مال الشركة من الأرباح. هو نفسه لم يكن لديه الكثير من الأسهم، بحيث كان "الأفقر" بين كبار المساهمين، لكنه كان يحصل على راتبه من المصنع، مقابل ما يمنح من مهارة وموهبة في العمل.

لم يكن خليفة والدي بنفس المستوى من الإحساس بالنسبة لاحتياجات المساهمين. كان ذكيا بدون أدنى شك، لكنه كان أنانيا. تدرب من خلال عمله في السوق، ولهذا كانت عقليته مختلفة كليا عن عقلية والدي. هذا لا يعني أن والدي لم يكن ذو عقلية متطورة، لكن خليفته عرف كيف يبني ويكوّن رأس المال. تمكن من شق وتقسيم الحركة العمالية، ولم يكن معنيا كثيرا بطريقة توزيع الأرباح ربع السنوية، الطريقة التي كان يعتمدها والدي. فسر للمساهمين الصغار أن بإمكانهم كسب المزيد من الأموال على المدى البعيد إذا ما أبقوا على أرباحهم في الشركة. ولم يفهم أنهم يعتبرون استثمارهم وتوظيفهم البسيط هذا مصدرا للدخل. لكن، كان لديه شعور قوي للرأسمالية، وعندما اندلعت الحرب في العام ١٩٤٨، بدأ المصنع بصناعة المصفحات – ناقلات الجند المدرعة – الهيكل الفولاذي كان يصنع في المصنع، كنت أعمل حينها لحساب اللجنة الوطنية، لذلك، كنت أعرف كم تكلف

صناعة هذه الناقلات أو المصفحات. من الواضح، أن المصنع كان منشأة صناعية واعدة. ثم بدأت الحرب، وانهار كل شيء.

متفاني ونشيط

كنا محظوظين جدا في المدرسة لوجود عدد من المعلمين الجيدين الذين قاموا بتوجيهنا أكاديميا وأخلاقيا. لقد قاموا بتوجيهنا من الناحيتين الوطنية والمدنية، وكانوا قلقين على حقوقنا. كانوا أيضا من الأساتذة العصريين في آرائهم وفكرهم، بتعلمهم ودراستهم في الجامعة الأمريكية في بيروت والقاهرة. كان لديهم فهم لتباين القوة بين حالتنا نحن واليهود كمجتمع مقابل لنا. بدون شك، كانوا على علم بأننا لا نملك قوة تضاهي أو تماثل قوة اليهود، بالرغم من كونهم أقل عددا. كان اليهود قبل كل شيء أوروبيين وكانوا متقدمين علينا بمدارس أفضل، بتعليم أفضل، بالمكتبات، بالحفلات الموسيقية، بالمسارح والقاعات الموسيقية، بمختلف الأشياء التي كنا نفتقدها، وكان لديهم أيضا منشأة صناعية.

تعلمت كثيرا من معرفة أساتذتي للعالم الخارجي. كانوا قادرين على تقييم المجتمع، وتحفيزنا على العمل. قاموا بتشجيعنا على المشاركة في المظاهرات، من خلال صمتهم ونظرات عيونهم المبتسمة. لقد كنت في أمان تام في هذا النظام، الذي كان مكملا للتعليم الذي حصلت عليه في المنزل وفي الحي حيث كنت اسكن. لقد كانت تجربة الطفولة والترعرع في يافا تجربة وطنية ايجابية، وواحدة من التجارب التي تقود إلى التفاني في خدمة المجتمع والأمة.

كنت قد شاركت خلال مرحلة الدراسة الثانوية في فلسطين، في جميع المظاهرات مع الحركة الطلابية. في الواقع، كان للحركة الطلابية أيضا دورا نشطا في المجتمع من خلال القيام بالتظاهرات والإضرابات. وكان مدير قسم التربية والتعليم، السيد هارولد كرو، Mr. Harold Crow، من ايرلندا الشمالية، قد أمر بإغلاق جميع المدارس التي شاركت في التظاهرات حتى إشعار آخر. وقام أيضا بابتكار سياسة معاقبة أولياء الأمور، لأنه لم يكن بالإمكان معاقبة الأطفال الذين ما زالوا صغارا على الاعتقال والسجن.

كان بإمكان الحكومة اعتقالنا، وكانت قد فعلت ذلك في بعض الأحيان، لأننا دعينا للمشاركة

في الإضراب أو كسر قرار حظر التجوال. لكن لم يكن بإمكان المدير أن يقوم بإلقاء القبض علينا واعتقالنا، ولا حتى السلطات البريطانية كانت تستطيع فعل ذلك. لهذا، قام بإنشاء ما يمكن تسميته بوديعة الآباء، والتي تعادل ثلاثون جنيها إسترلينيا، والتي تتم مصادرتها كغرامة من قبل قسم التربية والتعليم إذا ما ثبتت مشاركة التلاميذ في التظاهرات. استطاع أن ينجح في فرض هذا على بعض المدارس، لكننا قمنا برفض ذلك. وقلنا بأننا لن ندفع شيئا، وقمنا بإعلان الإضراب بأنفسنا.

كان أخي في ذلك الوقت زعيما للحركة الطلابية. وقام الصف الأكبر بتولي إدارة المدرسة. لم تكن مدرستنا ثانوية كاملة في ذلك الحين، وكان الصف الأعلى أو الأخير في المدرسة، هو الصف الحادي عشر. قمنا، الطلبة، بفتح الباب وركضنا إلى داخل المدرسة. بعض من مدرسينا تواطأ معنا، بمعنى، كانوا متعاطفين معنا. بالطبع، لا يريدون فقدان وظائفهم، لكنهم قاموا بمساعدتنا. لم نقم بأي عمل يضر بالملكية العامة للمدرسة، وكنا، في الواقع، أكثر انضباطا من الأيام العادية، لنبرهن على أننا ممتازين بحق. في النهاية، يمكن الادعاء بأننا، تمكنا حقيقة من تحقيق النصر.

بعدها، جاء السيد كرو نفسه، وكان معه أيضا أحد مفتشي التربية والتعليم، واسمه السيد عبد اللطيف الطيباوي الذي أصبح في الواقع، بعد ذلك، علما من أعلام فلسطين. وكان قد جاء وشرح لنا قائلا بأنه لن يتم فتح أبواب المدرسة ما لم نقدم تعهدا بعدم القيام بالإضرابات مستقبلا. فرد عليه أخي أحمد قائلا: "نحن جزء من الشعب الفلسطيني، ونشعر بالطريقة التي يشعرون بها، إذا قرروا القيام بالإضراب، سنلتزم بالإضراب معهم". وقال له أيضا: "ستبقى أبواب هذه المدرسة مفتوحة تحت إشرافنا". ثم غادر السيد كرو عائدا إلى القدس، ومتنازلا عن مطلبه. بعدها فتحت المدرسة أبوابها واحتفلنا جميعا بالنصر، الذي بسببه واصلنا المشاركة في المظاهرات.

عندما بلغت الصف الثاني عشر، حللت محل أخي كزعيم للحركة الطلابية، يمكنك أن تتحدث هنا عن سلالة حاكمة... بعض الطلبة الذين كانوا في مدرستنا، كانوا يأتون عندي في الولايات المتحدة الأمريكية ويقولون: "أستاذ، هل تذكر عندما قمت بطردنا من المدرسة الثانوية للخروج في المسيرة؟" كنا نذهب إلى الصفوف الأخرى الدنيا وننادي بصوت مرتفع: "يلا... يلا... اطلعوا... مظاهرة..." . وكنا نخرجهم للمشاركة في المظاهرة بهذه الطريقة. كان هناك مسار معين لهذه المظاهرات، حيث كنا نبدأ من مدرسة العامرية حيث نذهب لجمع الطلبة من المدرسة

الأرثوذكسية وغيرها من المدارس. كان مسارا يعج بالحركة، وكان الطلبة يلتحقون بالمسيرة التي كانت تنتهي عادة وسط المدينة، حيث كنا نقوم بإلقاء الخطابات قبل أن نفترق ويذهب كل واحد منا إلى طريقه. لذلك، كانت مشاركتنا في الحياة السياسية تاريخية. لم تكن مشاركة سياسية على نحو الجلوس على أحد المكاتب.

في السنة الأخيرة لفلسطين، بين العام ١٩٤٧ و ١٩٤٨، قمنا بتنظيم أول اتحاد وطني للطلبة الفلسطينيين، أو ما يعرف اليوم بالاتحاد العام لطلبة فلسطين. وقد تأسس هذا الاتحاد في مدينة يافا. وأذكر شخصيا بأنني ذهبت إلى العديد من المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وكذلك إلى غزة لتجنيد المدارس الثانوية، لأن اثنان من الزملاء اللذين كانوا معنا، كانا عمليا "مراقبين من قبل الامبريالية". كنا جد بدائيين في أفكارنا لأننا لم نكن نعرف الفرق بين اللجنة التنفيذية واللجنة الاستشارية. كان لدينا اللجنة التشريعية التي كنا نعتقد أنها أعلى هيئة في الاتحاد. طالبنا بالاعتراف بنا جماعيا كاتحاد للطلبة. البريطانيون، بطبيعة الحال، رفضوا ذلك. وأصبح هذا الاتحاد نشطا في الفترة ما بين تشرين ثان – نوفمبر ١٩٤٧ و نيسان – أبريل ١٩٤٨، حيث شارك الاتحاد في النضال الوطني في يافا، وقام بمساعدة اللجنة الوطنية.

الفصل الثالث

كل شيء بدأ في يافا

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني- نوفمبر من العام ١٩٤٧، صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار التقسيم، الذي لم يلق أي موافقة من طرف القيادة الفلسطينية، على العكس من الدول العربية التي قامت بإقراره. رفضت قيادتنا قرار التقسيم، بسبب أن لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، UNSCOP، كانت الأخيرة من سلسلة لجان عديدة، ولم يكن لدينا في الواقع سوى القليل جدا من الإيمان في نزاهتها.

من ناحية، فوجئنا بقرار التقسيم، ولكن من ناحية أخرى، كنا نتوقع الأسوأ من الجمعية العامة للأمم المتحدة. فهمنا أن لدى الولايات المتحدة تأثير كبير على الأمم المتحدة، لكننا لم نصدق أن البريطانيين سيتخلون عن الانتداب وسيغادرون فلسطين. كنا، عندما صدر القرار، مصدومين وغير متفاجئين. كنا نعتقد أنها كانت عبارة عن إعادة تشريع للماضي، وبقليل من المقاومة، كل شيء سينحسر وسيختفي الحلم الصهيوني إلى الأبد.

في ذاك اليوم، التاسع والعشرين من تشرين الثاني من العام ١٩٤٧، بدأت الحرب الحقيقية في فلسطين، وفي رأيي فقد انطلقت الحرب من يافا، عندما دعت اللجنة العربية العليا، مباشرة بعد تبني قرار التقسيم، إلى إضراب عام في كافة أنحاء فلسطين: ثلاثة أيام من المظاهرات. وخلال هذه الفترة، أطلقت الطلقات الأولى للحرب من مسجد حسن بيك في يافا، بحيث شكلت هذه الطلقات إشارة. وقد كانت والعصابات الصهيونية على أهبة الاستعداد وقامت بالرد. قسّمت المدينة تماما، ويافا لن تسترد أبدا. كنا نعتقد أن هذا سيكون تكراراً لما حصل في العام ١٩٣٦-١٩٣٧، عندما كنا أقوياء ومنظمين. كان لدينا قيادة في ذلك الوقت. اكتشفنا أن هذا تصرف فردي خرجت حدته عن سيطرتنا. في ذلك الوقت كان لدينا اللجان القومية المستوحاة من اللجنة العربية العليا. كانت اللجان القومية لجان محلية، لجان مقرها المدينة. عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء لتركيبة اللجنة، أدرك كم كانت هذه اللجان ضعيفة ومغلوبة على أمرها. إذ أن الخلفية التعليمية والاجتماعية للأعضاء لم

تكن كافية لقيادة المجتمع في النضال الوطني. لقد كانوا أناساً طيبين، ولطفاء، ونظيفين، ولكن لم يكن لديهم الأسس الفكرية للقيادة. كان أمين عقل، وهو محام محلي، أمين اللجنة. وكان الحاج مصطفى الطاهر صاحب متجر بقاله. وكان محمد خيري البهلول مدرسا. كان هناك أيضا اثنين من الأعضاء الممثلين عن المسيحيين: رفيق الأصفر، أحد مؤسسي اتحاد مؤتمر العمال العرب، وشخص آخر لا أستطيع تذكر اسمه الآن. لم يكن لدى اللجنة القومية في يافا التقدير الحقيقي لقوة الخصم. أتذكر، أنني قمت في أحد الأيام، خلال السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية، بجولة برفقة عضو اللجنة الحاج مصطفى الطاهر. وكان ذلك بعد شهرين تقريبا من قرار التقسيم، كان الجو ماطرا، وكنت أتمشى مع أختي، عندما عرض علينا القيام بجولة معه. بدأنا نتحدث عن القتال، وقلت، من الصعب علينا القتال في هذا المطر. فأجاب: "لا، هذا لا شيء. من لديهم الصعوبة حقا، هم الآخرون لأنهم غير معتادين على الطقس والبرد. إنهم شعب نواعم".

تجسد هذه القصة التقييم للخصم. كان يرى بأن الفلسطينيين كانوا معتادين على المشقة وأنهم قادرين على القتال في ظروف قاسية بالمقارنة مع حياة النعيم لدى العدو، الذين لم يكونوا معتادين على التعامل مع المصاعب التي نواجهها في معيشتنا وحياتنا. لم يكن يعرف العدو. لم يكن يعرف أنهم جاؤوا من مختلف المناخات وأنهم كرسوا حياتهم لتحقيق هدفهم.

كانت اللجنة القومية تحاول تنظيم السكان للدفاع. وقامت بتوجيه نداء إلى المتطوعين، واستطاعت أن ترفع عدد القوة المقاتلة إلى ١٥٠٠ مقاتل، جميعهم، كانوا عبارة عن مقاتلين متفرغين. وهذا يعني أن هناك ١٥٠٠ شخص بإمكانهم الدفاع عن المدينة في أي ساعة وعلى طوال اليوم. كانت المعدات والمدافع الرشاشة والبنادق التي تم شراؤها والحصول عليها قديمة ولم تكن تصلح للمعركة.

كانت يافا محاطة بالمستوطنات اليهودية: تل أبيب إلى الشمال، بيت يام إلى الجنوب ومكفاح إسرائيل إلى الشرق، حيث الطريق القادم من تل أبيب والمرتبط بالطريق القادم من يافا إلى القدس. على هذا الطريق، كان بإمكان القناصة التشويش وتعطيل حركة المرور. كانت مستوطنة مكفاح إسرائيل، والتي كنا نسميها "ناطر" حسب المدير، واسمها الحقيقي نيتر، تعزل يافا من الشرق. كان هناك تبادل لقذائف الهاون ولإطلاق النار، عندما بدأت المشاكل. من الناحية النظرية، كان بإمكاننا بلوغ تل أبيب، كما كان بإمكانهم النيل من يافا، حيث أنهم كانوا أفضل تجهيزا بالأسلحة

الحديثة، وكان لديهم مقاتلون حقيقيون. أصبح من الخطر جدا العيش في القسم الأكبر من يافا، حيث تم الفصل بيننا بمناطق "حرام"، بطول ما يقارب ٥٠٠-٦٠٠ متر، بين يافا وتل أبيب، على مقربة من المسجد.

كان من أوائل الناس الذين تركوا المدينة هم الذين كانوا يسكنون في المنطقة الحدودية. وكان هؤلاء من المدنيين الذين لم ينضموا للقتال. من المهم أن نتذكر أن طرد الفلسطينيين لم يحصل في مايو-أيار ١٩٤٨، وإنما بدأ مباشرة بعد اندلاع الحرب الأهلية. لذلك، بدأ السكان الفلسطينيون عملية الانتقال إلى مناطق منفصلة. بداية، انتقلت عائلتي للمرة الأولى في الأسبوع الثالث من كانون أول – ديسمبر إلى منزل ابن عمي جمال، الذي كان ابن عمي "اللزم"، كان والده ووالدي أشقاء، وكان يعيش في حي العجمي، في وسط مدينة يافا بالقرب من سوق الذهب. بقينا معه لمدة أسبوعين. أصبح من الواضح، بعد أن اشتد القتال، انه ليس بالإمكان العودة إلى بيوتنا في وقت قريب. لم يكن لدينا أية فكرة بأن هذه الحرب على وشك أن تكون مختلفة عن الحروب التي سبقت.

كطلاب، تطوعنا، أنا وزملائي للعمل مع اللجنة القومية. أردنا المشاركة بالمقاومة حتى وإن كنا نفتقد إلى التدريب. تطوّعت وأصدقائي شفيق الحوت ومحمد لصوي. كانت هذه أول مجموعة من المتطوعين تذهب للمقاومة. ووضعت في نفس المنطقة التي عشت فيها، تحت قيادة قائد بوسني "قصير" من يوغسلافيا، حيث كنا نعتقد أنه قائد تركي. كان عنصرا من قوات المفتي من الحرب العالمية الثانية، وكان أحد أفراد الشعوب المسلمة، التي وقف بعضها مع دول المحور أثناء الحرب. عندما تولى تيتو الحكم في يوغسلافيا، حصلنا على هؤلاء المقاتلين. كان هناك ثلاثة أو أربعة من هذه الأنواع منتشرة في أنحاء فلسطين. لم يكن هذا القائد يتكلم العربية، كما لم يكن يجيد الإنجليزية، لكنه كان يجيد التواصل.

في الليلة الأولى التي خرجت بها في مهمة، وضعوني مع رجل كنت اعرفه من الشارع. كان سائق نقل، وكان يرى بعين واحدة، وقد سبق له أن أقلّنا معه أنا وأصدقائي. لم يصدق حينما رآني. بالنسبة إليه، كنت من عائلة محترمة، كنت أستاذا. لم يستطع استيعاب ما رآه، كيف يمكن لي أن أكون جزءا من القوة المقاتلة. شرحت له مشاعري الوطنية، لكن كان ذلك بالنسبة إليه حفنة هراء بقدر ما كان مهتما. كان من المفترض أن يتشكل الجيش من مجموعة من "الزعران". لم يعد لسعيد

وسيلة النقل التي كان يعمل بها، وأصبح الآن يعمل كمقاتل بدوام كامل. قائلا إن سبب انضمامه "لهذه المهمة" كان من أجل المال.

كنا نجلس سوية في موقعنا، وكنت مذعورا من الموت. لم يكن لدّي أي تدريب، لم أكن مسلحا سوى ببندقية صيد، من إنتاج مصنع والدي، وكان بإمكانها إطلاق سبع رصاصات. نظرت إلى سعيد كخبير، بحيث انه قضى في هذا العمل وقتا أطول مما قضيت:

"أين هو العدو؟" كان هذا في المساء ولا يمكنني أن أرى.

أجاب قائلا: "إنهم هناك"، مشيرا بيده.

"لكن، سعيد، أنا لا أرى شيئا".

"آه، لكنهم جبناء، ولن تراهم".

"ماذا تقصد، بأنني لن أراهم؟ ماذا سنفعل لو قاموا بمهاجمتنا؟".

"آه، لا تقلق يا أستاذ، إنهم جبناء، وإذا ما ظهروا، سوف نمسحهم".

"لكننا بحاجة لمعرفة من أين هم قادمون".

"طيب، ماشي، سأريك". وأشار سعيد ببندقيته في اتجاه وبدأ بإطلاق النار.

لا يمكنني رؤية أي شيء، فقد كانت ليلة كاحلة السواد. كان هناك الكثير من الطلقات النارية التي أطلقت صوبنا، كنت خائفا. وما زلت لا أستطيع رؤية أي شيء. كان سعيد ينظر إلي، عندما كان يقوم بإطلاق النار ويقول: "آه، إنهم جبناء، وإنهم، حقا خائفون، الآن". كنت حقا خائفا. ثم جلسنا سوية. قام سعيد بإحضار مقعد لي، كوني أستاذ، وينبغي علي أن لا أجلس مقرفصا على الأرض. حاولت إقناعه، أردت أن أكون جنديا وأن أكون شديدا وصارما، ولكن سعيداً لم يكن مهتما بما أقول. قال إنه لا يقبل بأن نكون في هذه اللحظة بنفس المستوى. أصر سعيد على القيام بإعداد الشاي، وكنت قلقا من أن يرى العدو ضوء النار. وقمنا بشرب الشاي معا كما لو كان كل شيء طبيعيا. لم يحدث شيئا في تلك الليلة. كنت خائفا وقلقا، لم يكن لدي أي فكرة على من أطلق النار. شعرت بالهدوء والارتياح بارتشاف الشاي والجلوس على الكرسي، ومراقبة العدو عن بعد. وفي تمام الساعة الثانية عشر، وصل القائد البوسني ليقوم بتبديلنا وباستلام الموقع.

حل النهار أخيرا عندما وضعنا في خط الخطر. وقام القائد بأخذنا إلى منزل مدمر، وطلب منا البقاء في المكان، وأمرنا بإطلاق النار على أي شخص يقوم بالاقتراب. وإذا ما قمنا بمغادرة الموقع، سيطلق النار علينا. وأعطيت لنا كلمة سر، لضمان أننا لن نطلق النار على مغيثينا. كنا خائفين جدا، وكانت هناك طلقات تطلق باتجاهنا، وبينما كنا جالسين وراء الجدار المحصن، قال صديقي محمد: "اسمع، هذا هراء، هذا القائد مجنون. أيظننا سننتحر؟ اقترح ما يلي: يجب أن يكون لدينا خطة انسحاب، انسحاب منظم وعملي". كانت خطته أن نقول للقائد بأنه تم تجاوزنا، وسوف نغادر الموقع فقط لاستدعاء المزيد من التعزيزات. كانت خطته ذات معنى، إلا أننا لم نستطع تنفيذها في تلك الليلة. تذكرت ذلك عندما انسحبت الجيوش العربية في حرب عام ١٩٦٧. حيث أن أسهل شيء للقيام به، بالنسبة لجيش عربي، هو الانسحاب بدلا من البقاء والقتال. كان قائدنا على علم بهذا، وقد تم تدريبه للقيام بالحفر والقتال. كان محمد لصوي يفكر بطريقة عربية، وكان يخطط بالفعل للانسحاب، إذ كان قد قبل فعلا بالفكرة. لكن، لقد شكل هذا كله الكثير بالنسبة لنا، حيث كان علينا القيام بتقديم الامتحانات المدرسية، التي قام البريطانيون بتقديم موعدها إلى آذار – مارس.

الانفجار المروع

في الرابع من كانون ثاني – يناير من العام ١٩٤٨، كنا نجلس في نادي الشبيبة الإسلامية، على بعد ٥٠٠ متر من قصر أو مبنى السرايا، عندما سمعنا صوت انفجار كبير. أتذكر عندما كنا نركض للاختباء في غرفة حمام النادي للاحتماء. وفي غضون بضعة دقائق، هدأت الأمور وعادت إلى ما كانت عليه. خرجنا أنا وأصدقائي من غرفة الحمام الآمنة ومشينا إلى الخارج وشاهدنا بأعيننا ما اقترفته عصابات شتيرن/ الأرغون. أسفر انفجار مبنى السرايا عن مقتل تسع وستون شخصا: ستون طفلا، من الأحداث، كانوا برعاية دائرة الشؤون الاجتماعية الحكومية –التي كانت قد اتخذت من المبنى مقرا مؤقتا لها، بعد انتقالهم من المقر الرسمي لدائرة الشؤون الاجتماعية في حي المنشية الذي تحول إلى ساحة اقتتال بين عرب يافا ويهود تل ابيب – ومرشديهم الاجتماعيين التسعة، الذين كان من بينهم أفضل لاعب كرة قدم فلسطيني، عزمي الدرهلي – الظهير الأيسر.

ويهمني أن أشير أن بعض المؤرخين الإسرائيليين "الجدد"، مثل بني موريس والذي كتب عن هذا

الحادث، اعتقد أن عصابات شتيرن استهدفت مقر اللجنة القومية حيث كانوا في اجتماع، هذا بالطبع ادعائه. وهناك رواية وادعاء آخر يقول بأن الهدف الحقيقي للعصابات الصهيونية كان اجتماع في مقر بلدية يافا. أعتقد أن هذا ليس صحيحا، حيث لا علاقة لهذا لا بالبلدية ولا باللجنة القومية. تستند هذه القصص إلى شيء من الحقيقة. ففي سوق الدير، كان هناك مكتب مستخدم من قبل اللجنة القومية، وكان قريبا من السرايا. فقد نقلت اللجنة مكاتبها قبل الانفجار بحوالي أسبوعين إلى النادي الأرثوذكسي على بعد ميل واحد، في منزل يقطنه اليوم السفير الفرنسي. ما زال بني موريس وكتاب إسرائيليون آخرون يصرون على أن هذا كان مقر اللجنة القومية أو البلدية. عند معرفة ما فعلوه في دير ياسين وغيرها، اعتقد أن استمرار تصنيف مبنى السرايا باعتباره هدفا مشروعا كان محاولة متعمدة لتشويه الحقائق. ليس لدي دليل على هذا ولكن هذا ما أعتقد.

معركة يافا

استمرت المعركة لفترة طويلة، وقررنا بأنه لم يعد بمقدورنا البقاء في منزل ابن عمي، والذي كان يقع على بعد ٥٠٠ متر فقط من المكان الذي كان يقع فيه سابقا القصر أو السرايا. كنت قد كلفت حينئذ بمهمة البحث عن مكان جديد للسكن. وقد بدأت بطرق الأبواب، باحثا عن شقة فارغة. كنت برفقة بعض من الأصدقاء "الزعران"، وفي نهاية المطاف، أخبرني شخص بأن هناك شقة فارغة في الطابق الثالث من مبنى كان يعود لأحد الوكلاء المحليين، الذين كانوا قد عملوا مع شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار، BOAC، بصفة وكيل محلي للشركة. التقيت مع هذا الشخص، وشرحت له وضعي بأدب، أخبرته بأنني أبحث عن شقة، وأنني على استعداد لدفع الإيجار. أوضحت له بأني وعائلتي لاجئين من المنشية. أنكر صاحب المبنى وجود أي شقق فارغة، واتضح أن الشقة الفارغة تعود لعروسين جدد كانا قد سافرا لقضاء شهر العسل في ذلك الوقت. أردت استئجارها، فقط لفترة غيابهم. كان صاحب الشقة عنيدا، مصرا على أن الزوجين قاما بتأثيث وتجهيز الشقة وأن جميع ممتلكاتهم موجودة فيها. كان علي التلميح باللجوء إلى العنف. كان لدي بندقية من نوع مارتيني، Martini، وأود ان أشير بهذا الصدد إلى حقيقة أن الناس عملوا نفس الشيء في بيروت في ثمانينيات القرن الماضي، حيث استخدموا القوة لإكراه الناس. لم يكن هذا الرجل نبيلا بما يكفي لمساعدتنا على الخروج من وضع يائس، لهذا أجبرته على الموافقة على تأجيرنا

الشقة، ووعدته بمغادرة عائلتي الشقة حالما يعود الزوجان. وتبين أن ادعاء المالك كان صحيحا: كان العروسان في الواقع قد سافرا لقضاء شهر العسل. لكنهما لن يعودا أبدا.

كانت شقة جميلة. وكانت المرة الأولى التي أشاهد فيها مرحاضاً عصرياً، وحوض للاستحمام، وفرن غاز، كل شيء كان عصريا. كانت الشقة تقع في حي النزهة، ولا زالت الشقة تراوح مكانها إلى اليوم. في الجهة المقابلة كان يقع مقر الهاجانا، والذي هو الآن مركز للشرطة. في كل مرة اذهب فيها إلى يافا، أعرّج على هذا المكان، لأنظر إلى الشقة.

اجتمعت اللجنة الوطنية بعد حادث ٤ كانون الثاني/ يناير مباشرة، وكإجراء وقائي، قرر الأعضاء إقامة نقاط للتفتيش على مداخل المدينة. وكنت ممثل الطلبة في هذه الجلسة. أرادت اللجنة استخدام الطلبة لنقاط التفتيش، إذ كانوا بحاجة لأناس يتكلمون الانجليزية، معتقدين أنه بإمكاننا معرفة البريطانيين من اليهود. سألت نفسي، كيف لي أن أعرف الفرق بين اليهودي والبريطاني؟ كانوا جميعا متشابهين بالنسبة لي، إذ كانت الصورة التي لدي عن الأوروبي أنه يهودي. تم تكليف الطلبة بالمراقبة على الحواجز ونقاط التفتيش. ومهمتنا اقتصرت على توقيف السيارات الأجنبية. لم نكن نقرأ الانجليزية، لذلك لم يكن لدينا فكرة حول من كان هؤلاء الناس. كنا نقوم بإيقافهم بنفس الطريقة التي يقوم بها الإسرائيليون اليوم بإيقاف الناس على الحواجز. كنا حينها "أطفالا" لم تتجاوز أعمارنا السبعة عشر ربيعاً، كما "الأطفال" من الجنود الإسرائيليين اليوم.

مع استمرار واشتداد القتال مع نهاية آذار/ مارس، قمنا بتقديم الامتحانات. بعد انتهائنا من الامتحانات وبعد أن أقفلت المدارس، أصبح لدي وقت أكثر، وتفرغنا، مع من تبقى من أصدقاءنا مثل محمد لصوي وشفيق الحوت للعمل في إطار اللجنة القومية. وكما غادر الناس المنشية نحو قلب المدينة، فإن الكثير من الناس غادروا وسط المدينة متجهين نحو المناطق الريفية. كانت عمليات القصف قادرة على الوصول إلى وسط المدينة محدثة ضرر حقيقي، وكان الناس يشعرون بالقلق على سلامتهم. المحلات مغلقة والحياة تعطلت. كان العرب يهددون بالمجيء بصحبة جيوشهم الكبيرة واستئصال هذا السرطان. صدقنا هذه الشائعات وأصبحنا ننتظر. ولوقف تيار الهجرة، أصدرت اللجنة القومية بيانا تحث فيه الناس على البقاء، مؤكدة على أن المدينة آمنة، وأن التعزيزات كانت في الطريق، وأن الشائعات التي يقوم بنشرها العدو ما هي إلا لإحباطنا. وازدادت الهجرة

بشكل أكبر. وجاء البيان الثاني ليكون بمثابة "تنظيم" الأمر، لهذا فرضت اللجنة القومية ضريبة "خروج" على كل أسرة تصر على الخروج من المدينة لثنيها عن المغادرة. فسّر البعض هذه الضريبة على أنها محاولة من طرف اللجنة القومية لجمع الأموال، ولم يكن هذا صحيحا، وسأفند هذه الادعاءات.

كحراس على نقاط التفتيش، طلب منا أن نقوم بجمع الأموال من الناس التي تغادر يافا. كنا نسأل الناس والتأكد من أن كل شيء على ما يرام. استندت الضريبة إلى كمية البضائع التي كان يتم إخراجها من يافا. ولذلك، كان علينا أن نقوم بتحديد قيمة الضريبة. كانت الضريبة محددة ب ٢٥ قرش للشخص الواحد، والعائلة التي تتكون من ٥ أشخاص كان عليها أن تقوم بدفع جنيه واحد. وأيضا، تم احتساب الحمير وشاحنات "البيك أب" الصغيرة في هذا التقدير. في البداية، كان على المغادرين القيام بتأدية الضريبة. لقد كنا متشددين، لكن نزهاء. احتفظنا بسندات قبض وفي نهاية اليوم كان محمد خيري البهلول يقوم باستلام الأموال وسندات القبض وأخذها إلى اللجنة القومية. من الصعب اتهام هؤلاء الناس. في الحقيقة كانت مهمتنا أن "نعذب" الناس لثنيهم عن عزمهم على ، وإن لم ننجح في ذلك فعلينا أن نساومهم، على قيمة الضريبة التي علينا تقديرها بناء على عدد أفراد الأسرة، ولما يحملوه معهم من متاع. وعلى أية حال، كانت قيمة الضريبة عالية إلى حد ما كوسيلة للضغط، ثم بدأنا بالتخفيض للأسر التي كانت مصحوبة بالأطفال، عندما بدأ الوضع يزداد سوءا يوما بعد يوم، وعندما أصبح الناس في حالة من الهلع. حينها، كنا ننام في مكتب الضرائب الخاص باللجنة القومية والذي كان مقره نادي الشبيبة الإسلامية بالقرب من ميناء يافا. وبدأت الأفران بإغلاق أبوابها، ولم نتمكن من الحصول على الضروريات. كان الكل يتآمر علينا لحثنا على الخروج، وكانت المدينة تفقد سكانها، وبدأت دفاعاتنا تتداعى.

النزوح

في الخامس والعشرين من نيسان/ أبريل من العام ١٩٤٨، قررت عائلتي النزوح، بعد أن احتل اليهود المنشية وأطبقوا على أكثر من ثلث المدينة. كان شفيق الحوت في تلك الفترة قد تمكن من مغادرة يافا، متجها إلى بيروت عن طريق البحر. وبقينا أنا ومحمد لصوي وأخي حسن نقاتل. كان أخي يقاتل على الجبهة الجنوبية للمدينة وكنت أنا على الحدود. بدأت المدينة تبدو مهجورة

ومخيفة في جميع أنحائها، حيث كانت الشوارع خالية تماما من السكان الذين قرروا البقاء مختبئين في منازلهم. لقد أصبحت يافا شبحا. وكانت قنابل تل أبيب تضرب المدينة، وأصيبت مضخات المياه وتفجرت، وأصبح لدينا صعوبة الحصول على الماء والغذاء. وكل يوم، كان الوضع يزداد تأزما. وبعد يومين، تلقينا بيانا عن وصول تعزيزات للنجدة بقيادة القائد الفلسطيني ميشيل العيسى الذي لم يتمكن أبدا من دخول المدينة. كان يرابط مع قواته على مشارف المدينة مزودين بالمدافع، بالتأكيد، لضرب تل أبيب، لكنهم لم يفعلوا ذلك أبدا ولم يحركوا ساكنا. واستسلمت المدينة في نهاية المطاف، وسقطت فعليا حتى قبل الإعلان عن استسلامها.

في الثالث من مايو/ أيار كان هناك حدث مثير للاهتمام، لا تسألني من وراءه، حيث لم يبق هناك الكثير من الناس في المدينة. سمعنا أن هناك سفينة وصلت إلى يافا، وكانت السفينة البلجيكية "الأميرة الكسندرا" والمستأجرة من قبل اللجنة الدولية للصليب الأحمر، هي آخر سفينة ستؤدي مهمة "إنسانية" بنقل من يريد الانتقال من اللاجئين إلى مكان آخر. بالطبع، كانت هذه المعلومات تستند على الشائعات. كانت هذه فرصتي الأخيرة، إذا ما قررت المغادرة. وبالتأكيد شجع البريطانيون على إخلاء وتفريغ فلسطين من سكانها. كنا قد سمعنا عن دير ياسين، نيتر أو مكفاح اسرائيل. كنت مسلحا ببندقية لا تطلق النار. وبحماية القوات البريطانية غادرت القوافل يافا. حيث أصبح النزوح صعبا في أواخره، إن لم تغادر مع القافلة، لأن قوات الهاغاناه كانت تعترض الطريق البري عند مستعمرة نيتر، مكفاح إسرائيل، وكنا نعلم أنهم كانوا يلتقطون النازحين، خاصة الشباب منهم ويقتلونهم. ولم يبق للنزوح من طريق آمن سوى البحر بمخاطره. لذا، قررنا محمد لصوي وأنا وصديق ثالث، المغادرة عن طريق البحر، لأن البقاء في المدينة لم يعد ممكنا.

التقينا في تمام الساعة العاشرة صباحا لأخذ "الجرم"، وهي مركب صغير، للإبحار إلى "الأميرة الكسندرا". كان "الجرم" محملا بما يقارب ٥٠ إلى ٦٠ شخصا، بالرغم من أن سعة وقدرة هذا المركب الآمنة هي أربعون راكب. كان الجميع في حالة من الذعر، حيث كانت السفينة الأخيرة. كنا جد حرجين من "الهروب"، نحن الذين ناضلنا وما زلنا نناضل، وآثرنا العودة إلى مكاننا، وعدنا إلى يافا على نفس الجرم الذي جاء بنا إلى السفينة. في الساعة الحادية عشر والنصف صباحا عدنا من جديد إلى النادي، الذي كان يشكل حصننا. لم يبق هناك أحد في المدينة للدفاع عنها، وكل

الطلقات التي سمعناها، كان مصدرها الجانب الآخر. وحوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، سمعنا "صفير" الباخرة، ورأينا دخانها الأسود يتصاعد من مدخنتها. وكان القارب على وشك المغادرة، نظرنا لبعضنا وأعيننا تقول هذه آخر فرصة. وبدون تفكير، تركنا بندقيتنا خلفنا وركضنا للحاق بآخر جرم، ولم يكن ممتلئا بالناس. وكنا آخر من صعد سفينة "الأميرة الكسندرا". كنا جالسين في الممر حينما مر بحار بلجيكي، نظر إلينا وسألنا: "لماذا تركتم بلدكم؟" لم أكن املك جوابا. وفي تلك اللحظة من عصر يوم الاثنين الموافق ٣/ ٥/ ١٩٤٨ أقلعت السفينة متجهة إلى بيروت.

وصلت السفينة إلى بيروت في اليوم التالي، حيث لم يتم استقبالنا بحرارة من قبل الشرطة والجيش اللبناني. كان لدي جواز سفري الفلسطيني، صادر من قبل الانتداب. قررت البحث عن بعض الأقارب المقيمين في بيروت. وكانت جدتي لأمي تركية. أتذكر أنني سمعت حين كنت صغيرا قصة تذكر أن لي ابن عم بعيد يقيم في بيروت. كنت أعرف اسم العائلة من خلال هذه القصص، لكن لم يكن لدي أي فكرة عن المكان الذي كانت تسكن فيه العائلة. نظرت حولي وسألت. تذكرت ذلك الجزء من المدينة الذي كانوا يقيمون فيه بفضل رسائل أمي التي كانت ترسلها إليهم. لقد صدمت بسبب ما وجدت. كنت لاجئا، لكني وبالرغم من ذلك، كنت أفضل حالا مما كانوا عليه. كانت عائلة فقيرة جدا، وكانوا يعيشون في أحد الأحياء – بلدي– الفقيرة لبيروت، لا بل الحي الأشد فقرا في المدينة. كانوا على نحو عشرين طفلا يعيشون في هذا المنزل، كانت عائلة كبيرة: من الواضح أنها لم تمارس تحديد النسل. الفقر يولد الفقر. لكنهم كانوا جدا سعداء برؤيتي، وبمعرفة أخبار والدتي وعمتي وجدي، كانوا شديدي الترحيب بي. كنت محرجا من جراء ما سببت من عبء الإقامة لديهم، لما يعيشون. كنت اخطط للسفر إلى دمشق، وكنت قد أخبرتهم بذلك، وكان رد فعلهم بنفس الطريقة التي يقوم بها العرب، بالإصرار على أن أبقى، لا لإدراك ومعرفة لماذا علي أن أذهب إلى دمشق. لقد أصبح فقرهم وكرمهم على حد سواء ذو معنى كبير جدا بالنسبة لي لاحقا.

اكتشاف العالم العربي

ذهبت في اليوم التالي مع محمد لصوي إلى دمشق. العواطف المرافقة لوجودنا في دمشق جعلتنا ننسى يافا قليلا. أقمنا في فندق في قلب العالم العربي. كنت قد قرأت عن دمشق وأحسست بالشعور القومي العربي، كنت أعيش إثارة اكتشاف العالم العربي.

انطلقنا من دمشق صوب عمان، وكانت عائلتي في نابلس والطريق الوحيد إلى نابلس كان عبر عمان. لذا، أخذنا القارب إلى بيروت، ومن بيروت إلى دمشق ومن ثم إلى عمان. عندما وصلنا إلى الحدود الأردنية في الرمثا، عرضت علي تأشيرة سياحية بتكلفة جنيه واحد. بطبيعة الحال، رفضت أن ادفع لسببين: كونه ليس لدي جنيه، ولأني كنت لاجئا، لا سائحا. لم يكترثوا. قام سائق سيارة الأجرة التي أقلتنا من دمشق بإطلاعنا على أساليب العالم العربي، قائلا لي: "لا تقلق، لن تضطر للدفع، سأريك كيف بإمكانك التهرب من الدفع وسألتقي بكما في الطرف الآخر". كنت قلقا قليلا: ربما كان يخطط للإيقاع بنا وتسليمنا للشرطة. لكنني فعلت ما أشار إلي، وقمت بعبور الحدود عن طريق الالتفاف عن نقطة حرس الحدود وكان سائق التاكسي ينتظرنا هناك.

ما أن وصلنا عمان، كان علي أن أجد سيارة أجرة تأخذني إلى نابلس. كانت عمان عبارة عن مكان بدائي جدا في ذلك الوقت، بالمقارنة مع أناقة بيروت وتاريخ الحضارة في دمشق، حتى يافا كانت أفضل من عمان. عندما كنت سائرا أبحث عن سيارة أجرة، ركضت نحو شخص ما كنت اعرفه من يافا؛ هذا الشخص كان أحد أقربائي واسمه يوسف. سألني إذا ما كنت قد رأيت عائلتي بعد، قلت له بأني كنت مسافرا إلى نابلس لرؤيتهم. أجابني بأن عائلتي ليست في نابلس وإنما في عمان. صدمت لما سمعت. بقيت عائلتي تقيم في نابلس حتى قيل لهم أنها لم تعد آمنة. وقد غادر ابن عمي الذي كانت تقيم معه العائلة إلى عمان وقاموا بمرافقته، وهناك قام باستئجار منزل بثلاثة غرف لأسرتي وأسرة ابن عمي. كانت أمي تقيم مع أبناءها في غرفة، وعائلة ابن عمي في غرفة، والغرفة الثالثة كانت تسكنها عائلة ثالثة أخرى. لذا، كانت هناك ثلاث عائلات تقيم في ثلاث غرف.

أوشك شهر مايو/ أيار على الانتهاء، ولم نسمع بعد من أخي الأكبر، لم يكن لدي أي فكره لأجيب على أسئلة والدتي التي كانت دائمة السؤال عنه. تركته في يافا عندما غادرتها إلى بيروت. أردناه أن يكون معنا في عمان، لذا، اقترحت بأن نرسل أخي الأصغر إلى يافا، كنت اعتقد بأنه سيكون في مأمن كونه كان صغيرا، وهكذا، لن يعتدي عليه اليهود أو يضايقوه. غادر أخي في السابع أو الثامن من مايو/ أيار، وسافر بداية إلى نابلس عبر القدس، ومن نابلس إلى طولكرم. وعندما وصل طولكرم، كان عليه أن يبحث عن سيارة أجرة لتقله إلى يافا. وبمحض الصدفة، التقى هناك بالأخ الذي كان من المفترض انه ذهب للبحث عنه، ثم عاد كلاهما إلى عمان.

العودة إلى نابلس

شكل حادث قصف القصر الملكي في عمان، الحدث الأهم والأبرز لمرحلة ما بعد الخامس عشر من مايو/ أيار ١٩٤٨. حيث أعلن في الثامن عشر من مايو/ أيار، بقيام طائرة إسرائيلية من طراز "سيسنا" بقصف لقصر الملك عبدالله. من الناحية النظرية، يمكننا رؤية الطائرة، ورؤية طلقات نارية تطلق باتجاه الطائرة، لكن شيئا لم يحدث. قصفت الطائرة ثم عادت. أعلنت الإذاعة لاحقا، أن قصر سيدنا قد تعرض للقصف. ولم ترد تقارير عن وقوع إصابات.

في صباح اليوم التالي، ذهبت مع أخي الأصغر إلى سوق الخضار. عند تقاطع الشارع على الجبل، حيث كان هناك مركزا للشرطة الأردنية. شاهدَنا أحد أفراد الشرطة عندما كنا نتحدث وقام باعتراضنا. لم يقم بتوجيه أي أسئلة لنا، فقط قام بشتمنا وأخذنا إلى مركز الشرطة، حيث وجدنا داخل المركز ٥٠ إلى ٦٠ فلسطيني آخر. كان يتم تمييزنا عن غيرنا من خلال ملابسنا. كانوا يمطروننا بالشتائم: "انتو بعتو الأرض، انتو عرصات...". وصفونا بالخونة، واتهمونا ببيع أرضنا وأننا نريد الحصول على أراضيهم بالمقابل. لم يفعلوا شيئا، فقط كانوا يشتموننا ويجلبون المزيد من الفلسطينيين. بعد نصف ساعة من الشتائم التي كانت تنهال علينا، قررت الاقتراب من ضابط الشرطة. رأيت نفسي كمتعلم ونظيف المظهر، لذا، اقتربت من الضابط وطلبت بأدب عما إذا كان بالإمكان إجراء مكالمة هاتفية. نظر إلي الضابط حينها نظرة غريبة، وخفت بان يقوم بضربي، وكرر طلبي ساخرا. قلت له بان المكالمة الهاتفية مهمة، أردت الاتصال بمثقال باشا. هذا كله كان هراء، سألني الضابط كيف عرفت مثقال باشا. قلت له أن عمي كان يُدَرسُ أولاده. كانت هذه هي الحقيقة، هذا ما كان. بعد ذلك، سمح لي ولأخي بالمغادرة.

مثقال باشا هذا هو مثقال فايز، نجل "الحكيم"، وهو احد الشيوخ العرب المعروفين. في الحرب العالمية الأولى فرَ عمي من الجيش التركي وذهب إلى الأردن، وكان مثقال باشا يبحث عن شخص لتعليم أولاده القرآن. عَثر مثقال باشا على عمي الذي قام بتدريس أبناءه لمدة ثلاث سنوات. وكان مثقال باشا شاكرا الجميل لعمي لهذه الخدمات. لذا، عندما أصبح عمي لاجئا، قام مثقال باشا باستضافته. شخصيا، لم يكن لدي أي فكرة عمن كان مثقال باشا.

بعد هذا الحادث الذي وقع في مركز الشرطة، قررت عائلتي العودة إلى نابلس. لم تكن عمان المكان

المناسب بالنسبة لنا، كنا نعرف ذلك. تركت وعائلتي الحقد واللاعقلانية تجاهنا كفلسطينيين. لم يكن قد صادف وأن تعرضت لهذا الشعور من قبل حول النشاط والعمل الفلسطيني. كان هذا درسا مهما بالنسبة لي لم أنساه منذ ذلك الحين. بحيث أصبحت أتفهم كل مرة يغضب فيها العرب منا. وكانت روزماري صايغ قد كتبت عن نفس الوضع الذي عاشه الفلسطينيون في سوريا، كان ينظر إليهم: الناس الذين باعوا الأرض، والخونة الذين تعاونوا مع اليهود. وقام اليهود كذلك بنشر هذه القوالب النمطية عن الفلسطينيين. لذا، انتقلنا إلى نابلس. بقينا هناك ستة أشهر وقضيت معظم وقتي في المقاهي ولعب الطاولة طاولة الزهر والتحدث إلى ضباط الجيش العراقي. تعلمت شيئان اثنان من العراقيين، الذي كان معظمهم من الشيوعيين. بداية، كان من الواضح أنهم لم يكونوا ذاهبين للقتال، لم يكن هذا سوى "مزحة" وانه لن تكون هناك حرب. كانوا يجلسون في المقهى بسبب عدم وجود عمل لهم. كانوا من الضباط، وليسوا من الجنود. كان العراقيون يصطفون في الطابور كل صباح، للذهاب إلى الحمام العمومي: "ماكو أوامر للقتال، أكو أوامر للحمام". لذلك، كان من الواضح، سواء بالنسبة إلى كمال ناصر أم أي شاعر فلسطيني آخر ممن اصطفوا في هذا الطابور، بأنه لم يكن لديهم أي أوامر للقتال.

كانت الظروف المعيشية في نابلس صعبة: كنا نعيش من جديد، في منزل من ثلاثة غرف مع عائلتين أخريين. كنا ثلاثة عشر من عائلتي نعيش في غرفة واحدة. كنا فقراء، ولم أكن اعمل. كنت أمارس حياة روتينية: أستيقظ وأتناول وجبة الإفطار، واذهب إلى داخل المدينة، حيث اجلس في مقهى منخرطا في الثرثرة و"القيل والقال". عندما يكون لدي بعض المال، كنت أقوم بشراء الكنافة. عند الظهر، كنت أعود إلى البيت، لتناول طعام الغداء، وأغفو قليلا، لأعود من جديد إلى الخارج، وهكذا دواليك. لكسر ملل الروتين، كنت أحيانا أسافر إلى رام الله بسيارة الأجرة. كانت رام الله مدينة جميلة للتنزه. كنت اشعر بأنني محاصر في نابلس: لم تكن هناك أنشطة ثقافية، وكان العراقيون مسيطرين على كل شيء عن طريق المحكمة العسكرية. لقد كنت في طي النسيان، ولا يمكن التفكير في المستقبل. كنت ما زلت في حالة حزن وحداد على ما حصل في يافا. وكانت رام الله تمثل المكان للانزواء والتهرب من الواقع، ولم تكن مكلفة، حيث الوصول إلى هذه المدينة الجميلة كان يحتاج لقرشين اثنين.

في أحد الأيام كنت في رام الله، وكان ذلك في الرابع عشر من تموز/ يوليو، عندما سمعت بسقوط منطقة اللد والرملة. وشاهدت، بأم عينيَ، اللاجئين القادمين من اللد والرملة يدخلون رام الله سيرا على الأقدام، لم يكن لديهم وسائل نقل، وكانوا في حالة يرثى لها. تم وضع اللاجئين في ساحات المدارس وفي المساجد. ركبت سيارة الأجرة، ورجعت عائدا إلى نابلس، لا أريد رؤية هذا بعد اليوم.

سمعت الأحاديث عن خيانة الأردنيين لنا. فقد كان الجيش الأردني يسيطر على الرملة واللد، عندما تلقوا الأوامر من غلوب باشا بعدم مواجهة الهجوم الإسرائيلي. لا استطيع القول إن كان هذا صحيحا أم لا، لكننا صدقنا ما قيل. كان هناك أيضا عامل آخر من المؤامرة التي حصلت، أو ما سماه المؤرخ الإسرائيلي آفي شلايم في كتابه "تواطؤ عبر نهر الأردن"، تواطؤ بين الملك عبدالله والإسرائيليين من اجل السيطرة على فلسطيننا. لم نكن نعرف عن التواطؤ في ذلك الوقت، لكننا كنا نعتقد أن هناك مؤامرة. هل كان غلوب باشا، الضابط الانجليزي والذي كان يقوم بتنظيم السلم الهرمي لقيادة الجيش الأردني، مسؤول عن الكارثة التي حلت بنا؟ بكل وضوح، الشيء المتوقع هو أن التواطؤ سيستمر. كانتا اللد والرملة الأخيرتان على خط الهدنة وفقا لمؤامرة الطرد. لم يكن هناك دليل على إثبات هذه المؤامرة، ولم يكن هناك أي تفسير لسقوط الرملة. في نفس هذا الشهر، تموز/ يوليو، علمت عبر إذاعة إسرائيل وعن طريق الصدفة، حينما كنت جالسا في احد مقاهي مدينة نابلس، بخبر اجتيازي لامتحان الثانوية العامة، البالستين متريكوليشن، Palestine Matriculation.

توزيع المنشورات

شاركت خلال شهر كانون أول/ ديسمبر من العام ١٩٤٨، بتوزيع المنشورات في نابلس، والتي كانت تطبع من قبل عصبة التحرر الوطني، التي كانت تنتمي إلى الحزب الشيوعي. أتذكر جيدا ما جاء في إحدى هذه المنشورات: "نطالب بانسحاب الجيوش العربية المحتلة". شكّلت قراءة هذا المنشور صدمة كبيرة بالنسبة لي.

كانت الرسالة الموجهة للجيوش العربية، تطالبهم بالانسحاب من فلسطين لكي تتمكن الدولة الفلسطينية من إعلان استقلالها. كان مذهلا ومفاجئا وصف العرب كمحتلين. كنت أعرف الإسرائيليين كمحتلين، لكن تصوير الدول العربية كمحتلة لأرضنا كانت رواية صادمة.

لقد وافقت على توزيعها رغم ذلك، وقام الجيش العراقي بمعاقبتنا على ذلك بالضرب، ولكن بلطف، وقالوا لنا: "لا تفعلوا هذا مرة أخرى". كانوا بالطبع من الشيوعيين كما ذكرت سابقا، واكتشفنا لاحقا أنهم يؤيدون ما جاء في المنشورات. كانوا أحد أولئك الذين أيقظوا الوعي لدينا حول أهداف الحرب، وانه لن تكون هناك حرب، ولن يكون هناك تحرير لفلسطين. خلصت حينها، وبناء على مناقشة مع ضباط الجيش العراقي، إلى أننا لن نعود إلى يافا. قالوا لنا، بأن هذا كله عبارة عن مسرحية، وانه لن يكون هناك قتال حقيقي، ولن تستطيعوا العودة إلي دياركم.

كان بعض الضباط الذين ضربوني، من الشيوعيين، وكانوا أحيانا يجلسون معي في المقهى. لذلك، ضربوني بلطف، ما يكفي لتجنب التعرض للعقاب من قبل قائدهم. من الغريب اليوم أن اصدق أن يكون هذا الرجل صديقي، حين استذكر الماضي. هذا الرجل الذي يصبح فجأة عدوك، يقوم باضطهادك، لأنه يخاف قائده. واصلت توزيع تلك المنشورات، ولم يمسك بي أحد بعدها. تعلمت بعدها كيفية تجنب السلطات.

في كانون أول/ ديسمبر من العام ١٩٤٨، أدركت أن ما قاله ضباط الجيش العراقي في نابلس حول عدم تمكننا من العودة إلى يافا كان صحيحا. كان هذا عندما انتقلنا إلى عمان. أدركت أننا لن نعود إلى يافا. حتى اليوم، ما زلنا ننتظر العودة إلى يافا. كانت هذه اللحظة مصيرية في حياتي من حيث فلسفتي السياسية. أتذكر أنني أخبرت الطلبة العراقيين في شيكاغو عن الضباط الذين التقيت بهم في فلسطين. كان يعرف هؤلاء الضباط عما كان يحدث حقا في فلسطين في ذلك الوقت. كان الطلبة أكثر اهتماما بمواضيع أخرى: الأنظمة القمعية الحاكمة في العالم العربي، فؤاد نصار، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي، الذي اعتقل من قبل المصريين. فقط للملاحظة هنا، أن أسطورة بنيت حول فؤاد نصار، وانه قام بالتحقيق مع محققيه، وأنه كان يسأل المحققين عن قتال البريطانيين في قناة السويس بدلا من التحقيق معه ومقاتلته. استخدمت هذه القصة كبرهان على وجود مؤامرة. كانت هناك الشهادة التي أدلى بها غلوب باشا أمام البرلمان البريطاني وقال فيها: أن الجيوش العربية دخلت إلى فلسطين ليس لمهاجمة إسرائيل وإنما فقط للوقوف على خطوط التقسيم. كانت التجربة في نابلس تجربة انتظار، وإحباط، وبداية لليأس. كنت أدرك أنني لن أعود إلى يافا، وان الفلسطينيين لن يعودوا إلى ديارهم، وكنت مدركا كذلك، بأن العرب لن يفعلوا ما وعدوا به، ولن ينجزوا ما

جاؤوا لانجازه. أصبحت، من خلال مناقشاتي مع العراقيين، ومن خلال قراءة المنشورات التي كنت أقوم بتوزيعها، على قناعة بأنه لن تكون هناك حرب. لم يكن هناك شيء لعائلتي في نابلس: لا عمل ولا مال. لذلك، أخبرت عائلتي، بأنه يجب أن نعود إلى عمان. لذا، انتقلنا مرة أخرى إلى عمان، حيث بقيت مدة عام ونصف أخرى قبل أن أغادر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

العودة إلى عمان

ذهبنا إلى الأردن، في كانون أول/ ديسمبر ١٩٤٨، عائدين من نابلس. لم نكن نملك شيئا، ولم يكن لدينا ما نعمله، سوى الجلوس في المقهى، نلعب الورق والعاب أخرى طوال اليوم. كنا نعتقد بأننا متعلمين، لكن لم تكن هناك وظائف للأستاذ. أحد الأيام، وقعنا على إحدى الإعلانات: "تجنيد في الجيش الأردني". قراءة هذا الإعلان، أعادتني لبعض الذكريات التي عشت في سنوات ١٩٤٦- ١٩٤٧.

قمت وأصدقائي بزيارة لبعض المؤسسات اليهودية، من مدارس وكيبوتسات. كنا فضوليين حول مجتمعهم. أتذكر أننا ذهبنا مرة إلى هرتسليا، حيث شاهدنا مدرسة ثانوية، وقاعة رياضية ومكتبة ومختبرات. أردنا لمدرستنا ما كان في مدرستهم، تعلمنا مما لديهم، لكننا لم نتمكن من تبيان أن ما نحتاجه بحق هو التنمية. كنا نعرف أن كل هذه المرافق ناجمة عن التقدم.

كنا نتجادل مع الأولاد من أبناء الكيبوتس، حول حقهم في أن يكونوا في فلسطين. كانت جميع أحلامهم دعائية، بروباغندا، Propaganda. المزرعة بالقرب من البحر الميت كانت نوع من البروباغندا، ولم تكن اقتصادية. كانوا يجادلوا ويتحدثوا في كل مرة عن تحقيق أحلامهم. لم يكن المهم هو ثمن الفائدة: بقدر ما كان حول إنتاج الطماطم في منطقة لم تنتج الطماطم قط، وحول "جعل الصحراء تزهر". لم نفهم المغزى من ذلك.

خلال إحدى زياراتنا إلى الكيبوتس، في العام ١٩٤٧، التقينا يهودي ألماني يتحدث العربية. كان كبيرا نسبيا، في نهاية الأربعينيات من عمره. تحدثنا حول كل شيء. وقال لنا شيئا لن أنساه أبدا: "انتم أولاد جيدون، ولكن هناك حرب ستقوم هنا، وسوف تخسرون". ونصحنا، لأننا شعب طيب، بأن نغادر هذه الأرض قبل أن نطرد، طلب منا أن نغادر ونذهب إلى الأردن وان نلتحق

بالجيش، قائلا: "إن مستقبل هذه المنطقة سيكون للجيش". كان على معرفة بالقيادة الفاسدة في كل أنحاء العالم العربي. كان يعلم انه لا بد من التغيير، وان الجيش كان أداة التغيير. وقال: "أنصحكم، لأنكم شعب طيب، تهتمون بأرضكم وبشعبكم. اذهبوا وانضموا إلى الجيش". كنا نظن انه كان شخص أحمق.

ومع هذا، ذهبت وأخي لتقديم طلب للعمل في الجيش. أعجب احد مساعدي غلوب باشا بما فيه الكفاية بالطلب الذي قدمناه واتصل بنا للحضور للمقابلة. وقام بسؤالنا عن الأسباب التي تدفعنا للخدمة في الجيش. أجبناه بأننا نبحث عن عمل، وأننا لسنا مهتمين بالجيش بقدر اهتمامنا بالعمل. وقد قام برفضنا لأننا كنا بنظره متعلمين جدا لنكون في الجيش. لهذا، كان يعي ما يقوله صديقنا اليهودي من الكيبوتس: لا يمكن للجيش أن يأخذ المتعلمين، وكانوا يجندون البدو.

في نهاية المطاف، وجدت عملا في الجمارك، وبدأت بإعطاء دروس خصوصية في اللغة الانجليزية. كانت لغتي الانجليزية سيئة، لكنها أفضل بكثير من لغة الأطفال الذين كنت أدرسهم. كما تمكن أخي كذلك من إيجاد عمل لاحقا، لكننا بقينا على هامش المجتمع. عملت اثنتي عشرة ساعة يوميا مقابل الحصول على ١٢ إلى ١٤ جنيها في الشهر.

في عمان، كنت تعرفت على الحزب السوري القومي الاجتماعي، بقيادة انطون سعادة. كان هناك عدد من الأشخاص الذين كانوا يقومون على التجنيد والدعاية وعرض للإيديولوجية. وكان حزب البعث بدأ لتوه في الأردن، وكان لهذا الحزب مبعوثين من حزب البعث السوري في الأردن وفي الضفة الغربية. أعتقد أنهم قاموا بإنشاء أول حزب بعث في رام الله في أواخر العام ١٩٤٨ أو بداية العام ١٩٤٩. ثم كان هناك الشيوعيين. كانت هذه المجموعات الثلاث التي كنت أكثر أو اقل دراية بها. انجذبت نحو الأفراد الذين كانوا أكثر ميلا ليكونوا نشطاء في إطار الحزب الشيوعي، الذي كان حاضرا في فلسطين، قبل أن يتم حظره. كانت كافة الأحزاب السياسية هذه فاعلة، ولكن بشكل سري، لأن الحكومة الأردنية لم توافق عليها. كان هناك انقسام في المجتمع بين المؤسسة الأردنية بأكملها بقيادة الملك عبدالله والمعارضة المتواضعة التي كانت ضمن هذا الإطار، مقابل الفئات السياسية المهمشة من الحزب السوري القومي الاجتماعي والبعث والحزب الشيوعي. لم يكن هناك تمييز بين هذه الفئات فيما يتعلق بمدى التزامها بفلسطين، التي كانت القاسم المشترك بين

جميع هذه الفئات أو المجموعات. لا أريد القول أن الشيوعيين قبلوا بشرعية إسرائيل، لكنهم قبلوا قرار التقسيم في الأممية الشيوعية. كان الكثير من الشباب أكثر اهتماما بالصراع الطبقي. وكان واضحا أن هناك انقساما في المجتمع، وكان على الشيوعيين أنفسهم أن يجدوا إجابة لهذه المسألة. لم يكن الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث ملتزمين بهذا النوع من الرؤية كما كان الشيوعيين. فيما يتعلق بقضية فلسطين، كان كل من الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث أفضل من الشيوعيين، حيث نادوا بالقضاء على إسرائيل وعودة الفلسطينيين إلى فلسطين.

كانت فترة تموز/ يوليو من العام ١٩٤٩، فترة قاسية بالنسبة لي، والأصعب في حياتي. كنا نسكن في عمان، في جبل التاج، بعد أن انتقلت من ما أصبح يعرف بحي نزال. كنا فقراء، ولم يكن هناك مستقبل. كنت اعمل مقابل الحصول على ١٢ إلى ١٤ جنيها في الشهر، واسكن في ظروف صعبة ومكتظة. كانت العائلة تقيم في غرفة واحدة في منزل كنا نتقاسمه مع بعض الأقارب. لم أكن قادرا على أن أبقى هناك خلال النهار. كان علي الخروج دوما. كنا نستيقظ في منتصف الليل مبللين من المطر. كانت النوافذ مكشوفة. لذا، كان علينا أن نقوم بوضع البطانيات والأغطية على النوافذ لصد الرياح. لم نكن مستعدين لهذا النوع من الشتاء.

كنت أغادر المنزل مبكرا لأعود الساعة الحادية عشرة ليلا، بعد أن أكون قد عملت اثنتي عشرة ساعة. كنت اذهب بعد العمل إلى المقهى، حيث تعلمت شرب الكحول والتدخين، كنت اشرب الويسكي من نوع "بلاك ليبل"، أو ما كانت تسميه أمي "كازوز الماني". بدأت بشرب البيرة في بداية الأمر، ثم بعد ذلك انتقلت لشرب الويسكي، بسبب عملي في الجمارك. كنت قد تعرفت على أشخاص كانوا يقومون بسرقة زجاجات الويسكي من الجمارك.

كنت اذهب إلى الصحراء برفقة ابن عمي الذي كان ضيفا على مثقال باشا، الذي كان يملك بيتا في الصحراء. كان لابن عمي وعشيرة بني صخر إمكانية الدخول إلى ذلك البيت. وكان الشعور بأن تكون في وسط الصحراء مع الخيول، وبين البدو في غاية الإثارة، على الرغم من أنني لم أكن أمارس هواية ركوب الخيل. وكانت فرصة الذهاب إلى الصحراء تكاد تشكل الاستجمام الوحيد بالنسبة لي. كنت أود العوم في بركة السباحة في الزرقاء، والذهاب إلى السلط للقاء أناس ذوي ميول سياسية، والخروج في نزهات.

كانت هذه منافذي الحقيقية الوحيدة. لكن الفقر وآفاق المستقبل القاتمة كانت ذو وزن ثقيل على كاهلي. كان شقيقي الأكبر أحمد قد غادر في العام ١٩٤٧، للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية ليصبح مهندسا، وكان مخططا أن يعود بعد إنهاء دراسته لإدارة شركة مصنع السكب التي أنشأها والدي. ثم جاءت صدمة ١٩٤٨. لقد أرسلنا له، خلال فترة السنتين، أربعة الآلف دولار أمريكي، بمعدل ٢٠٠٠ كل عام، والتي تعتبر مبلغا كبيرا من المال، وقد قام بدفع مبلغ ٧٠٠ دولار كرسوم دراسية في جامعة سيراكيوز، بعد ذلك، تبقى له حوالي ١٣٠٠ دولار أمريكي لإنفاقها على المسكن والمأكل والتنقلات. اقترح احمد بأن آتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب: "الرسائل التي كنتَ تقوم بإرسالها كانت كئيبة وحزينة لدرجة أنني ظننتُ انكَ ستقدم على الانتحار إذا ما بقيت هناك" في عمان.

كنت أملك هذه الطاقة الرائعة التي لم أكن اعرف ماذا افعل بها. عندما كنت في يافا، كان حلمي أن أصبح محاميا في المستقبل. كنت أريد أن أصبح ذاك النوع من المحامين الذي مثّله يوسف وهبي في السينما. كان لي أصدقاء ذهبوا إلى مصر لدراسة القانون. لم أكن أريد الذهاب إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، كونهم، لم يكن لديهم كلية قانون. أردت أن أكون ذلك النوع من المحامين الذي أنتجته مصر، ولكن انتهى هذا الحلم، ولم استطع الذهاب. لم أتمكن من الدراسة هناك، على الرغم من أن الذهاب إلى القاهرة والدراسة فيها لم يكن مكلفاً على الإطلاق، إذ لم يفرض المصريون رسوما على الدراسة، لكن كانت هناك حاجة إلى المال من اجل العيش. من خلال جميع المصادر التي عرفناها في ذلك الوقت، كل ما هو مطلوب من اجل الإقامة في القاهرة كطالب كان خمسة عشر جنيها في الشهر. لكن لم يكن لدينا هذا المبلغ كل شهر، لم يكن لدينا حتى خمسة جنيهات تمكنني من الاعتماد عليها للدراسة، كما لم يكن لدينا ما يكفي من المال لتغطية تكاليف سفري إلى القاهرة. لذلك، بقيت عالقا في عمان، التي كانت مدينة مروعة للفلسطينيين، والتي كانت تصدر الأحكام المسبقة والمجحفة بحقهم. من المفارقات، أن عمان بنيت بأموال الفلسطينيين؛ بداية في العام ١٩٤٨، ثم في العام ١٩٦٧، ثم في الحرب الأهلية اللبنانية، وبعد ذلك في حرب الخليج، ازدهرت عمان بفضل كوارث العرب.

الفصل الرابع

الإبحار إلى الولايات المتحدة الأمريكية

تخليت عن فكرة الدراسة في القاهرة، بعد أن قدم أخي اقتراحا بأن نتقدم بطلب للالتحاق والتسجيل في جامعة سيراكوز، **Syracuse**، بسبب معرفته لها بالإضافة إلى بعض الاتصالات التي لديه هناك. وكان أول شيء توجب الحصول عليه تأشيرة دخول. لم يكن هناك وجود لقنصلية أمريكية في عمان، وتوجب علي الذهاب إلى دمشق للحصول على طلب التأشيرة. تتطلب التأشيرة اليوم نفس الأشياء التي كانوا يشترطونها في العام ١٩٤٨: تعبئة استمارة طلب الحصول على التأشيرة، صور شخصية، وفحص طبي يشمل فحص لمرض التراخوما، Trachoma، احد أمراض العين، وصورة أشعة سينية لمكافحة مرض السل بالإضافة إلى جواز سفر ساري المفعول.

أعطيتهم جواز سفري الفلسطيني، الصادر من قبل الانتداب البريطاني. وقاموا برفضه، قائلين إن جواز السفر هذا ليس مقبولا. لذلك، تشاجرت معهم: "أنا فلسطيني. وهذا جواز سفر ساري المفعول، وهناك سنتين أخريين لصلاحيته". وأجابوا على هذا بالقول: "لكن فلسطين لا وجود لها". شكل هذا حقا صدمة كبيرة لي. فلسطين لا وجود لها؟ قلت: "طيب، ما الذي يتوجب علي القيام به؟". قالوا لي أنه بالإمكان التقدم بطلب للحصول على جواز سفر إسرائيلي أو أردني، قلت: "لكنني لست إسرائيليا ولا أردنيا". ردوا على هذا بالقول: "حسنا، نحن بحاجة إلى جواز سفر، وجواز السفر هذا، الذي بين يديك ليس مقبولا". لقد كنت في ورطة، وقررت التقدم بطلب للحصول على جواز سفر أردني، لكن ليس في عمان، لأنني لم أكن على يقين بأنني سأحصل عليه. لذلك، ذهبت إلى بيروت، إذ لم يكن هناك مكتب تمثيل أردني في دمشق، لكن كان لديهم سفارة في بيروت حيث تقدمت بطلب للحصول على جواز سفر أردني. في غضون يومين، صدر لي جواز السفر الأردني وفقا للمادة ١٠ من قانون الجنسية الأردني، والتي تنص فقط على إصدار وثيقة مرور أو وثيقة سفر: بدون أية حقوق سياسية أو مدنية في الأردن. والذي تم تعديله لاحقا، إلا أن جواز سفري الأردني الأول أصدر لي وفقا للمادة ١٠.

حتى اللحظة كنت ما زلت بحاجة للفحص الطبي للحصول على التأشيرة. لقد لاحظ الطبيب السوري، عندما ذهبت لإحضار صورة الأشعة، وجود شيء ما في صدري، لكنه قال لي: "سأقول في التقرير أنك على ما يرام". اكتشفت لاحقا، إن هذا الشيء كان عبارة عن تليف في الرئتين، ولكن احمد الله، على أن الطبيب السوري لم ير أن هناك سببا مهما لوضع ذلك في التقرير الطبي، وإلا، فإن سفارة الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن لتوافق على منحي التأشيرة. عدت بعدها إلى السفارة الأمريكية ومعي الفحص الطبي وجواز سفري. قالوا: "والآن يجب أن يكون لديك حساب بنكي بمبلغ ٢٠٠٠ دولار باسمك كضمان مالي. هذا الضمان، بسبب كونك ذاهب للدراسة، وأنك بحاجة إلى هذا المبلغ لتغطية النفقات". كانوا يشترطون في ذلك الوقت مبلغ ٢٠٠٠ دولار: اليوم، يشترطون مبلغ ٢٢٠٠٠ دولار. قلت: "وماذا علي أن افعل حيال ذلك؟" أجابوا: "عليك أن تذهب إلى البنك، وتفتح حساب مصرفي". أن يكون لي حساب بنكي؟ بمبلغ ٢٠٠٠ دولار! كدت أن أتراجع عن كل شيء.

كل مشكلة ولها حل، وأنا ممتن جدا لأبي سميح خلف من يافا، الذي كان "كابتن"، قبل أن يستثمر لاحقا في محال لبيع النظارات. كنت اعرف أن لديه المال، لذا، فقد ذهبت إليه. كان يعرف عائلتي من تكون، وأنه كان لدينا المال، بالرغم من أن هذا لم يكن صحيحا في ذلك الوقت. لكنه، كان يعرف بان عائلتي جديرة بالثقة، حيث كانت لدينا مكانتنا. كان عمري حينئذ ١٩ عاما. قلت لأبو سميح: "أنا بحاجة إلى ٢٠٠٠ دولار". فنظر إليَ. ليس هناك أي شيء سيء بحاجة إلى هذا. قلت: "أنا بحاجة إلى مبلغ ٢٠٠٠ دولار وشهادة للقنصلية الأمريكية من اجل الحصول على تأشيرة. وقلت: "بمجرد أن أصل إلى الولايات المتحدة سأعيد لك مبلغ ال ٢٠٠٠ دولار". لم يكن هناك أية ضمانات، لكنه وافق: "حسنا، سأعطيك المبلغ". بهذا المبلغ الذي وضع في حساب بنكي باسمي، تمكنت من الحصول على التأشيرة. ونويت أن أقوم، حال دخولي الولايات المتحدة الأمريكية، بالحصول على التعليمات الضرورية لإرسال المبلغ.

ثم تابعنا استكمال المطلوب. وكطالب ينوي الالتحاق بالدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة، كانت الحكومة الأردنية مستعدة لإعطاء ٢٠٠٠ دولار بسعر الصرف الرسمي، الذي كان في ذلك الوقت دولار واحد مقابل خمسة جنيهات أردنية. كنت بحاجة للحصول على

المبلغ مهما كان سعر الجنيه الأردني لتحويله إلى ٢٠٠٠ دولار بسعر الصرف الرسمي. ثم، إرسال مبلغ ال ٢٠٠٠ دولار إلى أبو سميح بواسطة شيك وبيعها في السوق السوداء، والحصول على مزيد من الربح. ذهبت إلى مكتب مراقبة النقد الأجنبي، والمال في يدي. كان فرحان هو المراقب المالي للعملات الأجنبية، لكن في وظيفته الأخرى، كان المسؤول عن الرقابة في الحكومة الأردنية. كان يقوم بقراءة رسائلي المرسلة إلى أخي. عندما كنت أقوم بتقديم طلب تبديل العملة، دعيت إلى مكتبه. عندما رآني، قال لي: "أنت صبي شرير، تكتب هذه الأشياء وتشتم ملكنا، يجب أن تخجل من نفسك. أنت تعرف انه باستطاعتنا حبسك في السجن". في البداية، أنكرت ذلك، لكن بعدها، تذكرت انه كان مسؤول الرقابة. تظاهرت بالندم بسبب حاجتي إلى هذا المال. قبل باعتذاري، لكنه حذرني من أن افعل ذلك مرة أخرى. أجبت: "لن افعل هذا مرة أخرى، وسأغادر البلاد". علمت لاحقا، أن فرحان كان قوميا عربيا، متخفيا كضابط في الحكومة. خلاف ذلك، كان بإمكانه أن يضعني في السجن، وعلى أية حال، قام بإعطائي سعر الصرف الرسمي.

بحلول نهاية أيلول/ سبتمبر، كانت لدي التأشيرة والمال والتذكرة، وكنت مستعدا للسفر. ثم اكتشفت أن الشرطة الأردنية ألقت القبض على بعض أصدقائي الشيوعيين. لم اعلم بذلك على الفور، لكن، بينما كنت جالسا في مقهى، أرسل لي احد هؤلاء الشباب بكلمة تخبرني بأنهم الآن في السجن. اخبرني أحد الأصدقاء بأن السلطات قامت بالضغط عليه للاعتراف على بعض الأسماء، وأنني كنت في خطر. نصحني بالسفر حالا، وغادرت صباح اليوم الثاني. كان ذلك قبل أسبوعين من الوقت المحدد لمغادرة السفينة التي سأسافر على متنها. غادرت إلى دمشق لبضعة أيام، ثم إلى بيروت للمكوث برفقة صديقي شفيق الحوت. بعد ذلك، حان الوقت للصعود على متن السفينة، حيث كان هناك سفينتين، واحدة متجهة إلى بيرايوس، Piraeus، في اليونان، ومن ثم سفينة نيا هيلاس، Nea Hellas. كانت نيا هيلاس سفينة ضخمة كانت تبحر من بيرايوس إلى نيويورك في غضون ثلاثة أسابيع. كنت مريضا جدا. ولم يكن لدي سوى ٧٥ دولار قمت بتوفيرها للضرورة. كانت رحلة شاقة.

اكتشفت على متن الباخرة أن هناك اثنين من العراقيين، ولبناني أمريكي وكاهنا ارمنيا. كنت اعتدت على رؤيتهم في الولايات المتحدة بعد هذه الرحلة. كان هناك الكثير من اللبنانيين الأمريكان على

متن المركب. وكانوا يرقصون، وكنا نظن أنهم أمريكيين بسبب لغتهم الانجليزية المثيرة للإعجاب.

كانت أوروبا في حالة يرثى لها في أكتوبر من العام ١٩٤٩. كنت أرى آثار الحرب العالمية الثانية في ايطاليا، البلد الأول الذي توقفت فيه السفينة. رست السفينة بداية في نابولي ثم جنوة، Genoa. كانت المدن مدمرة بالكامل، ولم تكن المباني قد رممت بعد وتمكنت من رؤية المعاناة.

كانت السجائر، الأمريكية منها على وجه الخصوص، مكلفة للغاية. وكانت علب سجائر بول مول، Pall Mall، الأكثر طلباً في ايطاليا وكذلك في البرتغال حيث رست بنا السفينة من جديد. كان هناك اختلاف كبير في السعر: حيث كانت تكلفة صندوق السجائر على متن السفينة دولارين، بينما كنت أقوم ببيعه على الأرض، في الموانئ التي ترسو فيها السفينة، مقابل عشرة دولارات. لم يكن من المفترض أن أقوم بإعادة بيعها، لذا، كنت اخفي السجائر تحت سروالي، وكنت كذلك، أقوم بلفها بالسراويل. كانت الشرطة بالمرصاد، لذلك اضطررت للقيام بذلك بسرية. لهذا، فقد عشت في هذه الرحلة على الدخل الناتج عن طريق استخدام السوق السوداء في السجائر، وإلا لكنت قد ابتليت بالفقر. وكنت قد وصلت إلى نيويورك، وما زلت احتفظ بثلاثة دولارات.

التعلم عن أمريكا

لحسن الحظ، كان أخي بانتظاري، وكان أول شيء فعلناه هو الذهاب إلى البنك لإرسال المبلغ لصديقنا. واقترح أخي بان ننتظر حتى نصل إلى سيراكوز، Syracuse. وكنت ألح بإصرار على القيام بإرسال الأموال فورا. كنت قد وعدت أبو سميح بأن ارجع له المبلغ بمجرد وصولي إلى الولايات المتحدة الأمريكية. بعد سنوات عديدة، وعندما رأيته في عمان، كان جد سعيد وفخورا للغاية. كان يقول للناس من حوله بأنه بدونه لم يكن بإمكاني القيام بالدراسة. هذا صحيح، وأنا اقر بذلك، وسأبقى ممتن له إلى الأبد، صحيح، بدونه، لم أكن قادرا على الوصول إلى أمريكا.

مكثنا في الليلة الأولي، في جمعية الشبان المسيحية. كان يتوجب على أخي العودة إلى سيراكوز في صباح اليوم التالي، في حين قررت البقاء لزيارة ورؤية نيويورك. كنت اخطط للقاء العراقيين الاثنين الذين التقيت بهم في السفينة، لكنني ضللت طريقي، وانتهى بي الأمر في نهاية المطاف بالبقاء في محطة للحافلات. وقام رجال الشرطة بالاستمرار بركلي قائلين: "ليس من المفترض أن تنام على

مقعد في محطة للحافلات". لذا، كان علي أن اكذب قائلا: "أنا في انتظار الحافلة هنا في الساعة الواحدة والربع". في الواحدة والربع، أريد أن أقول: "سأركب في الحافلة القادمة". لم يكن باستطاعتي تحمل تكاليف الفندق. أخذت الحافلة إلى سيراكوز في الصباح. مكثت هناك مدة ثلاثة أسابيع، حيث عثر لي أخي على عمل في دروملين كانتري كلوب، Drumlains Country Club، كمساعد نادل، Busboy، في مطعم النادي. لم يكن لدي أي فكرة عما كانت طبيعة هذا العمل، لكنهم يدربونك. أمريكا تدرب الناس. كنا نحصل على وجبة مجانا بسبب عملنا ضمن المناوبة أو الوردية المسائية. ووجد لي أخي كذلك غرفة بحيث أستطيع الإقامة فيها منذ لم يعد بالإمكان السكن معه. كنت ادفع دولارين لليلة الواحدة.

التقيت بأصدقاء أخي وتعلمت كيفية "عمل المواعيد الغرامية"، وقدم لي بعض الفتيات. وكان من بين الفتيات التي خرجت معها فتاة سورية-أمريكية، كانت درست في جامعة كورنيل، Cornell University، وكانت تعد أطروحة الدكتوراه في علم الاجتماع. كان لي شارب كبير في ذلك الوقت، وقالت لي ذات مرة، أن الفتيات الأمريكيات لا تحب الشوارب، لذلك، أنصحك بان تحلقه. لم أكن استمع إليها بالطبع، لأني رجل، رجل عربي.

قضيت وقتي في سيراكوز أتنزه وأزور المدينة وأتعلم عن أمريكا. لكن وقتي في سيراكوز اقترب من نهايته. حيث قرر أخي: "ستذهب إلى شيكاغو، حيث هناك، لدي صديق هو خبيرنا عن أمريكا، هو أكثر نضجا، اكبر سنا، وسوف يهتم بك". وبما أني الأخ الأصغر، إذا، امتثلت لذلك. وضعني في حافلة تابعة لشركة جري هاوند، Greyhound، تنطلق، مباشرة، من سيراكوز إلى شيكاغو.

التوجه الفكري

كانت الرحلة طويلة على حافلة الجري هاوند، Greyhound، من سيراكوز إلى شيكاغو، فقد انطلقت الحافلة في وقت مبكر من بعد الظهر لتصل في حوالي الساعة الخامسة صباحا. كان عليّ الذهاب من المحطة إلى مكان يسمى المدينة الجامعية الدولية التي هي جزء من جامعة شيكاغو، حيث يعيش هذا الوصي. وكان هذا المكان يقع في الجهة الجنوبية من شيكاغو، والتي كانت منطقة خطيرة. لم يكن لدي أية فكرة، كما أنني متأكد من أن أخي، هو الآخر، لم يكن يعلم بذلك. وصلت إلى المدينة الجامعية الدولية على الساعة الخامسة صباحا وطرقت الباب. لم التق بهذا الرجل من قبل،

لكنني التقيت بعائلته قبل أن أغادر . كان اسمه علي عثمان، وكان من بيت صفافا في القدس . أرسلت عائلته إليه بعض الهدايا من خلالي . أردت أن اخبره عن أخيه وعن عمه، لكنه قال : "لاء، لاء، لاء، نام هلا، بكرة" . لا استطيع أن افهم كيف يمكن أن يعاملني بهذه الطريقة . كنت قد أحضرت إليه أخبار عن عائلته، ولم يكترث بهذا مطلقا . علمت لاحقا، انه بإمكانك عدم الاكتراث بشيء في الولايات المتحدة، وخاصة، في الساعة الخامسة صباحا . استأت جدا وخاب أملي، ولم يكن هناك مكان للنوم . اضطررت للنوم على الأرض كونه كان ينام على سريره الوحيد وهذا ما حصل . وعندما استيقظت، نظر إلي بطريقة وقال : "هيا نذهب" . ذهبنا إلى الحمامات العمومية وقال إن لي شارب شنيع . كان لعلي شاربٌ حسن، وكان ينظر إلى نفسه على انه رجل وسيم .

كان علينا أن نجد مكانا للعيش، غرفة بسريرين . كنت اتبعه دوما، ولم أكن بالضرورة افهم لماذا . وجد لي عمل كبائع متجول . لم أكن أتكلم الانجليزية بشكل جيد، لكنه وجد هذا العمل، حيث كنت أملأ الحقيبة وأقوم بالتجول من بيت لبيت طارقا الأبواب، محاولا بيع ما لدي من بضائع . لم أوفق كثيرا في هذا العمل الذي بقيت فيه لبضعة أسابيع، لكنه كان عملا شاقا ومروعا . الحديث عما ما يمكن أن يواجهني وعن الاهانة . لكن، لن أقدر على العيش دون عمل؛ كنت حقا في حالة من اليأس الشديد وبدأت أفكر : "ماذا افعل هنا بحق الجحيم" . لكن، علي هذا، كان معلما عظيما . كان عالما، أمر لم أكن قد ألفته من قبل، لم أكن قد رأيته لدى أخي أو لدى أصدقائه . كان طالبا في الدراسات العليا في جامعة شيكاغو، كان يكتب أطروحة الدكتوراه . كان لديه العديد من الكتب لـ: جون ستيوارت ميل، John Stuart Mill، لوك، Locke، وغيرهم . ربما أكون قد سمعت عن هذه الأسماء، لكنني بالتأكيد لم أكن اعرف شيئا عن كتاباتهم . كانت هذه أول تجربة لي لما اعتبره التوجه الفكري . وبقي هذا يلازمني منذ ذلك الحين .

بعد ذلك، ربما بثلاثة أو أربعة أسابيع، قرر علي : "علينا أن نجد لك جامعة، جامعة حكومية" . وافقت على قراره هذا، كوني كنت دوما أصغي لما يقول وتابعا له . نظر في دليل "الصفحات الذهبية" للعثور على جامعة حكومية . كان يعرف فقط جامعة شيكاغو، لم يكن يعرف أي شيء آخر كونه كان قد وصل حديثا إلى شيكاغو . وجد جامعة الينوي، University of Illinois، في منطقة نيفي بيير، Navy Pier . بدأت جامعة الينوي، التي تشكل اليوم حلقة متكاملة، ككلية

جامعية متوسطة في نيفي بيير . أخذني علي إلى مكتب التسجيل وشرح لهم بأنني أريد التسجيل . ابتسمت الفتاة التي كانت مكلفة بإعداد طلبي . قلت لعلي : "أظن أن هذه السيدة تحبني" . لم أكن اعرف بأنه كان يسمح للأمريكيات بالابتسام . لذا، ابتسمت هذه السيدة الشابة، وكانت لطيفة، بالطريقة ذاتها التي تجد فيها الأمريكيين لطفاء .

مررت بتعبئة طلب الالتحاق وتعلمت من ذلك المرونة الأمريكية . لم يكن لدي أية شهادة أو نسخة عن النتائج من مدرستي، لم يكن لدي شيء، وكنا أصبحنا لاجئين . لم يكن لدي ما يثبت أنني تخرجت من المدرسة الثانوية، أو حتى أنني فعلا ذهبت إليها، أو أنني تقدمت بالامتحان الوطني وأنني اجتزته بنجاح . أعطيتهم طلب الالتحاق مع صورتين، لكنهم بحاجة إلى شهادة الثانوية . أعطيتهم الأسماء والسنوات وأوضحت لهم أن الإذاعة قامت بإعلان النتائج وان اسمي كان من بين أسماء الناجحين . وقد طلب مني أن اكتب إلى الإسرائيليين للحصول على الشهادة . لم يكن لديهم فكرة أننا كنا في حالة صراع مع إسرائيل . اكتب للإسرائيليين، يا الهي؟ سألوني عن ما قمت به خلال سنوات عمري من ١-٢٠، وأجبتهم . بذلك، قبلوا بما قلت لهم من حياتي من ١-٢٠ كبرهان . لم يكونوا ليقبلوا بإعطائي تأشيرة الدخول، لو لم يكن لدي قبول من جامعة سيراكوز . وان جامعة سيراكوز لن تكن لتقبلني لو لم تقتنع بأنني لم انهي المدرسة الثانوية . وبالتالي، قبلوا بالتحاقي بكل بساطة، وطلبوا بأن أزودهم حالما أستطيع بسجل العلامات أو الشهادة التي تبين أنني أنهيت المدرسة الثانوية . لكنهم قبلوني في الجامعة .

وبالفعل قمت بتزويدهم بما طلبوا . حيث كتبت إلى مناحيم منصور، الذي كان أعلى ضابط انتداب في القدس الغربية . وقام بمتابعة الأمر مع دائرة التعليم في الانتداب . كتبت له رسالة أقول فيها، انه في تاريخ كذا وكذا من شهر تموز/ يوليو من العام ١٩٤٨، أعلنت الإذاعة الإسرائيلية نتائج الثانوية العامة "البالستين متريكوليشن" وكان اسمي من بين أولئك الذين اجتازوا الثانوية العامة . قلت له، سأكون ممتنا لو تفضلتم بإرسال نسخة من النتيجة كوني بحاجة إليها للالتحاق بالجامعة . بالطبع، ساعدني صديقي علي في كتابة الرسالة، حيث لم يكن باستطاعتي كتابة الرسائل . وها أنا، وفي غضون ثلاثة أسابيع، احصل على ما طلبت . منذ ذلك الحين، وأنا أقر بأن هناك مرونة وعقلانية، في أحد الأنظمة التي تقوم عليها الولايات المتحدة، كما أن هناك حالة من اليأس المطلق لأنظمة أخرى .

عمل ودراسة

التحقت في نهاية المطاف بجامعة الينوي، University Of Illinois، وكنت فخورا جدا بنفسي، لكني كنت قلقا كذلك لشيء واحد، لم تكن لغتي الانجليزية قوية. يمكنني أن افهم الكثير، لكن لم يكن بإمكاني التحدث بمهارة وبالمستوى المطلوب. بالتأكيد لم يكن باستطاعتي تدوين الملاحظات باللغة الانجليزية. على كل، لقد سجلت خمسة عشر ساعة معتمدة، والتي شملت كذلك مساق التربية البدنية. كان علي كذلك أن أجد عملا، كي أتمكن من إطعام نفسي. كان فصلي الأول في الجامعة، الذي هو في الحقيقة، الفصل الدراسي الثاني من العام الأكاديمي، في فصل الشتاء. وكانت شيكاغو باردة جدا. لقد عشت هذه البرودة لأول مرة في حياتي. لكن كان هناك صديقي علي وكنا نسكن معا. وبدعمه، أصبحت محرجا جدا من التذمر من الصعوبات، لأنه كانت لديه كذلك بعض الصعوبات، على الرغم من انه اكبر سنا وأكثر نضجا. قام علي بإرشادي في اختيار الدروس. لم يكن لدي خيارات كثيرة جدا في السنة الأولى، لكنني كنت محظوظا بأن يكون لدي بعض الأساتذة المفيدين جدا.

كانت أستاذة اللغة الانجليزية، السيدة كيرستن، Ms. Kirsten، متخصصة في تدريس اللغة الانجليزية كلغة أجنبية، لم يكن هذا الحقل معروفا جدا في ذلك الوقت، وأصبحت لاحقا خبيرة في إعداد الكتب للطلاب الأجانب. أخذت على عاتقها تعليم الصفوف المبتدئة باهتمام وعناية ممتازة، درّست جميع الطلبة: لم تكن دروسها مطلوبة فقط للطلاب الأجانب ولكن للأمريكيين الذين كانت لديهم مشاكل مع قواعد اللغة الانجليزية. بدأت لغتي الانجليزية تتحسن، وشجعتني بان أتكلم والتكلم بكفاءة في الصف كي أتمكن من التغلب على نقاط الضعف لدي.

كان لدي كذلك أستاذ جيد في التاريخ، البروفيسور ريتشارد نيكلسون، Richard Nicholson. وعدت والتقيته مرة بعد أن أصبحت برتبة أستاذ وكان فخورا بي. كان محاضرا استثنائيا، واعتقد أنني قد اكتسبت بعضاً من سلوكياته في إلقاء المحاضرات. نتأثر عادة بالمعلمين، ونتخذهم في أحيان كثيرة قدوة ونماذج لنا، وكان ريتشارد نيكلسون نموذجا بالنسبة لي. كانت محاضراته رائعة، حيث علمنا التاريخ الأوروبي: عصر النهضة الأوروبية، والتاريخ الحديث. كان لدينا كتاب جامعي رائع في التاريخ الأوروبي، كان هذا الكتاب أول تجربة لي لدراسة التاريخ الأوروبي. اعتماد كتاب جامعي

أوروبي، ساعدني على معرفة قدر كبير من المعلومات. في ذلك الوقت، تعلمت التاريخ الأوروبي باللغة الانجليزية، بما أن المحاضر هو البروفيسور نيكلسون، بَانَ لي انه بالإمكان أن أناقش، وان أجادل حول ما جاء في المضمون. توجهت إليه بعد انتهاء الدرس، وقلت: "بروفيسور نيكلسون، أظن أنني اعرف كل هذه الأشياء. أعني، انك معلم جيد جدا، ولكن اعتقد أن علي الانتقال إلى فصل أكثر تقدما". فأجاب: "حسنا، هناك طريقة لمعرفة هذا، يمكننا أن نختبر ذلك، وأن نقوم بنقلك إلى فصل أكثر تقدما، والحصول كذلك على الساعات المعتمدة لهذا الفصل المتقدم". تمكنت من اجتياز الاختبار في كل من التاريخ والجغرافيا، والحصول على ساعات معتمدة إضافية. ويدل هذا على المستوى العالي للتعليم الذي كان عندنا في فلسطين خلال الانتداب.

كان خريجي المدارس الثانوية في فلسطين يقبلون تلقائيا في الجامعة الأمريكية في بيروت ومباشرة كطلبة في السنة الثانية الجامعية. بهذا، استطعت وبالمعرفة التي تلقيت في مدارس يافا أن اختصر سنوات البكالوريوس قليلا، من خلال تخطي بعض مساقات السنة الجامعية الأولى، حيث أمضيت ثلاث سنوات ونصف للحصول على درجة البكالوريوس: ولو كنت أكثر قوة في العلوم والرياضيات، لكان بالإمكان الحصول على درجة البكالوريوس بما يعادل الثلاث سنوات. تعلمت الكثير خلال عام من البروفيسور نيكلسون، حيث كان دائما يُحضر جيدا، ومعتدلا في تفسيره وعرضه للتاريخ. على سبيل المثال، كان من البروتستانت، وكان قادرا على تقديم محاضراته حول الإصلاح بدون أن يكون متشددا جدا حيال الكنيسة الكاثوليكية. شدد على أهمية أن يكون الفرد موضوعيا، وبقيت احتفظ بهذه القيمة إلى اليوم.

أخذت أيضا مساقات متعلقة بالجغرافيا والفيزيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء. لم أكن جيدا جدا في الفيزياء والكيمياء، لكن كان علي إنهاء ثماني ساعات معتمدة كمتطلب في العلوم الطبيعية والرياضيات. ببساطة لم أكن جيدا جدا في العلوم، لكنني اكتشفت علم الاجتماع والانثروبولوجيا. هكذا، أخذت هذه الدروس، وحصلت على نتائج إلى حد ما معقولة في الفصل الأول، لكن لم تكن ممتازة. نجحت وكان بالإمكان رؤية التقدم المحرز في دراسة وتعلم الانجليزية. بدأت أدون ملاحظاتي باللغة الانجليزية في الجزء الثالث من الفصل الدراسي، بعد أن كانت تدون جميع ملاحظاتي، في بداية الفصل، باللغة العربية. كانت كتابتي من اليمين إلى اليسار تستدعي

الفضول: ساعدتني بالتعرف على زملائي في الفصل.

في الفصل الدراسي الثاني لي في الجامعة، كنت اعلم أنني سأواجه صعوبات في دفع الرسوم الدراسية، حيث لم يكن لدي مال ولا حتى دخل. عشت على ما كنت احصل عليه من العمل، ولم يكن هذا كافيا لتقديم الدعم المطلوب، كنت ادفع سبعة إلى ثمانية دولارات أسبوعيا للغرفة من أصل عشرين دولار راتبي في الأسبوع. كنت وصديقي علي نرغب بزيادة دخلنا من خلال إعادة زجاجات البيرة التي كنا نشربها. كنا نعيد الزجاجات مع الساعة السادسة صباحا من أجل الحصول على المال والذهاب إلى الجامعة. كان يجب عليّ أن ادفع ثمن المواصلات وكان عليّ أن أتناول الطعام. لم يكن لدي المال، أتذكر عندما كنت أتناول كأساً من الحليب وقطعة من الحلوى وقت الغداء. كان عليّ، كطالب أجنبي، التقدم بطلب الحصول على تصريح عمل في الولايات المتحدة. كان طلبي قد رفض في المرة الأولى التي تقدمت بها للحصول على إذن العمل، على أساس مبلغ الـ ٢٠٠٠ دولار التي "تلقيتها" من عائلتي. قمت بإعادة تقديم الطلب من جديد بحجة أنني بحاجة إلى مبلغ إضافي لتغطية تكلفة المعيشة في شيكاغو. لقد رفضوا إعطائي إذن العمل خلال العام الدراسي، ولكنهم سينظرون في طلبي للعمل خلال أشهر الصيف. لم يكن هذا كافيا، لهذا، عملت موظف شحن في شركة أدوية اسمها جي بي رولينج، JB Rolling Company، حيث عملت في تعبئة الفيتامينات وشحنها إلى الخارج. خلال فصل الصيف، تمكنت من العثور على عمل في احد المصانع على أساس عمل بوظيفة كاملة، واستمررت بالعمل في المصنع بعد انتهاء فصل الصيف، خلال الفصل الدراسي، لكن بعد انتهاء الدوام، في الفترة المسائية؛ ابتداء من الساعة الرابعة حتى منتصف الليل. كنت اذهب إلى الجامعة في الصباح حتى الساعة الواحدة ظهرا موعد انتهاء الدوام، ثم بعد ذلك، أتهيأ للذهاب إلى العمل.

كان اسم المصنع الذي عملت فيه شركة فريدريك، Frederick Products Inc. اعتادت دائرة الهجرة على مداهمة المصانع للقبض على العمال "غير الشرعيين". وفي احد الأيام، كانت هناك حركة تمشيط واسعة، وتم القبض عليّ. جاء احد أعضاء مكتب دائرة الهجرة إلى المصنع وبدأ يتحقق من البطاقات الشخصية. حاولت الإفلات من هذه الورطة، بالقول أنني طالب ولدي تصريح عمل، وقمت بمناقشتهم، بما تعلمت خلال محاضرات العلوم السياسية: "حق المثول أمام

القضاء، لا يمكنكم اعتقالي". لم يكترث وكلاء دائرة الهجرة بما قلت، وتم اعتقالي ووضعت في عربة الشرطة. أكثر ما أدهشني، أن معظم الركاب الآخرين المعتقلين في عربة الشرطة، كانوا من الفلسطينيين. أمعنت النظر إليهم قليلا: كنت طالبا وكانوا هم عمالاً من العامة. أخذنا جميعا إلى الحجز في مكتب الهجرة إياه الذي رفض في السابق طلبي الذي تقدمت به للحصول على تصريح عمل. وبينما هم يقومون باستدعائنا إلى المحاكمة، إذ قام احد أفراد مكتب الهجرة باستدعائي إلى الخارج: "أنت تتكلم هذه اللغة اللعينة، أليس كذلك؟ هل تريد العمل معنا كمترجم؟". لقد اعتقلت للتو، نتيجة للعمل الغير قانوني، ويقدم الذين قاموا بتطبيق القانون بحذافيره، الآن، عرضا بالعمل معهم. سألت، كم تدفعون؟ عرضوا علي دولارا ونصف الدولار للساعة الواحدة. كان هذا بطبيعة الحال، أفضل من عمل المصنع، وقبلت بالعرض. عدت بعدها إلى المنزل وأخبرت صديقي علِي بما عرض علَي، حيث أعجب بما سمع. عملت بعد انتهاء الدوام في الجامعة لثلاث أو أربع ساعات يوميا. لقد كان عملا سهلا.

كنت بعدها قادرا على توفير بعض المال، لكن ليس كثيرا. مع نهاية الفصل الدراسي الأول، كنت اعلم أنني سأجد صعوبة في دفع الرسوم الدراسية، التي ازدادت من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ دولار. ذهبت إلى العميد، وشرحت له وضعي المالي، طالبا نصيحته، فاقترح أن أتقدم بطلب الحصول على منحة دراسية. لم يكن لدي أي فكرة عن المنحة الدراسية، لكنه زودني بنموذج للطلب. أخذت هذا النموذج إلى علي الذي ساعدني بتعبئته. ومما زادني دهشة، أنهم أعطوني منحة دراسية. كنت أول طالب أجنبي يحصل على منحة دراسية في تاريخ المؤسسة. ليس ذلك فحسب، وإنما حصلت أيضا على منحة دراسية لمدة أربع سنوات. لم ادفع أية رسوم دراسية بعد ذلك، والأربع سنوات كانت كافية بالنسبة لي للحصول على البكالوريوس والماجستير. كنت الطالب العربي الأول في الجامعة وحصلت على منحة دراسية، وكان هذا يعني الكثير بالنسبة لي. خلال الفصل الدراسي الثاني، عشت أول تجربة لي مع التحامل الأمريكي. كان الفصل الدراسي الأول عبارة عن تجربة مع الدعم الأمريكي، والمرونة والود والتفاهم، وكان الفصل الدراسي الثاني وإذ اكتشف التحامل والتحيز. من الواضح أنني لم أكن اعرف الكلمة أو ماذا تعني حتى وضَحت لي، قبل أن افهم.

كان من السهل نسبيا التعرف على عدد قليل من الناس في صفي، وكانوا أكثر أو اقل لطفاً معي.

كانوا ودودين بالطريقة التي يكون فيها الأمريكيون ودودون للغاية. كانوا يعرفون أنني عربي وجئت من فلسطين. أحيانا، ونتيجة الخلط ما بين فلسطين وباكستان، حيث تتشابه عند السمع بالانجليزية، ، كنت أقول أنني من الأردن. كانوا تلقائيا يفكرون بأنني معاد لليهود. لم يكن لدينا الكثير من الطلبة اليهود في ذلك الوقت في جامعة الينوي: هناك اليوم أكثر بكثير.

كنت مسجلا في مقرّرَين. كان احدهما مساق في التاريخ المتقدم مع البروفيسور نيكلسون. كان هذا، صفا كبيرا يتراوح عدد طلابه بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ طالبا. لهذا، قاموا بتقسيمنا إلى عدة أقسام. قام البروفيسور نيكلسون بإعطاء محاضرة واحدة وبعد ذلك، فيما يتعلق بالمناقشة، كان هناك محاضران إضافيان. المحاضر الرئيس لشعبة المناقشة التي كنت مسجلا فيها لمساق التاريخ، كانت السيدة جافي، Mrs. Jaffe، والتي كانت يهودية ألمانية. كانت السيدة جافي قد هاجرت مع عائلتها بداية من ألمانيا إلى فلسطين، قبل أن تهاجر من جديد إلى الولايات المتحدة قادمة من فلسطين في العام ١٩٤٦. لقد كان لدي اهتمام في التاريخ. حتى تلك اللحظة، كنت طالبا متميزا بعلامة "أ". لقد تحدثت إلى السيدة جافي، وكانت مهتمة بتجربتي وبتاريخي التعليمي. لم تكن لتصدق أنني ذهبت إلى مدرسة عربية في يافا. حتى لحظة مغادرتي، كانت ما زالت غير مصدقة لذلك. كانت الصورة النمطية لديها أنه لم يكن للعرب مدارس، أو أن المدارس الوحيدة التي كانت هي مدارس الإرساليات، والمدارس اليهودية، أو المدارس الدينية الخاصة والتي جميعها تدرس باللغة الانجليزية. الآن، ومع مرور الوقت، تحسنت لغتي الانجليزية، لكنها لم تكن مثالية. لكنني وصلت إلى ما وصلت إليه. زعمت أنني درست في يافا، في مدرسة عربية كانت مدعومة من قبل الحكومة. لم تكن تفهم أن الحكومة لديها مدارس عربية، لم تكن تصدق انه لم يكن بإمكاني الدراسة مع الطلبة اليهود. طوال الفصل الدراسي لم تكن لتقتنع بداخلها بأني فعلا ذهبت إلى مدرسة عربية. في نهاية المطاف، أصبحت اشك أنها كانت متحاملة. لم تستطع ببساطة القبول بحقيقة أن أتمكن من أداء الامتحان واجتيازه بشكل جيد، خاصة بعد ادعائي بأنني جئت من هذه الخلفية التعليمية.

كنت قد كونت بعض الصداقات في القسم الذي أدرس فيه. في أحد الأيام، جاء إلي احد أصدقائي واسمه بوب اولسيث، Bob Ulseth، وقال: "أبي، تعلم بأنني سأتقدم بطلب الالتحاق لكلية الطب، وأن علامتي هي "ب". وأن عليّ أن احصل على مستوى "أ" في كل المساقات لكي

اقبل". قلت: "حسنا". قال متابعا: "أنت تعرف، أني لست جيدا في التاريخ، وأنت أفضل مني بكثير. لقد حصلت على مستوى "ج"، وتابع: "كل ما أريد هو أن اجلس في المقعد الذي خلفك مباشرة، وكل ما أريدك أن تفعله هو فقط أن تكتب، مع الإبقاء على يديك في الأسفل". أراد أن يغش، لكن لم يكن علي فعل أي شيء، لهذا قلت: "حسنا، اوكي".

لقد صدمت عندما عرفت نتيجة الامتحان، حصلت على "ب"، وبوب اولسيث حصل على نتيجة "أ". ذهبت إلى السيدة جافي محتجا على علامتي، لكنها أصرت على أنها "صححت" الورقة كما يجب. لم يكن بالإمكان أن أقول لها بأن بوب نقل عن ورقتي، وعوضا عن ذلك، قلت لها، أنه ليس من الممكن أن تكون إجابتي ضعيفة. أصبح من الواضح، أنها لا يمكن أن تعترف انه بالإمكان أن أكون طالبا جيدا، كوني عربيا وفلسطينيا. استمررت بالاحتجاج على نتيجة الامتحان، لكن لم يكن هناك ما يتوجب القيام به. والعلامة "ب" ليست علامة سيئة: أن تحصل على العلامة "ب"، وأنت طالب أجنبي، رائع حقا. لم أسجل في أي من مساقات السيدة جافي على الإطلاق، بعد هذا الحادث. لم نتبادل بعدها التحية في القاعة، عندما كنا نتلاقى عن طريق الصدفة. كانت تعرف، بأنها لم تعد بالنسبة لي شخصاً آخر سوى أنها مومس.

كان مدرّس العلوم السياسية، ستانلي جابس، Stanley Gabis، يمثل تجربة أخرى في التحامل الأمريكي. قام ستانلي جابس بتدريسي أول مساق في العلوم السياسية. جلست في الصف بجانب طالب اسود اسمه ستيرلنج ستوكي، Sterling Stuckey، كان اسودا فاتحا وطويل القامة. لحسن الحظ، بدأنا الحديث مع بعضنا البعض. لم يكن لدي أي فهم للعنصرية في أمريكا في هذا الوقت. لقد نشأت في تقاليد العالم العربي، حيث انه من الصعب جدا تحديد من هو اسود، منّا من هو غامق اللون ومنا من هو فاتح اللون. كنا ستيرلنج وأنا أصدقاء وكنا نتبادل الأحاديث ووجهات النظر. كان أستاذنا ستانلي جابس، عدائيا وهجوميا تجاهنا. وكان خلال المحاضرة، ينتظر اللحظة التي لا نولي فيها اهتمام، ليقوم برمي احد الأسئلة الموجه صوبنا. لم يكن ينتظر منا أن نجيب، وعندما كنا نفعل ذلك، كان يقاطعنا، ببساطة لم يكن يريد لنا النجاح. كان جليا لنا، أن نلاحظ عدائيته. سألت ستيرلنج، عن المشكلة مع هذا الرجل. سألني ستيرلنج إذا ما كنت اعرف أن جابس يهوديا. أجبت بأنه ليس لدي أي فكرة عن الموضوع. قال ستيرلنج: "تعرف، جابس هو يهودي وأنت عربي".

اكتشفت لاحقا أن جابس كان صهيونيا أيضاً. ما زلت لا افهم لماذا كان جابس عدائيا تجاه ستيرلنج. ستيرلنج أجاب: "لأني زنجي". وكانت كلمة "زنجي" ما تزال مصطلحا مقبولا في العام ١٩٥٠. وقام ستيرلنج بإخباري بأن جابس كان عنصريا إلى حد انه كان يخرج بمسيرات تنادي بقتل الزنوج.

صدمة الطرد من الجامعة

في احد الأيام، وأثناء درس جابس، دعيت إلى مكتب مدير التسجيل. كان جابس يفترض أنني قمت بفعل شيء ما خاطئ، لأن المذكرة كانت تقول أنني كنت مطلوبا على وجه السرعة. وقال، انه بالإمكان أن انتظر حتى نهاية الدرس، كون محاضرته كانت ذات أهمية عظيمة. لكن، أردت أن أذهب إلى مكتب مدير التسجيل لمعرفة السبب وراء هذه المذكرة. كانت المسؤولة تريد معرفة إذا ما كنت أعاني من السعال. لم افهم ما الذي كانت تريد الوصول إليه، في حين أنها لم تستطع أن تنطق اسمي، قائلة لي: "سيد أبو لغد، أنت مريض جدا. صورة الأشعة السينية الخاصة بك تظهر أن لديك حالة متقدمة من مرض السل، الذي هو معد وخطير للغاية. لذلك، نحن غير قادرين على إبقاءكم في الجامعة. وبناء عليه، أنت مطرود من الجامعة لأسباب طبية".

كنت في حالة من الصدمة الكاملة، وأصبحت اشعر باني مريض. جئت من عمان، بمساعدة طرق ملتوية ومحتالة، والآن سيتم طردي وترحيلي. ومباشرة قام مسؤول قسم التسجيل بتحديد موعد مستعجل لي في دائرة الهجرة بعد ظهر ذلك اليوم. قام مسؤول دائرة الهجرة باستقبالي في الساعة الثانية من بعد الظهر، ليخبرني انه ليس مسموح لي بالبقاء مع العامة بسبب طبيعة المرض الذي أصابني. كنت بدأت اشعر وكأنني سأصيبه بالعدوى إلى هذا الحد. أشار إلي بأن أعود إلى المنزل وان أبقى هناك. وكان البديل أن أقوم بالذهاب إلى المصحة. وبدأ المسؤول بتفحص والنظر إلى ملفّي الخاص، قائلا: "تتلقى مبلغ ٢٠٠٠ دولار سنويا من عائلتك؟". ارتبكت، وأصبحت كذبة حياتي في مهب الريح. أخبرته أن عائلتي قد وقعت في أوقات صعبة، وأنه لم يعد لدي نتيجة لذلك أن أتلقى تلك الأموال. وشعرت بارتياح كبير عندما تابع: "نشعر بالمسؤولية لأنك عندما حضرت إلى هذا البلد، كنت في وضع صحي جيد. سنقوم بإرسالك إلى المصحة وعلى نفقتنا نحن". ستكون هذه عملية طويلة، ربما قد تستمر زهاء عامين. لكن، على الأقل لم يتوجب علي العودة إلى عمان. في غضون ذلك، اضطررت إلى الذهاب إلى مستشفى البحرية لعمل فحص طبي

شامل. أعطيت اسم الطبيب وتعليمات بعدم تناول الطعام بين منتصف الليل وموعد فحصي الذي كان مقررا في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. عندما غادرت مكتب الهجرة، لم يقم مسؤول الهجرة بمصافحتي، وعرفت وقتها أن وضعي كان حرجا. خرجت عائدا إلى المنزل لأجد صديقي علي، وقد كنت في حالة من الذعر، وقام علي بتهدئتي. وقال لي بأن أتجاهل هؤلاء الناس، وقال بأنهم أغبياء. لكن صديقي علي لم يكن طبيبا.

كنت اذهب إلى مستشفى البحرية يوميا وعلى مدار أربعة أيام، حيث كنت أقوم يوميا بعمل نفس الفحص؛ كان يتم وضع أنبوب في حلقي، ويقولون لي أن عليَ ابتلاعه وكأنه "سباغيتي". لم يسبق لي وأن أكلت "السباغيتي"، لكنني ابتلعت الأنابيب وحصل الأطباء على النتائج. كان الأطباء جد مهنيين ومطمئنين، وقد اهتموا بي كما ينبغي. وفي اليوم الرابع، خرج احد الأطباء للقائي وقال: "أيها الشاب، أنت في صحة جيدة، ليس هناك ما يدعو للقلق، خذ هذا التقرير وعد إلى دراستك". كنت أود تقبيله، لكن بدلا من ذلك ذهبت مباشرة إلى مسؤول التسجيل مع التقرير وعدت إلى الدراسة.

على مدى السنوات الثلاث التالية، كان علي أن أقوم بفحص، كل ثلاثة أشهر، من قبل قسم الصحة لمراقبة مرض السل. وجد الأطباء أنه في كل مرة يأخذون فيها صورة أشعة سينية يجدون أثرا للمرض. علمت لاحقا، أن ما كان يرونه لم يكن سوى تليف، عرفت كذلك انه إذا ما قمت بعمل فحص للجلد بدلا من فحص الأشعة السينية، سأحصل أيضا على نتيجة سلبية. رجعت إلى دروسي والى الجامعة وحصلت في نهاية الفصل الدراسي على علامة "ب".

ذهبت إلى اخذ مساق السياسة الأمريكية من قبل الأستاذ جابس الذي كان الأستاذ الوحيد المتاح. وكما تبين، كنا نعيش الاثنان، الأستاذ جابس وأنا في نفس الحي في الجهة الجنوبية من المدينة. أحيانا كانت مساراتنا تتقاطع، كنت اعتدت على رؤيته يتمشى برفقة امرأة، وكان هذا يجعلني متوترا قليلا، هل كان لجابس امرأة؟ لم أكن افهم. احد الأيام، رأينا بعضنا البعض في الحي، طلب مني أن انضم إليه والى صديقته لتناول فنجان من القهوة، تحدثنا عن السياسة وعن فلسطين. كان مهتما بعلاقتي مع ستيرلنج. سألني إن كنت أراه أو التقي به خارج الفصل. طلب مني أن أكون حذرا، وان انتبه لنفسي عندما أكون في مكان قريب من الزنوج. كان يقوم بتحريضي ضدهم.

مع اقتراب نهاية الفصل الدراسي، كانت حدة العداء من طرف جابس تجاهي قد خفت قليلا،

وأعطاني علامة "أ". حصل ستانلي جابس في نهاية المطاف على درجة الدكتوراه، ليصبح بعدها أستاذا في جامعة ميسوري. كنت أرى له أحيانا كتابات في بعض المجلات. لدى العنصريين عادة بعض أشكال الغباء التي تمنع قدرتهم على أن يروا بوضوح. لا جدال، في أنني كنت أفضل منه بكثير كعالم سياسة، حيث انتهى بي الأمر بأن أكون أستاذ أفضل وفي جامعة أفضل.

مع نهاية العام الدراسي، كان ستيرلنج قد انسحب من الجامعة. لم يكن لدي أي فكرة إلى أين ذهب، وبعد سنوات عديدة، في العام ١٩٦٨ على وجه التحديد، كنت أستاذا في جامعة نورث ويستيرن، Northwestern University، وأعيش في منطقة على الشاطئ الشمالي من شيكاغو. في احد الأيام، تلقينا، زوجتي وأنا، دعوة من زميلة أمريكية، لتناول العشاء، كان زوجها هو القنصل الفرنسي في شيكاغو، وكان الأشخاص المدعوون إلى حفلة العشاء من الشخصيات البارزة وبعض الأثرياء المهتمين بالسياسة التقدمية، وكان من بين الضيوف رجل أسود. بقينا هذا الرجل وأنا ننظر إلى بعضنا البعض. في حواراتنا، أصبحنا نُعرف من خلال أحاديث من نوع مختلف من السياسة، نوع أكثر ثوريةً، كنا أكثر تشددا من بقية المدعوين. بعد أن انتهينا من العشاء، جلسنا نرتاح قليلا لأخذ بعض القهوة. جلسنا بجانب بعضنا البعض، استدار للنظر إلي ولاحظ أن وجهي مألوفا جدا لديه. اعتقدت أن هذا قد يكون لأنني قد ظهرت على شاشات التلفزة الأمريكية. بدأنا الحديث عن المهن التي نعمل بها وعن تعليمنا، وفجأة، توضح لي أن هذا الشخص هو ستيرلنج. كان ستيرلنج قد ترك جامعة الينوي وأصبح معلما. ثم بعد ذلك بدأ بكتابة أطروحته حول بول روبسون، Paul Robeson، في نورث ويستيرن. كان ستيرلنج يبحث عن تمويل لإكمال بحثه الميداني في نيجيريا. في ذلك الوقت، وبالمصادفة، كنت مدير برنامج الدراسات الإفريقية. طلبت من ستيرلنج أن يأتي إلى مكتبي في اليوم التالي للتقدم بطلب لمنحة دراسية، وفعلا جاء في اليوم التالي. رتبنا مع الجامعة عملية إعادة تسجيل والتحاق ستيرلنج والحصول على الدعم المالي.

كل هذه الأحداث كانت قد وقعت خلال فترة ثورة السود. كانت الجامعات تبحث وبطريقة يائسة عن مدرسين من السود. عيّن ستيرلنج كأستاذ مساعد في قسم التاريخ حتى قبل أن ينهي أطروحته. وكان أثير سؤال عندما انتهى ستيرلنج من كتابة أطروحته: من سيقوم باستعراضها وتقيمها؟ كان أعضاء قسم التاريخ زملاءه، وانتهى بي الأمر لأكون رئيس اللجنة، التي كان احد أعضاءها مؤرخا، ايفور ويلكس، Ivor Wilkes، وآخر كان متخصصا في جنوب إفريقيا. سيشكل تقييم أطروحة

ستيرلنج عملا حساسا. كنا قلقين حول كيفية التعامل مع ستيرلنج، لقد كان متغطرسا وأطروحته لم تكن في ذلك المستوى. قررنا أن ندعوه إلى مكتبي وشرب القليل من الكازوز الألماني. أصبح الجميع مشوش الذهن قليلا بسبب الشرب، وعقدنا اجتماعا لطيفا لمناقشة الأطروحة. وقام ستيرلنج بعرض أطروحته أمام لجنة المناقشة قبل أن يحصل على درجة الدكتوراه. في وقت لاحق، قام بتحسين أطروحته قبل أن يقوم بنشرها في كتاب رائع. في ذلك المساء، كنت قد دعوت نبيل شعث إلى بيتي لتناول العشاء، والذي كان وقتها في شيكاغو، في مهمة دعائية لحركة فتح ولمنظمة التحرير الفلسطينية، وقمت بدعوة ستيرلنج للانضمام إلينا للاحتفال بنجاحه. كان لدينا نقاش سياسي رائع حول قضايا السود، ودعم السود لفلسطين، تحدثنا أيضا عن ستانلي جابس، عن العنصرية، وعن العداء تجاه العرب بين اليهود وغير اليهود.

يتحامل الناس في الولايات المتحدة الأمريكية على غيرهم دون سبب. كان هناك سلوك عام ضد العرب ومعاد للمسلمين، لقد عشت هذه العنصرية، التي تركت عظيم الأثر في نفسي. لقد عشت ظاهرة معقدة في أمريكا: كان الناس فاعلين للخير، ومرنين، وكرماء، وداعمين ومشجعين للطلاب الأجانب، بينما في نفس الوقت، يمكنهم أن يكونوا عنصريين ومتعصبين ضد الأفراد.

مناقشات حول فلسطين

بدأت مشاركتي العامة في القضية الفلسطينية في العام ١٩٥٠-١٩٥١. كان احد زملائي في الصف لمادة العلوم السياسية يهودي ألماني يدعى كونراد مائير، Conrad Meier، الذي كبر في حيفا. كنا، كونراد وأنا متقاربين نتيجة لوضعنا كغرباء وكأجانب. خلال محادثاتنا، اكتشفنا أننا كنا، كلانا على حد سواء يجهل الآخر. لم يكن يعلم شيئا عن العرب، فيما كنت اعرف القليل عن اليهود في تل ابيب، لكن لا شيء حول تكوينهم أو تركيبتهم. لم يكن لدي أي فكرة عن علاقة الحركات السياسية المختلفة بالصهيونية، كنت اعرف عن الهاغانا ولكن لا شيء عن البالماخ، هذا بالطبع أدهش كونراد.

لاحظ معلم اللغة الانجليزية مناقشتنا، واقترح أن نقدم عرضا مشتركا حول قضية فلسطين. حددنا أنفسنا كفلسطينيين؛ فلسطيني عربي وفلسطيني يهودي. كتبت العرض الذي قدمته بمساعدة صديقي علي. كان الأداء العلني الأول لي في اللغة الانجليزية، وقد كان خطابي عنيفا، ودعوت

فيه إلى تدمير إسرائيل. خطاب كونراد، من الناحية الأخرى، أوجز جميع الحسنات التي قدمها اليهود للعرب، وأوضح إلى إي مدى كانت ودية تجاه العرب، عن طريق قيامهم بتزويد العرب بالأطباء والمعلمين. رددت عليه قائلا، أن لا احد يذهب إلى مستشفى هداسا باستثناء بعض الملوك الفاسدين في البلدان العربية. لقد تعلمت درسا قيما في ذلك اليوم؛ أن أقوم بإجراء بحث عن هذا، حتى أتمكن من المحافظة على عرض البيانات بالأرقام. اكتشفت لاحقاً من خلال كتيّب كم كان عدد العرب الذين كانوا يعالجون في مستشفى هداسا، وكان العدد الإجمالي قد بلغ ١٥ شخصا على مدى سنوات عديدة. كانت حجته في غاية السخافة. أتذكر الشعور بالحوار؛ مواجهة الطرف الآخر ومن ثم الذهاب بعد ذلك معا لتناول القهوة. قمنا بعمل المناقشة، وسفكنا الدماء، وبعد ذلك خرجنا معا وشربنا فنجانا من القهوة.

لدي قصة أخرى متعلقة بكونراد وكتاب تدريس جامعي، textbook، هو "الحكومة الأمريكية والسياسة" تأليف أوغ آند راي، Ogg and Ray. أراد كونراد استعارة هذا الكتاب بعد أن كنت قد أنهيت مساق السياسة الأمريكية. وكان وعد بإعادة الكتاب حال انتهاء الفصل الدراسي. لم أكن أريد إعارة هذا الكتاب، الذي كان ذو قيمة كبيرة بالنسبة لي، إلى حد أنني كنت احمله معي طوال الطريق إلى فلسطين عندما قررت العودة. لكن على عكس رغبتي، وافقت على إعارته له. عندما انتهى الفصل الدراسي ولم يقم بإرجاعه، اقتربت منه، غاضبا، قلت له: "أخذتم فلسطين، وهل تريد أيضا اخذ كتابي". في نهاية المطاف، أعاد كونراد الكتاب. بعد أن تخرجنا، ذهب كل منا في طريقه، ولم اسمع منه منذ ذلك الحين.

لمواصلة الرحلة مع هذا الكتاب، انتقلت إلى جامعة الينوي–شامبين، University of Illinois, Champain، وانتقل الكتاب معي. هناك، التقيت بطالب أفريقي اسمه باباتوند وليامز، Babatuund Williams، كان يأخذ مادة في السياسة الأمريكية، وطلب مني إن كان باستطاعته اقتراض كتابي. جعلته يقدم وعدا بأن يعيده، اضطررت إلى مضايقته وملاحقته لمدة عامين حتى أعاد الكتاب. لذلك، هذا هو مصير كتابي مع إسرائيل وإفريقيا: كلاهما أعاد الكتاب، لكن فقط بعد مضايقات، وبالمناسبة ذهب باباتوند ليصبح صحفياً مشهورا، التقيته في العام ١٩٧٧، في مؤتمر عقد في نيجيريا.

أصبحت أكثر نشاطا من الناحية السياسية في جامعة الينوي–شامبين. كان احد اللقاءات السياسية الأولى لي عبارة عن مناظرة مع سيدة إسرائيلية، وقد علمني هذا اللقاء أشياء كثيرة تتعلق بسياسة الحوار. كانت الجامعة نظمت مؤتمرا كبيرا حول الشرق الأوسط، وعقد المؤتمر على شرف رالف بونش، Ralph Bunche، الذي حل محل فولك برنادوت، Bernadotte، بعد اغتياله. وكان بونش مسؤولاً كبيراً في الأمم المتحدة وكان اسودا. سألني المنظمون إذا ما كنت أود المشاركة في نقاش حضاري حول الصراع العربي الإسرائيلي، مع طالبة إسرائيلية من قسم علم الاجتماع تدعى بيتي مناحيم، في العام ١٩٥٣. كان يمكن لهذه المناقشات أن تتحول إلى شتم وحلبة صراخ، لكنني التقيت مع بيتي واتفقنا على المداخلات التي سنقدمها. وعندما حان الوقت لتقديم كلماتنا، ذهبت أولا لتقديم الكلمة كما اتفقنا. جاءت المداخلة التي قدمتها بمثابة الصدمة الكبيرة، إذ لا علاقة لكلمتها مع ما كنا قد اتفقنا عليه. واجهتها بعد المؤتمر، لكنها نفت حتى وجود أي اتفاق معي. تعلمت عدة دروس من المناقشة التي أجريتها مع بيتي مناحيم. بغض النظر عن الاتفاق، يجب أن تكون حذراً، أن تجعلهم يتكلمون أولاً واحتفظ بحق الرد؛ بينما كان الدرس الثاني الذي تعلمت أن أفَضّلَ وأقيس حججي حسب الجمهور. كانت حججي تستند إلى القضايا التاريخية، الخوض في تفاصيل الماضي للحضارة العربية. اقترح أصدقائي الأمريكيين بأن أكون وجيزا، والاتجاه مباشرة نحو الهدف: ببساطة، وباختصار وبشكل حاد.

حصلت حادثة مهمة خلال هذا المؤتمر. في هذه المدينة المتباهية، والمحافظة، والإنجيلية، قضية الحقوق المدنية التي كانت مشتعلة في ذلك الوقت، كانت عملية دمج صالونات الحلاقة. كان الطلبة يحملون لافتات كتب عليها: "هل تريد قص شعر رالف بونش، الحائز على جائزة نوبل؟". أجاب احد الحلاقين بأنه يود قص شعر الأفارقة لأنهم ليسوا زنوجا، بالرغم من أنهم هم من السود.

الفصل الخامس

مسألة الهوية

جاءت مسألة الهوية مبكرا، حين كنت اعمل مترجما لدى دائرة الهجرة. لم أكن من ذوي الخبرة وبالتالي لم أكن اعرف كيفية التعامل مع سياسات الترجمة. لم أكن اعرف ما الذي يتوجب عمله عندما، على سبيل المثال، قيل لي أن أحمد هو اسم أحد الأشخاص، بينما اعرف حق المعرفة أن اسمه حامد وليس أحمد. طلب مني أن أترجم حرفيا: ترجمة حرفية لما يقوله الشخص. في تلك الفترة واجهت واحدة من المشاكل التي ظلت تطاردني حتى يومنا هذا: أن تسأل الفلسطينيين عن جنسيتهم. كنت اسألهم عن جنسيتهم، والبعض كان حتما يرد "أردنية". كنت أتحدث إليهم بعد انتهاء المقابلة بالقول: "لكنكم فلسطينيون". كانوا يجيبون بـ: "نعم، لكننا أردنيون".

التقيت في احد الأيام، داخل حرم جامعة شيكاغو، بأحد طلاب الدراسات العليا، يدعى جورج صفير، وهو من أصل لبناني- فلسطيني، وكان هو الآخر يعمل مترجما في دائرة الهجرة. قال لي أن هناك مشاكل بالترجمات التي كنت أقوم بها. سألته: ما هي المشكلة؟ أجاب: "في التحقيق، تقول أنهم فلسطينيون، لكنهم في الواقع أردنيون". مهمتي كانت أن أترجم ما يقال، وإذا ما قام شخص ما بتقديم نفسه على انه فلسطيني، بالطبع، سأكتب في الترجمة هذا الشيء. من شأن هذا أن يصبح قضية سياسية هامة في الخطاب الفلسطيني: لتحديد ما إذا كنت فلسطينيا أو أردنيا. في ذلك الوقت، لم نكن نعي حجم الصراع الذي قد ينشأ حول هذه القضية. لم أكن على اتصال مع جورج، لكن بعد مرور عدة سنوات، قرأت رسالة إلى المحرر في صحيفة نيويورك تايمز، The New York Times، موقعة باسمه. عرف نفسه فيها مستشارا لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية. قادني ذلك إلى الاعتقاد انه ربما كان يعمل لصالح واحدة من وكالات الاستخبارات الأمريكية.

كان صديقي علي يحظى باحترام كبير، وكان على علاقة بشبكة عريضة من الناس المهتمين بالسياسة، احد هؤلاء الأشخاص البارزين، مسيحي، يدعى شفيق منصور. عمل شفيق لجمعية الشبان المسيحية في القدس، وكان يحضر دورة تدريبية في الولايات المتحدة في العام ١٩٤٨،

وكان غير قادر على العودة إلى منزله في القدس. يقع منزله في ما يعرف اليوم بالقدس الغربية، وهو أيضا المبنى الجميل والمقر القديم لجمعية الشبان المسيحية. كانت مهمة شفيق السفر في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وإعطاء المحاضرات عن الأراضي المقدسة. كل ثلاثاء، كان يقضي ليلة في شيكاغو. كنا نذهب إلى احد المحال التجارية هناك، ليقوم شفيق بشراء القهوة وبعض فطائر الحلوى. في المقابل، كنا نقوم أنا وصديقنا علي بالقيام بما يطلبه لقاء دفعه ثمن القهوة والفطائر. كان على شفيق أن يقدم خطابه لنادي الروتاري في ويسكونسن، Rotary Club in Wisconsin، وكيفما كان يتوجب عليه مواجهة يهودي كخصم أو المسيحيين المتشددين. كنا نتفاعل مع كل الانتصارات التي كان يسجلها شفيق بشيء من الرهبة والإعجاب. كنا نقوم بالإطراء والمجاملة لمنطقه الرائع. مقابل تعبيرنا عن مدى تقديرنا له، ومرة بالشهر، كان يقوم بشراء حبة من البوظة "الآيس كريم" بالإضافة لفطيرة التفاح التي كان يشتريها لنا. لقد كان رجلا لطيفا، لكن، لم يكن لديه أية فكرة، حول كيف كنا نتآمر عليه للحصول على حبة البوظة هذه مرة بالشهر. مع مرور الوقت، بعد عدة سنوات، وعندما أصبحت صديقا مقربا من ادوارد سعيد، اكتشفت أن شفيق كان احد أقارب عائلة والدته، التي كانت قريبة ومولعة جدا بشفيق. لقد أصبحت أكثر حذرا حول ما أقوله عن شفيق، بعد أن علمت بالعلاقة التي كانت تربطه بوالدة ادوارد.

عشت مع علي ما يقارب العام قبل أن نفترق. ولم يكن هذا افتراقا طوعيا بشكل كلي. كنا نعيش في غرفة واحدة، وكان علي مداوما على قراءة الصحف: شيكاغو تريبيون، Chicago Tribune، ونيويورك تايمز، The New York Times، التي كانت تتراكم في غرفتنا. في نهاية المطاف، وعندما أصبحت غرفتنا وسخة للغاية، أردنا الانتقال إلى غرفة نظيفة جديدة في منزل قريب آخر. كنا نفعل ذلك في كل مرة تصبح فيها غرفتنا غير صالحة للعيش. بينما كنا نبحث عن غرفتنا الأخيرة معا، دخلنا في مشاكل لأسباب لم أفهمها، وكان يتم رفضنا دون سبب واضح. فهم علي ما كان يحدث، واقترح أن اذهب وحدي والقي نظرة على احد المنازل، لكن إخبارهم بأننا شخصان. ذهبت لرؤية هذا البيت، بيت جميل جدا، ورأيت غرفتان بسعر ١٤ دولار. كان هذا المبلغ أكثر مما كنا نريد أن ندفع، لكن الغرف كانت رائعة. أخبرت السيدة التي كان ترافقني عند زيارتي للغرف بأن لدي شريك سيتقاسم الغرفة معي. ذهبت لإحضاره، لكنه كان مترددا في المجيء. كان علي شابا اسمرا،

وكان قد فهم العنصرية تجاه السود. الكثير من الناس كان يعتقد أن علي اسودا، لكنه في الحقيقة بعيد كل البعد من أن يكون اسودا. لكن، كان لديه شارب وكان غريب المظهر، رغم انه كان وسيما.

وافقت السيدة غوستافسون، Gustafson، على أن تقدم لنا الغرف، على الرغم من أنها لم تكن ترغب بوجود علي. بداية، اعتقدت أن لعلي سلطة كبيرة علي، واعتقد علي بأنها كانت غيورة. بالتأكيد، لقد أحبتني السيدة غوستافسون، كانت تقوم بإعداد الفطائر والكعك لي، وكانت متحيزة جدا. لم تقدم أبدا أي من المخبوزات لعلي. وكانت قد أفشت لي سرا، تخبرني من خلاله أن سلوك وتصرفات علي فاسدة، مثل اهتمامه بالنساء. والشكوى الأخرى تتعلق برائحة علي: كان لعلي حالة جيوب أنفية دائمة، مقترن بعادة سيئة هي وضع الجوارب الوسخة بعد استعمالها في الأدراج، وكانت تنتشر هذه الرائحة من غرفته. وطلبت مني السيدة غوستافسون أن أتحدث إلى علي حول هذا الموضوع، حيث أجاب: "يلعن أبوها". بوصولها إلى هذا المستوى من السفاهة دفع بعلي في نهاية المطاف إلى الخروج من المنزل، فيما بقيت هناك، وكنت مدللا بشكل واضح. تعلمت الكثير منها، كانت تجلس معي عندما كنت أقوم بتحضير دروسي، وكانت تقوم بإحضار فنجان من القهوة، حينما كان يبدو علي التعب، وقد أعطتني قدرا هائلا من الدعم المعنوي. وكانت تعانقني عندما أعود إلى البيت في نهاية اليوم، تاركة زوجها في المطبخ. كان لدى علي اعتقاد مشبوه، كان لديه شك بان السيدة غوستافسون كانت مغرمة بي، على الرغم من انه لم يستخدم هذه الكلمات بالضبط. كانت رمزا وشخصية مهمة في حياتي، ويمكنني القول بأنها ساهمت في إنقاذي. في نهاية المطاف، اضطررت لترك المنزل، حيث أردت مواعدة الفتيات بحيث لم يكن هذا مسموحا في داخل البيت.

عالِـم بِحُكم الظروف

في صيف هذا العام، بدأت العمل ضمن طاقم مصنع للفولاذ يدعى ريبوبلك ستيل كومباني، Republic Steel Company، وقد تعلمت الكثير عن التسلسل الهرمي للعرق أو الجنس في هذا العمل. تألف طاقم العمل هذا من الكاثوليك، والسود، واليوغسلاف وأنا. لم أكن مصنفا ضمن أي من هذه الفئات. كانت الإدارة على علم بأنني طالب كلية أو شخص قادم من مكان غريب. كان طاقم الشغل يعطى أسوأ الوظائف الممكنة في المصنع: حفر للثقوب ونشر لأعمال

محددة. كان للمجموعة تسلسلها الهرمي الخاص بها، وكان السود يُدعون للقيام بأشد الأعمال قذارة، واستخدمت عند مخاطبتهم اللغة الأشد قسوة والطريقة الأكثر انحطاطا: " هيي أنت، يا ابن العاهرة، تعال وافعل هذا. . . ".

استمررت في هذا العمل لمدة أسبوع تقريبا، وكنت على استعداد لتركه، إذ لم استطع مواكبة ذلك بدنياً. وعندما كنت على وشك ترك العمل، نادى عليَ المسؤول الكبير قائلا: "أبي، (تصغير لأبو لغد) أنت في الجامعة، أليس كذلك؟ هل لك في العلوم؟". لم يكن لدي أي فكرة عما كان يبحث عنه، مع ذلك، أجبت، فقط، بنعم، كنت اعني العلوم السياسية. وقال لي المسؤول الكبير: "سأقوم بإرسالك إلى ويات". كان ويات، Wyatt، مختص بالمعادن، وكان يقوم على تجربة ثورية حول تكوين المعادن عند درجات حرارة معينة. بحيث كان ويات يحاول صقل جهاز شبيه بجهاز مقياس الحرارة، والذي يمكن من خلاله قياس درجة الحرارة، بحيث يتم صب الفولاذ في قوالب عند درجة حرارة معينة. لم يكن هناك جهاز دقيق لقياس حرارة الفولاذ في الفرن، كنت على دراية بأفران الصلب من خلال معرفتي واضطلاعي على شركة والدي للسكب. لكن هذه الأفران كانت على نحو ثلاثة أضعاف حجم ما كان لدينا في يافا. وقاموا باستخدام طريقة أطلق عليها "القلب المفتوح"، والتي يحوَل خلالها المعدن من خردة إلى فولاذ منخفض الجودة، والتي كانت تباع بأقل الأسعار.

قام ويات بتوضيح التجربة أمامي، مستخدماً آلة تسمى مزدوجة حرارية. لذلك، كنت الشخص المختص في جهاز المزدوجة الحرارية. كان هذا الجهاز مرتبطاً بأسلاك تميل مع كرة من الزجاج، ليتم وضع هذا في الفرن مسجلا درجة الحرارة على مخبار مدرج كان يقع على بعد خمسين مترا من الفرن. قام ويات بعرض وشرح ما لديه من معلومات، وقد كانت المحاضرة الأكثر مللا والتي لم أكن سمعتها في حياتي، لكني أردت العمل، خاصة أنني حصلت على زيادة مقدارها ٥٠ سنتا للساعة.

أخبرني ويات بما يجب علي القيام به: "عندما يصبح الفرن جاهزا، سيخبرك الشخص المسؤول عن الفرن بذلك، في بعض الأحيان يكون على صواب وأحيانا أخرى على خطأ. سيستغرق الأمر ٦ إلى ٨ ساعات. بطبيعة الحال، نريد انجاز النظام. وسنقوم بأخذ درجة الحرارة من خلال هذا

الجهاز، ووضع المعلومات في قاعدة البيانات: قائمة الفرن، والوقت، والمدة، ودرجة الحرارة، ونوعية الصلب. لكن أبي، هؤلاء الرجال صعاب". كنا نعمل في ثلاث ورديات، بمعدل ثمانية ساعات لكل وردية، ولم يكن باستطاعتي التغيب عن إحداها. كان هناك ثمانية أفران، يقف عليها عمال من ذوي الخبرة، بحيث يعملون منذ أكثر من عشرين عاما. والآن على هؤلاء الرجال، أن يقوموا بتنفيذ التعليمات من طرف طفل عديم الخبرة. شاهدت بأم عيني صعوبة التغيير، وعرفت السبب الذي يجعل الناس يعارضون الابتكار، وهو مزيد من العمل.

قدمت نفسي كأبي، "أبي" المخلص والمستقيم. يستغرق الفرن بضع ساعات في عملية الإحماء، وبدأت التعرف على الرجال، كنا نذهب سوية لتناول طعام الغداء، نتحدث عن النساء، بلداننا الأصلية وتناول الطعام. كنا نمضي معظم الوقت جالسين حول الأفران، لكن في بعض الأحيان كانت هناك ستة أفران أو أكثر جاهزة للقياس في نفس الوقت، وكان يتوجب علي عدم الابتعاد عن أي منها. كان الرجال لطفاء معي، بحيث لو لم أكن قريبا منهم، أو إن لم أكن منتبها، يصيح بعضهم: "يا أبي، نحن جاهزون، أين أنت؟". كان علي الإسراع، والقيام بما يجب، حيث لا مجال للخطأ؛ لأنه لو كان هناك خلل ما، حدث الخطأ. تعلمت أن أغش، لكنني لم أغش كثيرا. فهمت كيفية احتساب الوقت، لذا، بدلا من سبع ساعات، كانت سبع ساعات وعشرون دقيقة، ودرجة حرارة الصلب هي كذا وكذا. كنت أقوم بتسجيلها يدويا، للتأكد من تعبئة واكتمال البيانات على الملف الخاص بي.

انتهيت من عملي مع انتهاء فصل الصيف، إذ لم يكن بالإمكان العمل هناك، خلال السنة الدراسية بسبب توقيت المحاضرات الخاص بي. طلب ويات مني البقاء، لكنه وافق على استبدالي بصديق لي كان يقوم بإعداد أطروحة الدكتوراه في الجغرافيا، حيث كان باستطاعته كتابة الأطروحة خلال القيام بالعمل. وبعد مرور عدة سنوات، كان هناك مقالا في مجلة التايم، تحت عنوان تجارب هامة، حيث تضمن صورة لجهاز المزدوجة الحرارية. بعد ثماني أو تسع سنوات على مغادرتي مصنع الفولاذ، صنفت التجربة على أنها ناجحة وأصبحت جزءا من أجهزة مصانع الصلب في كافة أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية. بالنسبة لي، ومع ذلك، فان أهمية هذا العمل تكمن فيما تعلمته عن المجتمع. كتبت بحثا حول التراتب الطبقي في أمريكا لأحد مساقات علم الاجتماع، بحيث كان أساس هذه

الورقة التصنيفات العرقية والتسلسل الهرمي للأجناس، والذي شاهدته في مصنع الصلب. تعلمت عن الثقافات الأخرى هناك وتلقيت تعليما حقيقيا في هذا المصنع.

كانت وظيفتي الثانية في العلوم بعد الانتهاء من السنة الأولى في الكلية. كنت اعمل على تجربة في الفيزياء الذرية لصالح بروفيسور ألماني، وقد وصفت هذه التجربة بأخذ ذبذبة الذرة. كانت وظيفتي تقوم على قراءة الأفلام وتدوينها يدويا. لم افهم شيئا من هذه التجربة، وقد ضعف بصري بسبب قراءة هذه الأفلام: وهذا هو السبب في ارتدائي النظارات. كان البروفيسور مهتما بالعاملين لديه، إذ سألني مرة كم كان يُدفع لي؟ صرخ بلهجته الألمانية الثقيلة، عندما سمع إجابتي: "هذه أجور الرقيق! هذه أجور الرقيق! هذا أمر غير مقبول يجب أن تمنحوه زيادة!" وحصلت على زيادة مقدارها عشر سنتات على الساعة. لكن، أكثر ما أتذكره هو ردة فعل البروفيسور. لاحقا، رجح لي انه كان يشير إلى العبيد الذين استخدمهم النازيين خلال الحرب. كانت هذه الوظيفة جيدة، وكنت بمفردي.

بعد أن انتهيت من عملي في الفيزياء الذرية، عملت في مغسلة، كعامل نظافة. كان الراتب سيئا للغاية، لكن العمل كان مريحا، كما كان قاب قوسين أو أدنى من الجامعة. من المهام التي أوكلت إلي كانت تنظيف الأرضية، وكنت أقوم بتنظيفها على الطريقة العربية، والتي تختلف عن الطريقة الأمريكية؛ قمت برش الماء والصابون على الأرض. بينما في الطريقة الأمريكية يستخدم القليل من الماء بالإضافة إلى قطعة من القماش للمسح. في أحد الأيام دخل ابن صاحب المحل ورأى الطريقة التي اتبعها في تنظيف الأرضية، بدا وكأنه قد فوجئ قليلا، لكنني كنت فخورا جدا بالنظافة التي كانت بها الأرضية. لم يشأ أن يفزعني، بالرغم من انه لم يوافق على طريقتي في التنظيف.

كان والده لطيفا إلى ابعد الحدود تجاهي، كان يقول لي: " أبي، عمل لدينا هنا ثلاثة أشخاص للقيام بهذا العمل: الأول هو محامي، والآخر هو طبيب والثالث هو أستاذ، وقد عملوا بجد وكان من دواعي سروري أن أقدّم لهم المساعدة. لقد كانوا أناساً طيبين، وتبدو وكأنك واحد من هؤلاء. إذا بقيت هنا في هذا العمل، سوف أقدم لك الدعم والمساعدة، وسأسهل عليك الأمور". وعرض الرجل العجوز: "بمجرد أن يخرج المستأجرون الذين يسكنون في الطابق العلوي، يمكن لك أن تنتقل للسكن مكانهم". كان لطيفا جدا واقدر مشاعره. أثناء قراءتي للصحيفة في احد الأيام،

رأيت صورته التي كانت تعرّفه بالأمين العام الجديد لرابطة مكافحة التشهير . لم يكن لدي أي فكرة بأن أصحاب هذا العمل كانوا يهودا، وكانوا على علم بأنني فلسطيني، لكننا قليلا ما التقينا منذ أن انتقلت للعمل ليلا . قلت لهذا الرجل المسن عندما التقيته في المرة التالية بأنني رأيت صورته في الصحيفة، سألني عن رأيي في الأمر، وإذا ما كنت اعرف شيئا عن رابطة مكافحة التشهير، فقلت له : "لا، لكن أود أن اعرف"، ثم فكرت : "أنا بحاجة للخروج من هنا"، وفعلت ذلك في غضون أسبوعين . واقدر قيمة ما قاله لي الرجل المسن .

ابن الشيخ

كنت اكتب أطروحة الماجستير في قسم العلوم السياسية، وكان الفصل الدراسي الثاني لي هناك، وكنت تقريبا قد وصلت إلى المرحلة النهائية منها . كنت حينها متزوجا ولدينا طفل، وكنت أتساءل ما الذي يمكنني فعله بالبقاء في هذه المدينة؟ إذ لم يكن هناك فرص كثيرة في "شامبين" . فكرت بان اذهب إلى شيكاغو . كنت بحاجة إلى وظيفة بدوام كامل وبراتب جيد، بحيث أتمكن من العمل على كتابة الأطروحة خلال الليل .

بدأت البحث عن وظيفة من خلال وكالات التوظيف، ولم يكن لدى وكالة التوظيف الأولى شيء تقدمه لي . كنت وقتها حاصلا على شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية، وكنت ما زلت لم انتهِ من الماجستير بعد، لكن ما هي المهارات التي لدي؟ كنت اعتبر نفسي متعلما، بمعنى أنني كنت أستاذا . ذهبت بعدها إلى وكالة توظيف أخرى لأحصل على نفس الإجابة . في الوكالة الثالثة، واسمها "تو- بيت أجينسي"، Two-Bit Agency، التقيت بشخص يدعى لاري، **Larry**، كان هذا الشخص يهوديا، وكان مهتما بي . ملأت الاستمارة وأضفت فيها قائمة بمهاراتي والوظائف التي عملت بها . ألقى لاري نظرة على هذا النموذج، قبل أن يمعن النظر في قائلا : "تبحث عن وظيفة مهمة وتريد أن يدفع لك راتب جيد . العمل الوحيد الذي لدي وربما يكون ملائم لك هو التالي : عالم انثروبولوجيا يبحث عن مساعد باحث للذهاب إلى كينيا، يعمل هذا العالم على دراسة ثورة الماو ماو" . لم يكن لدي فكرة عمن كان هذا الانثروبولوجي أو ما المتوقع مني القيام به . لكن، لا يزال يتعين علي الانتهاء من أطروحتي . نظر لاري إلى طلبي، وشرع بإعطائي مشورة في غاية الأهمية .

خبرتي في العمل كانت تلك التي أمضيتها في شركة جي بي رولينج، ريبوبلك ستيل كومباني، وشركة فريدريك، وقد كنت فخورا، كوني دعمت نفسي بنفسي، لكن كان لدى لاري رأي آخر : "هذا سجل سيء من الأعمال، إذا قلت انك عملت كاتب شحن لدى مارشال فيلدز، Marshal Fields، أو لدى لورد آند تيلور، Lord and Taylor، بالطبع يختلف الأمر، كنت كاتب شحن في شركة جي بي رولينج؟ من يريد العمل هناك غير الزنوج؟" أعطاني اسم وكالة توظيف أخرى، وطلب مني أن لا أقول شيئا عن وظائفي الأخرى . علي أن اذهب إليهم على اعتبار أنني ثري عربي، ابن لثري عربي، أحد شيوخ النفط . وابحث عن وظيفة تكمن فيها مهمة التواصل مع الناس .

ذهبت إلى وكالة التوظيف الجديدة هذه، للقيام بتلك المهمة في البحث عن عمل . كانت المكاتب في هذه الوكالة فخمة بالسجاد الكثيف والأثاث المكلف . فعلت ما طلب مني لاري أن افعل : عبّأت الطلب، تاركا خبرة العمل بدون تعبئة . استطعت الدخول إلى مكتب كبير، مقدما نفسي لرجل كبير السن يجلس خلف مكتب مزخرف . نظر إلى طلبي قائلا : "اعتقد، العمل الاجتماعي، وظيفة خاصة بمستشار أو متعلم، وظيفة مع الناس، أو القيام بمهمة فيها عمل الخير" . كنت مهتما، ومهتما جدا، وتم تحديد موعد للمقابلة في اليوم التالي . تقابلت مع امرأة وقمت بالتعاقد معها على الفور، وأخبرتني بأنه سيدفع لي مقابل العمل مبلغ ٣٥٠ دولار شهريا، على الرغم من أنني لم أكن اعرف شيئا عن العمل الاجتماعي . كان عليّ العمل مع المجتمعات المحلية الفقيرة الناطقة بالاسبانية في مقاطعة كوك في ولاية الينوي، على الرغم من أنني لا اعرف الاسبانية . قامت المرأة التي أجرت المقابلة معي بتبيان الحدود المالية للوظيفة : "يمكن لراتبك أن يصل إلى مبلغ ٦٠٠ دولار في الشهر، لكن لا يمكنك أن تحصل على أعلى من هذا الراتب قبل أن تنتقل إلى العمل الإداري، بعدها تصبح العديد من الفرص المختلفة متاحة" .

كنت احصل على مبلغ ١٠٠ دولار شهريا في ذلك الوقت . لكن، لم أكن أستطيع الحصول على الوظيفة . كان علي القيام بكتابة الأطروحة، وأدركت أن هذا العمل يسير في اتجاه اخذ كل وقتي . لذا، قام لاري بتعليمي درسا هاما وهو أن أصحاب العمل ينظرون إلى الخلفية الخاصة بكل شخص . كما وينظرون بشكل مختلف للمرشحين الذين عملوا في جامعة هارفارد، عن أولئك الذين قاموا بنفس العمل في جامعة ولاية ساوث داكوتا، South Dakota . هناك تمييز طبقي واضح . لذلك،

لم يكن تعليمي منحصرا فقط بالمدرسة، تعلمت كوني كنت فقيرا، وكان علي العمل. تعلمت أشياءً حول الصراع الطبقي والثقافات الفرعية المختلفة في الولايات المتحدة الأمريكية.

صدام الثقافة

تعلمت من البيئة الجامعية حول تنوع المعتقدات والالتزامات في أمريكيا. بعد الانتقال من شيكاغو، المدينة الكبيرة، وجدت نفسي في شامبين–اوربانا، الواقعة في منطقة من ولاية ايلينوي تدعى داونستيت، Downstate، والتي كانت مختلفة كليا عن شيكاغو. من الناحية السياسية، كانت كوك كونتي في العادة تقدم دعمها لمرشحي الحزب الديمقراطي، في حين تدعم داونستيت المرشحين الجمهوريين. ولكنها كانت أكثر استقطابا من ذلك، بحيث كان مرشحو الحزب الديمقراطي أكثر ليبرالية ومرشحو الحزب الجمهوري أكثر محافظين. كان هناك تقسيم واضح المعالم السياسية بين المجتمع الحضري مع النقابات، والمثقفين، والجامعات، والفئات العرقية المختلفة، وبين المجتمع الريفي المصنف على انه مجتمع "حزام الكتاب المقدس"، "ذي بايبيل بيلت"، The Bible Belt.

كنت دوما أكثر ليبراليا، حيث كنت في شيكاغو داعما لنداءات السلام التي كان يقف خلفها الشيوعيون، على الرغم من أنني لم أكن على علم بهذا في ذلك الوقت. كان ذلك في سنوات الخمسينيات، وكان الاتحاد السوفيتي خارج للتو من تجاربه للأسلحة الذرية. ونتيجة لآرائي السياسية الليبرالية، اتهموني في شامبين، بأنني "شخص أحمر"، شيوعي: نحن الأجانب جئنا مع أفكار غريبة.

أتذكر في الحملة الانتخابية عام ١٩٥٢، خلال وقفة الصافرة، لكل من دوايت ايزنهاور، Dwight Eisenhower (جمهوري) وأدلاي ستيفنسون، Adlai Stevenson (ديمقراطي). في حملات وقفة الصافرة الانتخابية هذه، كان المرشحون يقومون بالسفر إلى مختلف الأماكن في البلاد بواسطة القطار، وكانوا يقومون بالتوقف عند كل محطة لإلقاء كلمة أمام تجمهر للمواطنين. كان يطلق على ذلك "وقفة الصافرة"، "Whistle Stop"، حيث يقوم القطار بإطلاق الصفير فيما يقوم الناس بالتجمهر. عندما جاء أدلاي ستيفنسون، لا اعتقد أن أكثر من ٣٠٠ شخص توافدوا في ذلك اليوم إلى المحطة، لسماع خطابه. بينما، أغلقت المدينة بأكملها بما في ذلك الجامعة، عندما جاء ايزنهاور.

عندما ذهب رئيس الجامعة لمناشدة الهيئة التشريعية للولاية بالحصول على المزيد من الأموال، ذهبنا لدعمه. كانت الهيئة التشريعية ضد إنفاق المال على "الأجانب" والشيوعيين. بالنسبة إليهم، كان يهود نيويورك أجانب، ناهيك عن الطلبة الصينيين والهنود وقد شهدنا، زوجتي وأنا صدام الثقافة.

كانت مدرسة الموسيقى في الجامعة جيدة جدا، واحة في الصحراء. كان للمدرسة فرقة اوركسترا، وكانت فرقة ممتازة، لكن كان لديهم مشكلة في الحصول على جمهور لها. فقط، الأجانب، بما في ذلك طلاب من نيويورك وشيكاغو، الذين كانوا يحضرون هذه الحفلات. كنا نعيش في شقة مجزأة، وعندما كنا نستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، كان جارنا يشتكي بأننا نستمع إلى موسيقى ومقطوعات غريبة، في الوقت الذي كان يستمع فيه إلى موسيقى الهيلبيلي، Hillbilly music. كنا في شجار كبير، حيث لمّح خلال هذا الشجار بأن علي العودة إلى حيث جئت.

كانت جامعة إلينوي ممتازة في العديد من المجالات، كانت تحوي واحدة من أفضل المكتبات في الولايات المتحدة، كما احتوت على مدرسة قوية للموسيقى، ومدرسة جيدة للزراعة وكلية ممتازة للعلوم. ألزمت ولاية الينوي الجامعة بقبول كل طالب يتخرج من مدارس الينوي الثانوية. كان هناك على الأرجح، ما يقارب ستون ألف طالب في شامبيون–اوربانا، Champagne-Urbana، الكثير منهم لم يكونوا مهتمين كثيرا في التعلم. إن عدم اكتراث هؤلاء كان يصب في صالحي: كنت قادرا على جذب اهتمام الأساتذة بسبب اهتمامي ورغبتي في التعلم. لقد رحّبوا بي في مكاتبهم، وابدوا اهتمامهم بي: من أين أتيت؟ وما هو رأيك بالصراع العربي الإسرائيلي؟

استطاعت الجامعة تدريجيا التخلص من الطلبة الذين لم يتمكنوا من مواكبة التقدم، عن طريق إرسالهم إلى مدارس مهنية أو بعض النشاطات الأخرى، حيث لم يكن لدى الكثيرين منهم خلفية ثقافية. في الصف الجامعي الخاص بي لمادة علم الاجتماع، على سبيل المثال، تحدثنا عن كارل ماركس، رفع احد التلاميذ يده، وكنت على يقين من انه سيقوم بتوجيه سؤال، لكنه كان يريد السؤال عن: "كيف تتهجى –كتابيا– كلمة ماركس، ومن هو هذا الشخص؟". لم يكن مساعد التدريس يعلم ما إذا كان هذا الطالب يسخر منه أم لا. بحيث توجب على مساعد التدريس المسكين تفسير الإيديولوجية الشيوعية، وما تتضمنه من الحاد، للتلاميذ الصغار الذين نشأوا في منطقة "حزام الكتاب المقدس".

كان هناك اختلاف واضح، فكريا وتربويا، من حيث النظرة والمعرفة، وهذا أعطاني وجهة نظر عن مدى التعقيد الذي تشهده أمريكا. كل طالب أجنبي سيقول لك الأمريكيون يفعلون هذا والأمريكيون يفعلون ذلك، كما لو كانت أمريكا واحدة. تعلمت أن هناك العديد من الأنماط المختلفة للفئات في أمريكا، على الرغم من أن كل صورة نمطية قد تحتوي على قليل من الحقائق، بالطبع لا يمكن عمل أي تعميم. كانت هذه المعرفة ذات نفع عظيم عندما أصبحت ناشطا في مجال السياسة الأمريكية. ليست أمريكا صوتا، وفكرا، وسلوكا اجتماعيا واحدا. هذا الصدام ظهر بين أولئك الذين صنفوا على أنهم ليبراليون، متعلمون، وسكان المناطق الحضرية، وأولئك الذين هم من المجتمعات الريفية، من منطقة "حزام الكتاب المقدس". يقع جزء كبير من أمريكا الحقيقية في ما يطلق عليه "ميد وست"، Midwest، – الإقليم الأوسط الشمالي الشرقي– معقل أمريكا، وبالتالي ليس بالإمكان أن يتم تجاهل المناطق الريفية. لقد فهمت مدى قوة الشعب في هذه المناطق من "الميد وست"، معقل أمريكا، على الصعيدين السياسي والشخصي.

كفلسطيني، وجدت صعوبة في العيش في منطقة "حزام الكتاب المقدس" من أن أعيش في شيكاغو. في شيكاغو، رأيت التعصب الحضري الموجه ضد الأجانب والسود، أما في منطقة "حزام الكتاب المقدس"، واجهت صعوبات بسبب المسيحيين الأصوليين. كان من الصعب بالنسبة لي إقناع هؤلاء الناس بأنني فلسطينيا، فلسطيني كان يعيش في فلسطين. في بعض الأحيان، كان هناك خلط لفلسطين مع باكستان أو مع بلدة فلسطين، الواقعة في ولاية اوهايو. تشكل فلسطين لهؤلاء الناس مفهوم الماضي، مفهوم مرتبط بالإنجيل، ليس باستطاعتهم تصور أن الفلسطينيين يعيشون فعلا في بلد اسمه فلسطين. كان يتم ربط فلسطين مع إسرائيل الماضي، لكن ليس مع إسرائيل الحديثة أو الحالية. معرفة الربط المتكون في عقول الناس بين إسرائيل القديمة وفلسطين القديمة كان مفيدا لفهم هؤلاء الناس. كان هناك جهل عام حول الفلسطينيين ونضالهم وعن ما فعلته إسرائيل للفلسطينيين. كان هناك ارتباط بين اليهودية والمسيحية، والذي هو أكثر من ذلك بكثير من الناحية الجوهرية من العلاقة بين المسيحية والإسلام. هذه العلاقة ترجمت إلى قدر هائل من الدعم السياسي لإسرائيل من قبل الغرب. يعتقد العديد من الأساتذة، خاصة الكاثوليك، بأنه كان صراع يهودي، صراع ديني. لذلك، نظروا إلى اليهود بشيء من الاستياء، لكن المسيحيين الأصوليين قاموا بالاتصال والارتباط مع إسرائيل ولم يفعلوا ذلك إطلاقا مع الفلسطينيين.

يمكنني القول أن الناس في ذلك الوقت، في سنوات الخمسينيات، وذاكرتي واضحة بهذا الخصوص، لم يكونوا مهتمين كثيرا بخصوص الهولوكست، والذي كانت إسرائيل، وعلى مدى السنوات القليلة الماضية، قد استخدمته واستغلته لكسب الدعم السياسي. قام النازيون بعمل شيء بغيض، لكن الهولوكست لم يكن بارزا في المناقشات كمبرر لدولة إسرائيل، كما هو الحال الآن. اليوم، لا يمكن الحديث عن الصراع العربي الإسرائيلي دون الإشارة، ولو بالقليل، إلى الهولوكست، فيما لم يكن هذا صحيحا في الخمسينيات: الأساتذة والطلبة كانوا أكثر استعدادا للاستماع إلي، ولم يقوموا برفضي أو تبرير دعمهم لإسرائيل على أساس الهولوكست.

تعلمت الكثير من خلال الإقامة في شيكاغو وفي منطقة "الميد وست". رأيت البنية أو التركيبة الاجتماعية للمجتمع، والتحيز العنصري، والتعصب العرقي والفرق الهائل في التحصيل العلمي والثقافي الذي يميز أمريكا. لقد ساعدني كل هذا، سياسيا، في وقت لاحق، عندما أصبحت أكثر نشاطا في الترويج للقضية الفلسطينية والدفاع عن العرب.

كانت اكبر مجموعة من الطلبة العرب في الجامعة من المصريين. اعتادت الحكومات المصرية والعراقية ابتعاث الطلبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بمنح دراسية كاملة. اكتسبت أول تجربة لي في منظمة من خلال منظمة الطلبة العرب. تعاملت مع جنسيات مختلفة من العرب: العراقيين والمصريين والسوريين وقليل من الفلسطينيين.

وقف عدد قليل من الأساتذة على تجربتي الجامعية. البروفيسور جورج مانيير، George Manner، نمساوي، والذي كان يدرس العلاقات الدولية، انتقل إلى الولايات المتحدة بعد "الآنشلوس"، Anschluss، أو ما يعرف بضم النمسا إلى ألمانيا الكبرى من قبل ألمانيا النازية في العام ١٩٣٨. كان يتحدث بلهجة ألمانية بسيطة، وكان مدرسا لامعا وعالما مرموقا. كان لديه أسلوب تدريس منهجي وجاف؛ لم يكن استعراضي، لكنني تعلمت منه الكثير. درّس علم القانون والعلاقات الدولية، وبسبب ميوله المنهجي، كان عادلا وموضوعيا وكنت فاهما لطروحاته، لذلك، حصلت دوما على علامة "أ". لكن، كان لدي شعور، وكذلك شعر زملائي الطلبة، بأنه لم يكن يعامَل بمساواة داخل القسم بسبب أسلوبه. اذكر أنني قرأت مقالاته، وأشار بمواد أخرى لي لقراءتها. كنت مهتما بموضوعه وأظهرت له اهتمامي، كان يتوقع بأن أكون في المستوى.

بروفيسور جوبست، Jobst، درّس القانون الدولي، كان إنسانا بليغا وواضحا جدا ومثيرا للاهتمام. اذكر انه كان يسافر بعيدا لمدة شهر في فصل الشتاء وكان هناك من يعوضه ويحل محله. كان هذا، بحد ذاته، مثارا للتساؤل، على ما يبدو، كان يذهب إلى فلوريدا لمدة شهر خلال الشتاء. كانت الشائعات تقول انه كان غنيا جدا، وللسفر إلى فلوريدا وإنفاق المال لمدة شهر، يتوجب عليه أن يكون غنيا. كان مدرسا ممتازا. تعلمت منه الكثير في مجال القانون الدولي.

كان هناك جاك بالباسون، Jack Palpason، شاب كان قد حصل على الدكتوراه من جامعة برنستون، Princeton، ومضى ليصبح رئيسا لجامعة كاليفورنيا، وقد درّس القانون الدستوري في ايلينوي. وقد لوحظت كوني كنت طالبا جيدا، ليس لأنني كنت أقوم بالإطراء على أساتذتي، فقد كان الإطراء من خلال القيام بعمل جيد.

درّس فرانسيس ويلسون، Frances Wilson، النظرية السياسية، وتاريخ النظرية السياسية، بواسطة كتاب جورج هولاند سابين، Sabin. كما أخذت مساقا آخر مع ويلسون حول النظرية السياسية الأمريكية. كان ويلسون محافظا وكاثوليكيا، واعتقد انه كان متعلما ومثقفا جدا، أثار لدي الإعجاب باقتباساته واستخداماته للمستندات باعتماده على ذاكرته. قلت لنفسي، أنني أريد أن أكون هكذا، عندما أكبر، وعندما أصبحت أستاذا، تعلمت هذه البراعة.

أخذت محاضرات مع اوستان راني، Ostan Ranny، الذي أصبح رئيس جمعية العلوم السياسية الأمريكية –APSA، كان مدرسا ممتازا. وأخذت اثنين من مساقات علم الاجتماع مع دونالد آلكاف، Donald Alcaff: علم الاجتماع وعلم اجتماع النزاعات. لقد كان رائدا في تخصص حل النزاعات، التي هي الآن في رواج، وقد عملت معه حتى قبل أن يكون هناك اسم لهذا الحقل.

تميزت مسيرتي التعليمية باهتمام تاريخي طويل في الولايات المتحدة. في تخصصي الأساسي في مجال العلوم السياسية، أخذت محاضرات ومساقات في السياسة الأمريكية، والسياسة الحكومية، والقانون الدستوري والمحكمة العليا، والتاريخ الأمريكي والدبلوماسية الأمريكية. أخذت ما لا يقل عن ثلاثة فصول دراسية حول الدبلوماسية الأمريكية مع احد الأساتذة والذي أصبح بارزا جدا، ريتشارد م. كارراند، Richard M. Karrand. لم أكن اعرف انه كان يهوديا حينما كنت طالبا لديه، حيث كان ريتشارد م. كارراند يهودياً شرقياً، وناقداً للسياسة الأمريكية.

كان ريتشارد م. كارراند، احد ما يطلق عليهم اليوم بمؤرخي "المراجعة" أو "التنقيحية" – revisionist. كان هناك اثنين من الطلبة في صفه، كان مهتما بهما، فتاة يهودية وأنا. كنا نجلس بجانب بعضنا بعضا وكنا نناقش ونتجادل معه، وقد قام بترشيحنا لحضور مؤتمر طلابي، كان يشمل كامل منطقة "الميد وست".

كان هذا المؤتمر قد عقد في ليبرال آرت كوليدج، Libral Art College، برينسيبيا كوليدج، Principia College، وكانت كلية أصولية تحظر التدخين والشرب والاختلاط بين الجنسين، وكان طلاب هذه الكلية مثل المسلمين، وكانت مدينة أداسي، **Adasy**، تشبه إلى حد ما هذه الكلية. عندما كان أصدقائي المسلمين يرغبون بالزيارة، كنت أقول لهم بان هذا هو مكان للمسلمين بسبب عدم السماح بوجود الكحول. هناك تقاليد هامة في الولايات المتحدة التي تسمى عقوبات دينية، وهذا كان احدها. امرأة أخرى حضرت المؤتمر معنا، وكانت متخصصة في أمريكا اللاتينية، رشحت من طرف ريتشارد سكوت، Richard Scott، الذي خدم كمرافق وكوصي في هذا المؤتمر، ولكوننا (سكوت وأنا) من المشاركين الرجال، اشتركنا في غرفة واحدة. قال لي، بأن لا أقوم بأي إزعاج، حينما يكون نائما، لأن ذلك سيوقظه. كان سكوت قد تدرب في المخابرات العسكرية، حيث تعوَد على أن يكون مستعدا وجاهزا عند اقل حركة. موضحا انه إذا ما استيقظت في اللحظة التي يستيقظ فيها، فانه سيقوم على خنقي، بحيث أصبح هذا رد فعل غريزي. تحدثنا خلال الليل عن وظائف ضباط المخابرات، كان شخصا رائعا.

كان هذا هو المؤتمر الأول الذي أحضره، وكان ذلك في العام ١٩٥٣. أحد المتحدثين في المؤتمر، كان فريد حنانيا، أستاذ من الجامعة الأمريكية في بيروت. وكانت مداخلته عن "السياسة الأمريكية والشرق الأوسط". يدرّس فريد حنانيا مساقين في الجامعة الأمريكية: "نشأة روسيا" و شيء له علاقة بأوروبا. لم يكن خبيرا في العالم العربي لكنه قدم عرضا ممتازا في هذا المؤتمر. وكنت سئلت عنه في وقت لاحق من قبل طلابه، قال لي هؤلاء الطلبة بان حنانيا كان يعتبر يميني. كانت هناك شجارات عديدة وكبيرة في المؤتمر. أتذكر طالب ياباني كان الأبرز في المجموعة، كان أكبرهم سنا وأكثر نضجا من بقية المشاركين. هذا الشاب الياباني جاء ليتدخل مدافعا عن العرب والفلسطينيين، لكن تمت السيطرة على الوضع والفصل بيننا.

تجربة منطقة "حزام الكتاب المقدس"

شكّلت جامعة الينوي مكانا رائعا بالنسبة لي، إذ كانت تحتوي على مكتبة ممتازة وكان لدي أساتذة ممتازين حظيت باهتمام من قبلهم، وكنت مهتما بهم كأساتذة في المقابل. لذلك، وبالرغم من فقر بيئة منطقة "الحزام الإنجيلي" والتحيز الراسخ الجذور، إلا أن جامعة الينوي كانت بمثابة الواحة في تلك المنطقة. بعد هذه التجربة، أصبح من السهل جدا بالنسبة لي، التوجه نحو المنحى العلمي. عند النظر إلى الماضي المتعلق بتجربتي وحياتي، أتذكر تلك الجامعة باعتزاز كبير، بهذا المعنى، أنا ممتن جدا لها.

هذا هو المكان حيث تعلمت، لا أريد أن أتحدث عن الهستيريا الجماعية، لكن سأتحدث عن كلا الصورتين النمطية والهستيريا. عندما يقوم شخص، على سبيل المثال، بتدنيس كنيس في المدينة، يتم تغطية هذا الحادث بشكل واسع في اللحظة ذاتها، وينصب اهتمام المجتمع كله بتركيز نحو العرب. كانوا يبحثون عن كبش فداء، وقد استخدم العرب لهذا الغرض. في هذا اليوم، دعا عميد شؤون الطلبة عدداً من الطلبة العرب وطلب مساعدتهم، ليقرر هؤلاء الطلبة، بعد ذلك، لقاء العميد والإدلاء ببيان حول الكنيس. لم يكن هؤلاء الطلبة مسيَسين: كانوا مهندسين، ولم يكن لديهم فهم للبيئة السياسية. حاولت أن اشرح لهؤلاء الطلبة، لماذا يعتقد الناس بأننا المسؤولون عن هذا الحادث. إذا كان الحادث ضد اليهود، هل يعني أن وراءه العرب. كانوا صادقين في جهلهم، لكنني، رغم ذلك، انتقدتهم، وكان هذا أول تمرد لي. لم أكن أريد أن اقبل الصورة النمطية لمعاد للسامية. نعم، لدينا صراع سياسي، لكن ليس لدينا علاقة بالأنشطة المعادية للسامية. نقلت هذا إلى العميد، الذي أصغى إلى كلامي وقَبِل به، لكنه لا يزال يريد منا أن نوقع على بيان ينص على أننا بريئون من هذه الجريمة، والتي أعتقد أنها كانت عملا سيئا.

سياسات الاحتجاج

بعد هذا الحادث، أصبحنا مسيّسين وشاركنا في العديد من المظاهرات، كان هذا في نهاية الحرب الكورية وبداية حرب فيتنام. تظاهرنا دعما للفيتناميين وضد التدخل الأمريكي الذي جاء لإنقاذ ودعم الفرنسيين. وخرجنا في تظاهرات ضد الفرنسيين في الجزائر. بدأت أصبح أكثر نشاطا في

سياسات الاحتجاج في هذا الوقت.

كانت هناك مبادئ هامة أحاول الدفاع عنها: إنهاء الحرب الكورية، دعم الفيتناميين، دعم الحقوق المدنية، معارضة "المكارثية"، McCarthyism، [نسبة إلى جوزيف مكارثي]، ومساندة اليسار والشيوعية. أتذكر عندما قمنا بعقد اجتماع وهمي يصور الجمعية العامة للأمم المتحدة، وجلس عدد من الطلبة العرب في المقاعد المغربية والتونسية للاحتجاج على عدم استقلالهم، في تلك المظاهرات، اكتشفت التحالفات مع بقية العالم الثالث. إذ قام الطلبة الهنود بدعمنا، كما فعل الطلبة الصينيون وطلبة من أمريكا اللاتينية، كانت تجربة سياسية مهمة. واكتشفت كذلك كيف يمكن للرجعية الأمريكية أن تكون.

الولايات المتحدة ضد كل الثورات، على الرغم من أنها ولدت في خضم الثورة، إنه تناقض رائع في الثقافة الأمريكية. بعد الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة تتصرف في ما اعتبره بطريقة متهورة. كانوا يدّعون قيادة ما نطلق عليه "العالم الحر". هناك حدثان مهمان ما زالا يلازمانني إلى اليوم؛ أولهما يكمن في تدخل الولايات المتحدة في الحرب الكورية، كنت حينها متحيزا إلى جانب كوريا الشمالية في ذلك الوقت، ليس لأنني مؤيدا لكوريا الشمالية، ولكن لأنني كنت داعما لتوحيد كوريا. اعتقدت أن وحدة شطري كوريا كان هدفا مهما يحدده الشعب الكوري. كنت اعتقد أن تدخل الولايات المتحدة، لصالح الشطر الجنوبي لمنع التوحيد، كان يتعارض مع المبادئ الأمريكية، المبادئ التي حميت بواسطة حرب أهلية.

لقد تم الحفاظ على وحدة الشعب الأمريكي، والتي كانت مهددة بانفصال الجنوب، بالقوة. اكره الجنوب على أن يبقى جزءا من الولايات المتحدة. ووضع الأمريكيون قيمة عالية على وحدة بلادهم، ولذلك، أن تعتمد سياسة مخالفة لهذا المبدأ، على أساس بعض الفكر السياسي، كان من قبيل النفاق.

لقد دعمتُ التدخل الصيني عندما هزمت كوريا الشمالية من قبل القوات الأمريكية. علاقتي مع شعب الولايات المتحدة المضطهد، السود والشيوعيين، جعلني أكثر حساسية لفكرة أن سلوك كوريا الشمالية مع كوريا الجنوبية قد يكون مبررا.

لقد دعمتُ سياسة عدم التدخل في جميع مناطق النزاع خارج الولايات المتحدة، كما قمت بتوقيع

المئات من العرائض لحظر القنبلة الذرية، وقد دعمتُ ايثل وجوليوس روزينبيرغ، Rosenbergs، لحظة محاكمتهما بتهمة تزويد الاتحاد السوفيتي بالأسرار. يجب أن تكون القنبلة الذرية في حوزة الجميع، وليس فقط حكرا على الولايات المتحدة، كنت حازما بشأن هذه المواقف ودعمها إلى يومنا هذا.

أما الحدث الثاني الهام، فكان تدخل الولايات المتحدة في الهند الصينية لنجدة فرنسا. وكان الفرنسيون قد حوصروا في "ديان بيان فو" في نفس الوقت الذي بدأت فيه الثورة الجزائرية، في العام ١٩٥٤. كنت ضد فرنسا، وكنت أؤمن بأن فرنسا ستطرد حتما من هذه البلدان. بدأت أتحدث وبطريقة علانية ضد هذا الأمر عندما بدأت الولايات المتحدة تفكر في نجدة القوات الفرنسية. قمت بإلقاء الخطب في المدن المحافظة جدا: شامبين، والينوي. كان الناس ينظرون إلي بشيء من الريبة، وأرادوا معرفة لماذا كنت، أنا الأجنبي، أتحدث ضد الولايات المتحدة. كنت أتناقش مع هؤلاء الناس، موضحا انه من المفترض على أمريكا مناهضة الاستعمار، إلا أن هذا البلد نفسه يقوم بدعم الأنظمة الاستعمارية في تونس والجزائر. في العادة لم يقبل هؤلاء الناس بحججي ومناقشاتي لأن الأمريكيين، بشكل عام، يؤيدون حكومتهم.

كانت مسألة الوحدة، مسألةً مهمةً بالنسبة لي، لأنني كنت أريد أن تطبق في العالم العربي. كنت اعرف انه إذا ما نجحت الولايات المتحدة في إحباط وحدة شبه الجزيرة الكورية وفيتنام، فإنها سوف تتدخل أيضا في الشرق الأوسط. في ذلك الوقت، لم يكن للنفط تلك الأهمية من الناحية السياسة كما هو عليه الآن. كنت اعتقد، انه إذا ما تمكن العرب من تحقيق استقلالهم، يمكننا إحراز بعض مستويات من الوحدة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: "كيف يمكنك تحقيق الوحدة؟" في الوقت الذي قدّمت فيه كل من العراق ومصر نفسيهما كقوى مهيمنة بديلة لقيادة العالم العربي.

كنت في مقارباتي أكثر عالميا منه إقليميا، إذ لم أكن حصريّ التركيز على القومية العربية. كنت اعتقد بضرورة الحاجة إلى أن يكون هناك تحولا في العالم العربي وأن هذا التحول من شأنه أن يجلب قيادة جديدة. كنت دوما إلى جانب الحركات اليسارية سواء كانوا شيوعيين أو قوميين، إذ شكّل "اليسار" بالنسبة لي أي شيء يتعارض مع الأنظمة الإقطاعية، وتلك المتعاونة مع القوى الاستعمارية. كانت الأنظمة في الوطن العربي، الملك فاروق في مصر والملك فيصل في العراق،

أنظمة تابعة، تدين بالفضل للامبريالية. لقد دعمتُ محمد مصدق في إيران، كان رائدا في النضال ضد الامبريالية البريطانية.

شهدت سنوات الخمسينيات في الولايات المتحدة بداية تشكيل هوية للعالم الثالث. التقيت الهنود وقمت بدعم جهودهم كما قاموا بدعمي، كنت منجذبا لشخصية كل من نهرو وغاندي، ولكن نهرو على وجه الخصوص، الذي كان ذو تأثير مغناطيسي علي. التقيت مع الصينيين، والأفارقة، والإيرانيين للحديث عن استراتيجيات لتحرير الناس من الاستعمار. رأينا الدعم الأمريكي للاستعمار كقوة للبيض، لأنه، باستثناء اليابان، فإن كل القوى العالمية كانت قوى الجنس الأبيض. رأينا أيضا الامبريالية كمزيج من العداء تجاه كل من الإسلام والشعوب الملونة أو السوداء.

عندما كنا ننظر إلى أنفسنا، بالمفهوم السياسي، خلال هذه الحقبة، لم نكن سوى عربا، ولم تكن تتم مناقشة فلسطين ككيان مستقل؛ كانت مهمتنا تتمثل في تحرير العالم العربي ككل. كانت تأسست منظمة الطلبة العرب في العام ١٩٥٤، وكانت أول جمعية وطنية للطلبة العرب. كان البعثيون والناصريون، الداعمون للجزائريين والتونسيين والمغاربة واليمنيين، هم المهيمنون على المنظمة. اعتقد انه كانت هناك عداوة مشتركة تجاه إسرائيل، وكمنتج ثانوي من الكفاح ضد الامبريالية، كان لا بد لفلسطين أن تتحرر. وكفلسطيني، كانت أسهل الطرق لتصنيفي، هي بأن أصنف كعربي، إذ شعرت براحة كبيرة مع هذا التصنيف. كان الأثر السلبي لهذا التصنيف هو الصراع العربي الإسرائيلي؛ بحيث كانت إسرائيل قادرة على تصوير نفسها على أنها تقاتل هذا العالم العربي المتحد خياليا، فيما كانت القضية الفلسطينية غارقة، إذ لم يفكر أحد في الساحة العامة في الولايات المتحدة الأمريكية أن للفلسطينيين علاقة بهذه المشاكل. كان ينظر إلى مصر على أنها متلهفة لتدمير إسرائيل، وكان يعتقد أن الأردن بلد عدواني وعلى أن سوريا تواقة لاحتلال الأراضي الإسرائيلية. لم يكن هناك تحليل للمشكلة الفلسطينية، حتى سنوات السبعينيات التي شهدت ظهورا لمشكلة فلسطينية منفصلة.

بعد جامعة الينوي، انتقلت مباشرة إلى جامعة برنستون - حيث المكان الممل- بعد أن كنت قد حصلت على منحة الزمالة، لكنها لم تكن كافية للعيش بشكل مريح. عملت زوجتي في فيلادلفيا للمساعدة في دعم ابنتينا مريم وليلى. كان الصيف حارا جدا في برنستون، لكن لم تكن لدينا القدرة

على شراء مكيف هواء . أتذكر وقتها ، أنني قمت بالتقدم بطلب للحصول على منحة صغيرة لأخذ دورة لتعلم اللغة الفارسية ، بحيث كنت قادرا على تركيب مكيف هواء باستخدام تلك الأموال .

كنت في جامعة برنستون عندما وقعت حرب ١٩٥٦ بين مصر من جهة ، وإسرائيل وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . لقد صدمت من السلوك المتعجرف لوزير الخارجية الأمريكي ، جون فوستر دالاس ، Dulles ، الذي صرح علانية بان مصر كانت كارثة اقتصادية ، لا تستحق المساعدات ، واستخدام ذلك كذريعة لسحب العرض لبناء سد أسوان العالي . وكان السبب الحقيقي صفقة الأسلحة التي عقدتها مصر مع الاتحاد السوفيتي ، وكان عبد الناصر قد قام بدعم حركات التحرر في جميع أنحاء العالم الثالث ، ليصبح بعدها لعنة للامبريالية والولايات المتحدة الأمريكية .

الفترة الذهبية

كنت محظوظا بما فيه الكفاية ، بالحصول على وظيفة باحث في منظمة اليونسكو ، بعد الوقت الذي قضيته في جامعة برنستون ، خاصة أنه لم تكن لدي أية خبرة على الإطلاق . كان أصحاب الطلبات الأخرى ، بدون شك ، أكثر تأهيلا مما كنت عليه ، وكان المنافسون لي على هذا المنصب ، أستاذ من جامعة سورية ، وآخر من جامعة عين شمس في مصر . طلبت لجنة التوظيف من الزميل الدكتور عبد العزيز القوصي ، النظر في السير الذاتية الثلاث وإعطاء الملاحظات للجنة ، بحيث أكد للجنة بأنني كنت في الواقع الأقل تأهيلا من بين المرشحين الثلاث ، لكن ، ورغم هذا كنت الشخص الذي أوصى بتوظيفه . وقع اختياره علي كوني كنت غير مؤهلا ، لم يكن لدي أي أجندة ولا حتى خبرة ، وبالتالي من المفترض أن أكون أكثر مرونة . لقد كان على حق ، وبدأت عملي في مصر باستخدام الإطار الذي يقدمه المركز .

كنت أطلق على فترة إقامتي في مصر بـ "الفترة الذهبية" ، بحيث كانت اللحظة من حياتي التي أصبحت فيها مهنيا ومحترفا . ما زلت اشعر بالحنين لتلك الفترة ، وكلما تتاح لي الفرصة ، أعود لزيارة المركز الذي عملت فيه : إنه لا يزال قائماً ، وان كانت طريقة العمل داخله قد تغيرت منذ أن كنت هناك . كان المركز الذي عملت فيه يقوم بإحضار موظفي الخدمة المدنية ، عمليا من جميع الدول العربية ، لتدريبهم على القيام بالخدمات . وشمل ذلك الفلسطينيين ، الذين كانوا آنذاك إما موظفين

أردنيين أو موظفي وكالة الاونروا . هذا جعلنا على اتصال مع مجموعة مهمة جدا من الشباب ، الذين كانت أعمار معظمهم تتراوح بين أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ، وكانوا من موظفي الخدمات المدنية في وزارات الصحة والتعليم والزراعة وتنمية المجتمع . كان ينظر إلى تنمية المجتمع في ذلك الوقت على أنها محاولة لتطوير الريف ؛ لهذا ، جاء هؤلاء المتدربين لتلقي تدريب متعدد التخصصات ، مرتبط في مجال العلوم الاجتماعية وكذلك بمجال محو الأمية .

كانت مهمتي الخاصة في المركز تدريب الطلبة من تخصص العلوم الاجتماعية على منهجية البحث ، بحيث كان الهدف الرئيسي كيفية تحري مواقف الناس تجاه التغيير ، من خلال الدراسات المسحية وغيرها من أساليب البحث .

في العام ١٩٦٠ ، كان يعتقد ، وعلى نطاق واسع في العالم الغربي ، أن عبد الناصر كان ديكتاتوريا يقوم بتزوير نتائج الانتخابات والتلاعب بها . وكان يعتقد كذلك ، أن القرويون شعب محافظ ، ومجتمع مناهض للتغيير . قررنا ، طلابي وأنا ، فحص هذه النظرية باستخدام المقابلات للتنبؤ بنتائج الانتخابات في المناطق الريفية . قمنا بإرسال عينة من ٢٠٠ نموذج إلى ست قرى ، وطلبنا من القرويين وضع المرشحين من واحد إلى عشرة في الترتيب الذي يتوقعون على أساسه ، انتخاب هؤلاء . كان الافتراض بأن المعينين من قبل الحكومة سوف ينجحون في الانتخابات ، لكن نتائج الدراسة التي حصلنا عليها ، دحضت هذا الافتراض . من العشرة مرشحين ، تسعة ، استندت عليهم الدراسة بشكل سليم ، بحيث أن أيا منهم لم يكن معين من الحكومة . أثبت هذا أمرين : الأول ، كان للقرويين بصيرة ورأي جيد ، ثانيا ، أنهم كانوا يتمتعون بفطنة سياسية . كان هناك تحامل على القرويين ؛ بأنهم شعب جاهل ، "فلاح" . قد تكون هذه القوالب النمطية صحيحة في الماضي ، لكن بالتأكيد ، ليس عندما قمت باختبارهم .

قمت بعمل دراستين إضافيتين ، نشرت واحدة منهما ، والتي كانت حول تداول المعلومات ، كيف يتسنى للفرد الحصول على المعرفة في القرية؟ كيف له / لها سماع ذلك؟ للحصول على هذه المعلومات ، كان يتوجب علي قراءة الصحف والاستماع إلى الراديو وأن اذهب في جميع أنحاء القرية لعرض الأخبار على الناس . كنت سألت أهالي القرية : "ماذا سمعتم مؤخرا ومن المسؤول عن ذلك؟" حول قصة معينة ، كانوا يعرفون انه تم قتل زعيم أفريقي ، باسم باتريس لومومبا ،

Lumumba . كانت هذه عبارة عن جزأين من الخبر ، والجزء الثالث من الخبر ، بأنهم يشاركون الرأي القائل بأن وكالة الاستخبارات الأمريكية ، السي آي آيه ، هي التي قتلت هذا الزعيم . من المدهش ، انه ، بعد سنوات عديدة ، وبعد تمرير قانون حرية المعلومات في الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت الجزئية الثالثة من الخبر تتجه نحو الصواب .

للدراسة الثانية ، كنت قد استخدمت وفاة محمد الخامس ، ملك المغرب ، وتوجهت لأهل القرية بثلاثة أسئلة : من هو؟ ماذا تعرف عنه؟ وما هي ظروف وفاته؟ كانت هناك درجة عالية من الوعي حول من كان الملك محمد الخامس ، إذ تم تعريفه بالقومي ، بسبب نفي الفرنسيين له . رُحب به في مصر وبمنحه حق اللجوء . وكانوا قد علموا بخبر وفاته في نفس الليلة . وكانت قدرة وسائل الإعلام على نقل هذا الخبر بهذه الطريقة في الوقت المحدد يعتبر انجازا كبيرا لعبد الناصر ، الذي كان قادرا على استخدام هذا ، لحشد الشعب وتسييس السكان .

كان العالم العربي في ذلك الوقت يراهن على التغيير ، ليصبح حداثيا ، ولم تكن هناك مواقف دفاعية ضد التحديث . كان الجهد الذي قاده عبد الناصر واحدا من محاولات تحديث العالم العربي ، إذ كانت محاولة لجعله أكثر عقلانية ، للتصنيع ، ولفتح المدارس ، وتوفير الرعاية الصحية ، ولجعلها ممكنة للطبقات الدنيا كي تستفيد منها كذلك . بالأساس ، كان جهدا لتوفير كل هذه الأمور التي لم تعمل الأنظمة القديمة ، الخاضعة للاستعمار ، على تزويد السكان بها . أما الأنظمة الجديدة في المنطقة ، والتي تجسدت بعبد الناصر ، فقد التزمت جميعها بالتغلب على "التخلف" ، الذي أنتجته الأنظمة القديمة . التنمية المجتمعية ، كانت بمثابة الحل أو الجواب الذي اخترع من قبل الأمم المتحدة ، وتم تحقيق ذلك ، من خلال العديد من الأشياء التي من بينها مركزنا ، الذي كان ثمرة تعاون بين منظمة الصحة العالمية ومنظمة العمل الدولية ، تحت قيادة اليونسكو .

كانت مهمة المركز تقوم على تزويد هؤلاء المتدربين من الدول العربية بالمعرفة التي من شأنها أن تجعلهم مدركين للعوامل الكامنة في المجتمع . كنا نهدف أيضا إلى تعليم المتدربين المهارات الضرورية اللازمة لنقل الأفكار إلى الناس ، وان تكون لديهم المهارات التي من خلالها يستطيعون تقييم ما يفعلون . كان الهدف الرئيسي يقوم على تطوير وتحويل المناطق الريفية في العالم العربي ، لأنه كان يفترض أن هذه المناطق الريفية هي التي كانت "متخلفة" .

كان المركز يضم فريق عمل ممتاز ضمن الطاقم ، الذي كان متعدد التخصصات من علماء اجتماع ، وأطباء ، ومربين ، ومتخصصين في الإنتاج السمعي البصري ، ومن الفنانين . كانت شعبة الفن مهمة لأن جزءً كبيراً من السكان أميين ، وكان إيصال الأفكار إليهم يتطلب منا استخدام الرسوم التوضيحية . قمنا من خلال عملنا بالمركز بإعداد النشرات المليئة بالرسوم التوضيحية وأشياء من هذا القبيل ، بفضل الزملاء الذين كانوا من الأشخاص المرموقين في الوطن العربي ، والذين أصبحوا لاحقا ، أكثر تفوقا .

كل العاملين في هذا المركز قاموا بوضع وتنمية أفكار وحدوية عربية . كانت لدينا نظرة شمولية للعالم العربي ، على افتراض أننا شعب واحد وعالم واحد . كنا نشعر أن مهمتنا تتمثل في المساهمة في عملية التوحيد . وكانت مساهمتنا ، إلى حد ما ، من خلال تدريبنا لما يقارب ال٢٠٠ شخص سنويا ، وجمعهم معا . وبالتالي ، أدى هذا إلى فهم معين بين الليبيين والمغاربة والمصريين واليمنيين ، . . . الخ ، وكان لدينا جميعا ، الدافع لفهم بعضنا البعض والرغبة في معرفة ما يعانيه المجتمع في كل مكان . وبخيبة أمل ، اكتشفنا مدى التخلف الذي كنا نعيشه جميعا ، بغض النظر عما إذا كنا تحت حكم قوة استعمارية فرنسية ، أو قوة استعمارية بريطانية أو سلطة إسلامية .

أعطانا وجود عبد الناصر في السلطة في ذلك الوقت دفعة هائلة ، كما منحنا الأمل الذي كنا ، في الواقع ، نشارك به في عملية تحويل العالم العربي . كنا ننظر لأنفسنا بأننا عرب في المقام الأول ، فيما تأتي هويتنا الوطنية في المرتبة الثانية . سعينا لتعزيز المؤسسات في العالم العربي ، للتقدم تربويا ، ولتحسين الاقتصاد وتعزيز النظام الاجتماعي . قدّم لنا عبد الناصر هذه الرؤية للعالم العربي ، كما منحنا شعوراً قوياً بأننا نشارك في صنع مستقبل ، كان هذا بمثابة قوة دفع في غاية الأهمية بالنسبة لي على المستوى الشخصي والفكري . وبانتهاء عملي في المركز ، نشر أول كتاب لي عن موضوع البحث ؛ البحث الاجتماعي ، الذي كتبته بمشاركة احد زملائي . جاء هذا الكتاب من البحث الذي أجريته مع طلابي ، وقد اعتبر حقا جهدا رائدا في ذلك الوقت . في وقت لاحق ، وبفضل هذا الكتاب ، التقيت بأشخاص يعرفونني في جميع أنحاء العالم العربي .

أعطتني فترة العمل في مصر الكثير من الأسس لعملي لاحقا ، في الكتابة وفي التدريس . أصبحت أكثر قناعة في الحديث عن العالم العربي ، واستخلاص الكثير من المواد التعليمية الأولية ، عندما

كنت في مصر، كمصادر أستَنِد إليها خلال عملي بالتعليم الجامعي في وقت لاحق. كانت فترة تعليمية مهمة جدا بالنسبة لي، والتي مكنتني من التعامل بشكل اجتماعي- وعلمي وتاريخي مع العالم العربي.

لقد كانت هذه الفترة من الزمن رائعة بالنسبة لي، فقد استوعبت تماما من خلال الانجازات المهنية، ومن خلال التدريب، ومن خلال زيارة العديد من الدول العربية، ما أمكن. ذهبت إلى ليبيا، واليمن، والسودان، والمغرب، وسوريا، ولبنان، والأردن. أصبحت مؤهلا وأكثر كفاءةً كخبير في العالم العربي بعد أن كنت قد تخرجت لتوي من الدكتوراه. تمكنت من مقابلة العديد من الوزراء، وكان لدي العديد من الطلبة الذين أصبحوا وزراء. استطعت فهم التركيبة السياسية، لكن، أنا نفسي لم أكن ناشطا سياسيا.

عندما تحدثت عن فلسطين خلال هذه الفترة، لم يكن لهذا علاقة بالعمل. بدأت التفكير بالعمل على إنشاء جامعة في القدس ابتداء من العام ١٩٥٨-١٩٥٩، القدس التي كانت في ذلك الحين أردنية. كنت اعتقد أن المساهمات الحقيقية والهامة لفلسطين تكمن في بناء المؤسسات. أتذكر يوما كنت امشي في احد الشوارع لأجد نفسي مندفعا تجاه صديق لي، لم أكن اعرف انه كان في القاهرة. كلانا، كنا في عجلة من امرنا، لكن اتفقنا على الالتقاء من جديد في وقت لاحق. أخبرني انه من المهم جدا أن نلتقي ونتحدث. كان يريد أن يتحدث معي عن حركة فتح، وكان هذا الصديق، فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية اليوم. لم أكن اعرف عن فتح قيد أنمله، إذ لم أكن قد سمعت عنها من قبل. عندما رأيت شقيقه في نابلس، اكتشفت أن هذا الرجل كان عضوا مؤسسا مهما لحركة فتح، ولم التق به بعدها حتى العام ١٩٦٨. في ذلك الوقت، كان مسؤولا عن التعبئة في منظمة التحرير الفلسطينية، لم آخذه على محمل الجد في ذلك الحين، لأنه كان لا يزال طالب – بكالوريوس – في الجامعة الأمريكية في القاهرة، في حين كنت قد أنهيت الدكتوراه. في الحقيقة، أنا لا اعرف إذا ما كنت نادما على عدم لقائي معه، لكن اعتقد انه كان بإمكاني القيام بعمل سياسي أفضل لو كنت التقيت به.

خلال سنوات ١٩٥٧-١٩٦١، سنوات عملي في اليونسكو، كنت أقوم بزيارة الضفة الغربية على الأقل مرتين في السنة. كان لدينا برنامجا روتينيا؛ كنت اذهب مع عائلتي إلى عمان، والبقاء

مع والدتي. كنا نذهب إلى القدس، ومن ثم إلى نابلس وطولكرم، حيث كنت أوقف أولادي على بقعة يمكن من خلالها رؤية البحر ويافا. ثم، نذهب إلى رام الله لتناول وجبة العشاء وتدخين الارغيلة. كانت رام الله، تمنحك شعورا وكأنك في لبنان. لكن القدس كانت تشكل الجزء الأفضل من الرحلة، حيث التنزه في البلدة القديمة، سيرا على الإقدام يمنحنا جميعا شعور السلام.

الفصل السادس

العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية

بعد انتهاء العمل مع اليونسكو عدت مباشرة إلى الولايات المتحدة لإنهاء كتابي : "اكتشاف العرب لأوروبا" . شكّل هذا الكتاب أطروحة ما كتبت حول إعادة اكتشاف عربية لأوروبا ؛ إعادة اكتشاف الأفكار . الكتاب، هو حول الأيدلوجية، وأصول النقل المصري للأفكار من الغرب، والذي يشبه إلى حد كبير أعمال برنارد لويس . كنت أعيش وقتها في برينستون، في نيوجيرسي . كان ذلك في العام ١٩٦٢ ، وكنت ابحث عن عمل .

أعلمت من طرف السيد ايلي سالم، الذي أصبح لاحقا عميدا للجامعة الأمريكية في بيروت، بأنه تم الإعلان عن وظيفة تدريس في سميث كوليدج، Smith College . لم أكن قد سمعت من قبل عن هذه الجامعة، ولم أكن أعرف بأنها كانت كلية للبنات . قام ايلي سالم، وبدون الالتقاء بي، بالاتصال مع إدارة سميث كوليدج، لترشيحي للوظيفة ولهذا المنصب، ليقوموا بعد ذلك بدعوتي إلى سميث كوليدج للمقابلة، لكن قبل أن أذهب قمت بالنظر إلى قائمة المدرسين هناك بهدف تكوين فكرة أولية حول الأشخاص الذين يدرسون في هذا القسم .

كان لقائي الأول في سميث كوليدج مع رئيس القسم الذي كان شابا، كان منظرا سياسيا، شتراوسيا، Straussian . تحدث إلي حول مقابلتي المقبلة التي كان من المقرر عقدها خلال مأدبة غداء في النادي الخاص بأعضاء الهيئة التدريسية في سميث كوليدج . قيل لي، بأن علي الجلوس بجوار غويندولين كارتر، Gwendolyn Carter، الاسم الوحيد الذي تعرفت عليه ضمن قائمة المدرسين . وأنه، ستوجه لي بعض الأسئلة، ثم بعد ذلك، سيقوم، أحد أعضاء الهيئة التدريسية الجدد، باصطحابي إلى الخارج، ليتسنى لبقية أعضاء الهيئة التدريسية التصويت بناء على المقابلة . أخبرني رئيس القسم بشيء في غاية الأهمية : قال لي إن التصويت الوحيد الذي يهم هو تصويت الدكتورة كارتر، لهذا، كانت، الدكتورة كارتر، الشخص الذي يتوجب علي إقناعه .

ذهبنا إلى نادي أعضاء هيئة التدريس حيث التقيت هذه السيدة، وشاهدت كيف كانت تهيمن على

القسم، لقد كانت امرأة ذكية وفاتنة وقوية . كان البقية من أعضاء الهيئة التدريسية في القسم بمثابة الأطفال، وحتى أنا، لقد كنت أيضا بمثابة الطفل . قبل المقابلة، تسنت لي الفرصة لقراءة واحدة من مقالاتها حول جنوب إفريقيا، وتحدثنا عن الوضع هناك، وقد شعرت براحة كبيرة معها . بعد انتهاء المقابلة، تم اصطحابي إلى خارج الغرفة . وبينما كنت أنتظر في الخارج، أخبرني عضو الهيئة التدريسية الشاب، بأنني كنت محظوظا . جرت العادة بان يقوم المرشح بإلقاء محاضرة أمام الطلبة قبل التعاقد مع إدارة سميث كوليدج، بحيث يقوم الطلبة بالتصويت على المرشح بناء على المحاضرة، وكان يؤخذ التصويت بالاعتبار، بحيث انه إذا لم يصوت الطلبة بالإيجاب على المرشح، فأنه لن يتم التعاقد معه من قبل إدارة سميث كوليدج، بغض النظر عن مكانته كأكاديمي . على أية حال، خرج مدير القسم من الغرفة ليخبرنا بانتهاء عملية التصويت، لتتم دعوتي بالانضمام إلى سميث كوليدج كعضو في الهيئة التدريسية .

قبلَ الموافقة، كان علي التفاوض ماليا، حيث كان لدينا ثلاثة أطفال، ورابع على الطريق . تلقيت عرضاً ب ٧٥٠٠ دولار شهريا، لكني كنت بحاجة إلى مبلغ ٨٠٠٠ دولار للتمكن من توفير مستلزمات العيش . قيل لي، بأن علي عرض هذه المسألة ومناقشتها مباشرة مع السيد مندنهال، Mendenhall، رئيس الجامعة، والذي كان متخصصا في تاريخ البحرية . كان علي الالتقاء معه قبل أن يتم التعاقد مع سميث كوليدج رسميا . ذهبت إلى مكتب السيد مندنهال، رئيس الجامعة، ولم يكن مكتبه مرتبا . كان لديه مكتب كبير وطاولة ضخمة، مغطاة بالأوراق . جلسنا سوية، وتحدثنا عن الشرق وعن الغرب . كان على دراية بالشرق الأقصى . تعلمت خلال مسيرتي الأكاديمية، بأن رؤساء الجامعات على دراية بالعديد من المواضيع، لكنها فقط دراية سطحية . اعتقد أن هناك نوع من المجلات الذي يشبه "ريدرز دايجست"، **Reader's Digest**، خاص برؤساء الجامعات . بعد حديثنا، سأل الرئيس إذا ما كان لدي أي سؤال، فانتهزت الفرصة لطلب ٨٠٠٠ دولار كأجرة شهرية، وقد وافق الرئيس على ما طلبت . وهكذا، انتقلت من برينستون إلى نورثامبتون، Northampton .

خجل في سميث كوليدج

في إحدى المرات، ومباشرة بعد وصولنا إلى سميث، ذهبت إلى احد مطاعم المدينة في شارع قريب

من الحرم الجامعي، جلست وطلبت تناول الهامبرغر. ثم فجأة، نظرت حولي ورأيت أن المكان كان يغص بالنساء. شعرت حينها بالخجل الشديد، وقلت في نفسي "ربما أكون في المكان الخطأ؟ ربما يكون هذا المكان خاصاً بالنساء فقط؟". بالطبع، لم يكن. كان هذا فقط يعكس طبيعة السكان هناك. أحسست بالإحراج حقا، بأن أكون في هذا المكان. بعد مرور ستة أشهر، لم أفكر في ذلك مرتين. كانت النسبة الديمغرافية للنساء إلى الرجال كما لو كنت في منتصف كلية خاصة بالبنات طيلة الوقت. كان مكانا غريبا ومضحكا، ولم يكن شيئا طبيعيا. كانت الفتيات تهيمن على المدينة، وكان من السهل معرفة الإجازات الجامعية، لأن الفتيات "تعود مهاجرة" إلى عائلاتها. في هذه الأوقات، تعود المدينة لتصبح أكثر توازنا بين الجنسين.

كان عمر ابننا سنة واحدة عندما انتقلنا إلى هذا المكان، وأصبحنا أكثر اندماجا في المجتمع. كانت تجربتي في سميث كوليدج تجربة ايجابية للغاية. كان مستوى الطلبة فوق المتوسط في الذكاء، وكانوا يدرسون بجد. كانت لديهم المنهجية وكانوا يفعلون ما يطلب منهم، وكانوا دائما محضرين للقراءات المطلوبة قبل المجيء إلى الصف. والاهم من ذلك كله، شكلت سميث كوليدج المكان الذي تعلمت فيه أن أصبح معلما جيدا. كان اهتمام سميث كوليدج منصبا على التدريس، ويمكنك أن تحصل على مكافأة لقاء تعليم جيد. يقوم الطلبة بتقييم المساق كل عام، ويكونوا عادة عادلين في تقييمهم. بطبيعة الحال، أقول هذا، لأنهم قاموا بتقييمي بشكل ايجابي للغاية. في الحقيقة، ورغم ذلك، كانوا قادرين على تمييز المعلم الجيد من المعلم السيء.

كانت سميث كوليدج تعطي اهتمام كبير للمنح الدراسية، ومع ذلك، لم يتبعوا سياسة "إما أن تنشر أو أن تفقد وظيفتك". يخبرونك منذ البداية، بأنه بالإمكان أن تأخذ وقتك، ولكن تريد الجامعة "دليلاً على نشاط ما"، وتريد الجامعة رؤية هذا النشاط، بحيث يمكن لهذا النشاط أن يكون من خلال حضور المؤتمرات، والمشاركة في الندوات وتقديم أوراق بالإضافة إلى نشاطات علمية أخرى. هذه الطريقة تمكنك من معرفة الفرق بين مؤسسة تعليمية ومؤسسة بحثية.

تعلمت هناك كيفية التدريس، خاصة أنني لم ادرس فعلا بهذا المعنى من قبل، كما أن تدريب الموظفين المدنيين يختلف كليا عن تعليم الطلبة. قمت بتدريس القانون الدولي، والسياسات المقارنة، والقومية والنظرية السياسية. تعلمت أن أكون "على المنصة"، بمعنى أنني تعلمت عن

السلوكيات والاختلافات الثقافية في طريقة التصرف. نحن، في العالم العربي، بالإضافة إلى الايطاليين واليونانيين، وربما اليهود، نعطي أهمية كبيرة إلى الإيحاءات والإيماءات، بينما لا يظهر هذا لدى الانغلو ساكسون، وجميعنا "باختلاف الأعراق" ننتهي إلى إتباع بعض من سلوكيات الـ WASP، البروتستانت الانغلو ساكسون البيض. لقد بدأت بعقد يدي باستمرار على المنصة، بأن لا ارفع صوتي، وأن أتحكم بنفسي بشكل أكبر. لقد تأملت ما يحصل وقلت لنفسي: "يا الهي، كيف للشخص أن يتأثر هكذا". كنا في سميث، أنا وشخص عربي آخر، وزوجين من أصل لاتيني، ويوناني بالإضافة إلى واحد أو اثنين من الأفارقة الأمريكيين، كنا أقلية منفصلة في وسط "ثقافة الانغلو ساكسون" هذه. كأعراق مختلفة، كانت المعرفة العامة للترقية تكمن في النشر، وكان هذا واضحا أيضا في تقرير نهاية العام المقدم لرئيس الجامعة، حيث يمكن الاضطلاع على عدد المنشورات من قبل "العرقيات". لقد كنت ناشرا جيدا، وتمت ترقيتي إلى رتبة أستاذ مشارك في غضون ثلاث سنوات، وقد كان هذا قياسيا في سميث كوليدج.

لقد كنت معلما جيدا جدا، وفقا لتقييم الطلبة، وكنت على الأرجح، واحدا من أفضل المعلمين في سميث كوليدج. قمت بإدارة برنامج خاص بالطلبة المتميزين "هونورز بروجرام" – Honors program، وقام الطلبة بالتجاوب بطريقة جيدة، حتى أن اثنين منهم قاموا بكتابة الأطروحات التي تم نشرها. كل الأبحاث كانت جيدة، لكن البحث الذي كتبته كاترين دوجيرتي، Catherine Dougherty، حول تحويل نهر الأردن، كان عظيما. كان هذا البحث أفضل ما قرأت عن هذا الموضوع، كخبير. كنت في غاية الانبهار، حتى أنني قمت بإرساله إلى مجلة "انترناشونال كونسيليشن"، International Conciliation، بغرض نشره. وقامت المحررة المسؤولة بالاتصال بي على الفور، أرادت معرفة مؤلف هذا البحث، وصدمت عندما عرفت أن الكاتب لم يكن سوى أحد طلابي. كانوا على استعداد لنشر البحث، لكن بعد القيام ببعض التعديلات، حيث تم إرسال كاترين إلى واشنطن، للقاء المحررين. لقد قاموا بالضغط عليها على الفور لتغيير ورقتها، حيث كان واضحا في البحث أن إسرائيل تقوم بتحويل مياه نهر الأردن مسببة بزيادة نسبة الملوحة في التربة، لكن محرري هذه المجلة لا يريدون نشر مقال فيه انتقاد لإسرائيل. وبالطبع هذا اغضب كاترين، ونصحتها بالتقليل من شأن التغيرات التي طلبوها، كي تتم الموافقة على النشر، وهو ما قامت به.

تتعلم من سميث كوليدج، انه لو أردت تشكيل نخبة ما، فهناك سبل لتكوين تلك النخبة. قد لا يكون هؤلاء الناس الأكثر ذكاءً في العالم، بالرغم من أن عليهم أن يكونوا أذكياء، لكن الشيء الأكثر أهمية هو أنهم بحاجة إلى المهارات، والطاقة، والانضباط والاهتمام. ثم، عليك رعاية وتنمية عملية تعليمهم. كما تتعلم مهارة نقل الأفكار المعقدة. وكمعلم، فإنك تتعلم احترام الجمهور، لأنك تعرف أنهم أذكياء. كان عبء التدريس قليلا؛ لذا، كان المعلمين قادرين على تصحيح الأوراق ووضع تعليقاتهم على أوراق الطلبة. لم تكن هذه عملية تعليمية، وإنما كانت عملية تعلم، وقد كانت حقا تجربة رائعة. بقيت هناك لمدة ثلاث سنوات، بين عامي ١٩٦٢-١٩٦٥، وحصلت على ترقية أستاذ مشارك، كما ذكر من قبل، بعد السنوات الثلاث هذه.

الانتقال إلى جامعة مكغيل

في العام ١٩٦٥، تلقيت عرضا لأكون أستاذا زائرا في جامعة مكغيل، McGill، في معهد الدراسات الإسلامية في مونتريال، في كندا. تمت دعوتي لمدة عام، مقابل مبلغ ١٠٠٠٠ دولار كراتب شهري، وهو ما لم يكن كافيا بالنسبة لي. في ذلك الحين، كان لدينا أربعة أطفال، ولم يكن بالإمكان العيش بهذا المبلغ. على أية حال، قبلت بعرضهم، وكانت لحظات رائعة ومثيرة.

لقد كانت مونتريال بيئة مختلفة كليا عن سميث، وقد كانت تجربتي في مونتريال تجربة تكوينية، وكانت مكانا لتعلم المزيد عن السياسة. كانت ابنتي تقوم بالمشاركة في الوقفات الاحتجاجية كل يوم أحد أمام مبنى بلدية مونتريال للاحتجاج على حرب فيتنام، وطلبت مني في أحد الأيام أن اذهب معها وقلت: "لا، لا، هذا سلمي للغاية بالنسبة لي، أريد مظاهرة أرمي خلالها الحجارة". بالنسبة لي، كان من السخافة أن تقف هناك حاملا بعض الملصقات، لكنها أخذت الأمر على محمل الجد، وكانت تفعل ذلك كل أسبوع، بالرغم من أنها لم قد تجاوزت اثني عشر ربيعاً بعد. لقد كانت مونتريال مكانا هاما من حيث توعية الأطفال على السياسة.

يمكن القول أنني تحولت سياسيا، في جامعة مكغيل، إذ كانت المكان الذي اكتشفت فيه فرانتز فانون، Frantz Fanon، من خلال الكنديين الفرنسيين. وكان لفرانتز فانون تأثيرا حاسما جدا علي، خصوصا بعد قراءة كتابه، معذبو الأرض. تعلمت أيضا في جامعة مكغيل عن الاتصال

الكامل بين الأوساط الأكاديمية ووكالة الاستخبارات الأمريكية، السي آي أيه. اضطلعت أيضا على العلاقة بين السي آي ايه والمؤسسات المتعددة. كنت من قبل أعيش جنون البارانويا، أو جنون الاضطهاد فيما يتعلق بفلسطين، لكن ليس بما يتعلق بأي شيء آخر. لذلك، فقد صدمت باكتشاف هذا الترابط وبطبيعة هذه العلاقة. تعلمت هناك، عن الأكاديميين الذين عملوا مع وزارة الحرب أو وكالة الأمن الوطني، والعلاقة الحميمة بين أبحاث العلوم الاجتماعية والمؤسسة الأمنية. كان كل هذا جديدا بالنسبة لي.

كانت سنة تكوينية للغاية، وأعطيت الكثير من المحاضرات في كندا. في العام ١٩٦٦، دعيت للانضمام إلى جلسة نقاش نظمتها الرابطة الكندية للأمم المتحدة. وكان المسؤولون عن تنظيم الجلسة بالأساس هن نساء كنديات من النخبة، وكانت هناك جلسة حول الصراع العربي الإسرائيلي، كانت هذه أول جلسة رئيسية أشارك فيها كأستاذ، وكنت متوترا نسبيا. وكان هناك كذلك، في نفس الجلسة مصريا يدعى إبراهيم شكر الله، الذي كان مدير مركز المعلومات العربي في أوتاوا، وأستاذ آخر من الجامعة العبرية. كان رئيس الجلسة، مديري المباشر في جامعة مكغيل، تشارلز آدمز، Charles C. Adams. في ذلك اليوم، كان الحضور عبارة عن نخبة من الكنديين، وكانوا جميعا غاية في الأدب والتحضر. استمرت جلسة النقاش زهاء الساعتين، وشكل مستوى النقاش والعداء صدمة لهم. أدركت وللمرة الأولى كيفية تأهيل الجو بالكامل، وكيفية مواجهة إسرائيلي غير مستعد.

لقد أعجب الرئيس كثيرا، ورأى أنني قمت بدوري بشكل جيد للغاية. كنت أعرف انه إذا ما قلت الشيء نفسه في الولايات المتحدة الأمريكية، لن أستطيع الإفلات بجلدي. على الأقل، كانت كندا في ذلك الوقت أكثر لطفا وأقل عداءا تجاهنا. فكرت في ذلك، وفهمت بأنه لو قمت بقول الشيء نفسه في الولايات المتحدة، لربما قاموا بطردي من الجامعة. هنا، وعلى العكس من ذلك، كان الرئيس في غاية السعادة والسرور تجاه أحد أعضاء هيئته التدريسية الذي قام بهذا العمل المتألق. بالنسبة لي، كانت هذه تجربة ايجابية للغاية، بحيث هيأتني لما أصبحت لاحقا.

في تلك الفترة، بدأت منظمة التحرير الفلسطينية باكتساب مزيد من الاعتراف بها، اعتراف سلبي بالطبع، لكن الناس بدأت تنظر إلى فداحة المشكلة. كان واضحا بأن السلام لم يكن قاب قوسين أو

أدنى، وأن المسألة معقدة للغاية وصعبة جدا. في هذا الوقت، تحول النزاع ليصبح ضمن الحرب الباردة.

قمت بإعطاء الكثير من المحاضرات في كندا، جلها حول القومية العربية وعن مصر، وعن الناصرية، وغيرها من القضايا الأخرى، لكن ليس عن فلسطين، بصفة خاصة. القضية الفلسطينية، كانت جزءا من الصراع العربي الإسرائيلي. مع الوقت، تعلمت واكتسبت الكثير عن الجالية اليهودية في مونتريال، من الناحيتين المهنية والسياسية، وكذلك من خلال الصحف في كندا، التي لديها نفس التحيز الممكن أن تجده في نيويورك تايمز. تعلمت كذلك الكثير عن القومية الفرنسية- الكندية في مقاطعة كيبك الكندية، وحول النظام السياسي الكندي.

في ذلك الحين، عرضت عليَ جامعة مكغيل وظيفة دائمة، خاصة، بعد أن كانت السنة الأكاديمية التي أمضيت في مكغيل مثمرة للغاية بالنسبة لي، كنت بالطبع مهتما بقبول العرض. حيث كنت قد نشرت مقالين أو ثلاثة، وشاركت في العديد من اللقاءات والمؤتمرات، بالإضافة إلى أنها كانت سنة رائعة. لكن العائق الوحيد، هو أن الأطفال لم يكونوا يريدون البقاء هناك. كانوا يريدون العودة إلى نورثهامبتون. لذا، قررنا العودة بعد عام من الإقامة في كندا.

غضب عربي في مونتريال

هناك في مونتريال جالية عربية كبيرة. خلال فترة مكوثي هناك، انضممت إلى واحدة من الجمعيات المحلية. ذات يوم، كلمني أحد الأشخاص العرب من جامعة مكغيل، لا أتذكر الآن ما إذا كان هذا الشخص لبنانيا أو فلسطينيا، سألني: "هل سمعت ما قاله المذيع في حديثه خلال إحدى البرامج الإذاعية؟"، وقام بالإشارة إلى اسمه، لكني، حقا، لا استطع تذكر الاسم، وغاب عن ذهني كليا. إن ما قاله ذاك الرجل كان شنيعا للغاية، لدرجة انه أثار استياء وغضب الجالية السورية- اللبنانية في مونتريال. شخصيا، لم استمع إلى ذاك البرنامج، لكن أعلمت بأنه كان برنامجا عنصريا وبشكل فظيع ضد العرب. لقد هاجم مقدم هذا البرنامج العرب بشراسة، واصفا إياهم بالأغبياء، بالإضافة إلى إصدار بعض التصريحات العنصرية تجاههم. وتكاتفت الجالية بحق، وبطريقة متينة حول هذا الموضوع.

اتصل بي هذا ليخبرني بالأمر طالبا مني الانضمام إليهم للاحتجاج، كوني كنت أستاذا في جامعة

مكغيل وهذا يضيف إلى مركزي ووضعي، بينما كان الآخرون من رجال الأعمال. أرادوا القيام بالاحتجاج، وطلبوا مني ببساطة، إذا كان بإمكاني الانضمام إليهم ومصاحبتهم في هذا الاحتجاج فقط، حتى دون أن أتفوّه بكلمة. ممثل جامعة الدول العربية في أوتاوا، إبراهيم شكر الله، هو الآخر كان ذاهبا معهم. قلت له، إنني لم استمع إلى البرنامج، وسألته ما الذي يريدون مني أن أفعل، أجابني: سيكون رائعا لو كان بالإمكان فقط، الحضور وملاقاتهم الساعة الثالثة بعد الظهر، للذهاب سوية إلى الاحتجاج. وافقت، وذهبت للانضمام للمجموعة عند مدخل محطة الإذاعة.

لم أكن أعرف أي منهم، باستثناء إبراهيم شكر الله. ذهبنا إلى مكتب رئيس محطة الراديو. لحسن حظنا، أن هناك من المجموعة من قام بتسجيل ما بث في البرنامج، وكذلك إعادة نسخ وكتابة النص، لقد كانوا جميعا متكاتفين يدا بيد، محتجين إلى مدير المحطة، قائلين أن هذا النوع من الكلام غير مقبول مطلقا. بما أنني كنت أستمع إليهم، أصبحت أكثر غضبا، انتظرت الآخرين لينتهوا من الكلام، لكن لم يكن لديهم حقا خطة أو هدف واضح بما يقولون، كانوا يريدون الاحتجاج فقط. ليقول لهم مدير المحطة بعد ذلك: "نأسف لهذه الإساءة، لكن لم تكن هناك إهانة مقصودة". لم يكونوا متمرسين أو ملمين بما فيه الكفاية لمعرفة ما الذي عليهم فعله، بالرغم من أنهم كانوا على حق. ربما كنت أكثرهم إلماماً، وكنت مهذبا جدا، بحيث أنني قمت بتوجيه أسئلتي بهدوء كبير، وبما أنني كنت تحت تأثير الانجلو- ساكسون، قلت له: "أنت جاهل؛ تقوم بإصدار هذه التصريحات على أساس لا شيء، إذا أردت أن تتحدث عن الثقافة والحضارة العربية، يجب أن تكون مطلعا عليها، بما فيه الكفاية". وبقيت أتحدث إليه بهذه الطريقة، إلى أن كدت أقضي عليه. أظن أنني لاحظت عليه انه اتجه لأن يكون دفاعيا، وواصلت قائلا: "أنت جاهل؛ تقوم بعمل تصريحات مسيئة لثقافة بأكملها دون معرفة أي شيء عنها". كان بوسعي أن أقول هذا كوني سألته إذا كان قد زار أي من بلدان العالم العربي، وكان قد أجاب بلا. قلت له: "لم تزر العالم العربي، ولم تقرأ، ولم تذهب إلى المدرسة، لم تلتقط أي معلومات من أي مكان قانوني وشرعي. ثم، كيف لك أن تقوم بعمل مثل هذه التصريحات على الإذاعة، كما لو أن لك سلطة على هذه الثقافة، ودعم إسرائيل؟". دافع المدير عن نفسه بالقول: "حسنا، كما تعلمون، نقرأ الصحف ونحصل على معلومات". قلت له: "من الذي أعطاك هذه المعلومات؟". لقد أصبح المدير دفاعيا قليلا واستغليت دفاعيته. لم تكن

لدي أي فكرة حول لماذا أصبح دفاعيا، لأنه في العادة، حين تريد الدخول في صراع أو معركة مع هذا الصنف من الرجال، فإنهم يكونوا أكثر هجوميين.

لذا، كان في تراجع، وقد لاحظت أن مدير المحطة أصبح أيضا دفاعيا، وكان يحاول تهدئتي بالقول انه ربما كان هناك خطأ. كان هذا يوحي إلي بأنهم كانوا يتحدثون من موقع ضعف، لكن لم يكن لدي أي فكرة عن السبب. لذا، قمت بتخويفه وبتهديده كلاميا، موجها كلامي إلى مدير الإذاعة، بأننا لن نسمح بمرور هذا الأمر، وبأننا سنقوم باتخاذ التدابير المناسبة. لم يكن لدي أي فكرة، بالطبع، عما سنفعله، لكن هذا التصريح أخافه. نظر إلي مقدم البرنامج الإذاعي قائلا انه بالإمكان إيجاد حل لهذه المشكلة. سألته: "كيف تريد تسوية المشكلة؟ أنت عنصري، وتقوم بعمل تصريحات هجومية، تسببت بالإساءة إلى جالية بأكملها ومجتمع بالكامل، كيف تريد تسوية ذلك؟". قال انه مستعد لدعوتي للمشاركة في برنامجه الإذاعي. بالطبع، لم يكن هذا كافيا بالنسبة لي، وأخبرته بذلك. فهمت حينها، بأن علينا الدفع به، لوضعه في موقف دفاعي، لكن، ما تزال لم تكن لدي أي فكرة لماذا؟ لم يكن لشيء من هذا القبيل أن يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية.

في نهاية المطاف توصلنا إلى تسوية؛ قلت له بأن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تسوية المسألة، هي بأن يذهب على الهواء مباشرة، ويقول بأن التصريحات التي كان قد أدلى بها لم تكن ترتكز على المعرفة، ولم تكن سوى معلومات لاذعة، دون استناد إلى أية مواد منشورة، ولم تكن مبنية على معرفة مقدم البرنامج الشخصية للمنطقة. ومن ثم يقدم اعتذاره حول قيامه بتضليل الجمهور، وإساءته للثقافة. قال انه لا يستطيع القيام بذلك، وقلت له مرة أخرى، أن هذه هي الطريقة الوحيدة لتسوية المسألة. وقام بتكرار دعوته لي، لكنني قلت بأنه يمكن أن أحضر إلى البرنامج والقيام بالمقابلة بعد الإدلاء باعتذاره، وقد وافق أخيرا، حتى على اليوم الذي ينبغي علينا خلاله تقديم ذلك. عدت بعد أسبوع مصطحبا البيان الذي كنت قد كتبت، واردته أن يتلوه في البرنامج، وقلت: "ليس هناك من طريقة أخرى للخروج من الأزمة".

ما زلت لم افهم إلى الآن سبب إذعانه الدائم لما اطلب، واكتشفت سبب ذلك في وقت لاحق. مررنا على الهواء مباشرة، وأظهر احتراما كبيرا وكان مهذبا للغاية. اعتذر عن التصريحات الهجومية وهلم جرا، ثم تابع حديثه بالقول: "لدينا الآن مرجعية على الموضوع، وسنقوم بطرح بعض

الأسئلة عليه". وفي وقت لاحق، علمت من خلال المجموعة بأن القانون الكندي صارم جدا فيما يتعلق بالتصريحات العنصرية في وسائل الإعلام، ويمكن أن تصل العقوبة، إلى حد سحب رخصة البث منه نتيجة هذه التصريحات. ولأننا قمنا بتهديده، واستمر زملائي في المجموعة يقومون بذلك بالرجوع إلى قانون الاتصال الكندي في اوتاوا، Ottawa، كما لو أنهم سيتوجهون إلى هيئة الاتصالات، كان يخشى فقدان رخصة البث الخاصة بمحطته.

تم تشريفي من قبل النادي اللبناني السوري عن طريق منحي جائزة على الدور الذي لعبته في هذا الحادث، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أحصل فيها على جائزة. لقد أقيمت مأدبة كبيرة على شرفي، وقمت بإلقاء كلمة بهذه المناسبة، وكانت فرصة للتعرف الجيد مع أول جالية منظمة لبنانية سورية في أمريكا الشمالية. تعلمت تقدير هؤلاء الناس، كانوا جميعا من أبناء المهاجرين، لكنهم كانوا متلاحمين ومترابطين، وان كان هذا التلاحم في أغلب الأحيان حول الكنيسة والتبولة والدبكة. لقد حافظوا على بعض جوانب الثقافة، كانوا يحفظون بعض الكلمات باللغة العربية بالإضافة إلى بعض العبارات باللهجة المحلية، وكانوا يستخدمونها بين الفترة والأخرى خلال أحاديثهم، إلى غير ذلك. كانوا من رجال الأعمال الناجحين إلى حد ما، ليسوا أغنياء جدا ولا فقراء جدا، من الطبقة المتوسطة، إن صح القول. طبقة تم استيعابها وانخراطها في الحياة الكندية.

شكل هذا الحادث اكتشافا لي بأن كندا مختلفة عن الولايات المتحدة الأمريكية، بمعنى أن لديها جوانب معينة حول مراقبة البث وإذاعة ونشر "معلومات" عنصرية. تعلمت أن بإمكانهم في الواقع سحب رخصة البث بناء على "قرار" عام ضمن صلاحيات هيئة الاتصالات الكندية. واكتشفت أيضا أن الكنديين كانوا أقل عدائية للعرب والمسلمين مما كان عليه الأمريكيين. أنا أتحدث اليوم عن ١٩٦٥-١٩٦٦، لقد كان الكنديون أكثر لطفا وانفتاحا في التعامل مع الثقافات الأخرى، على الرغم من أنهم صعاب وقاسيين تجاه شعب الاسكيمو. شكلت كندا، مجتمعا أفضل بكثير بالنسبة لأناس مثلنا "كمهاجرين"، مما شكلته الولايات المتحدة. وفيما يتعلق بقضية الصراع العربي الإسرائيلي، كان الكنديون عموما أكثر جهلا من الأمريكيين. لكن، لأكون عادلا، كانوا أقل عنصرية وأقل عدائية في خطاباتهم تجاهنا كعرب. لم تكن فلسطين في ذلك الوقت ظهرت كمشكلة أو كقضية، لا في كندا ولا في الولايات المتحدة، وكان هذا في الوقت الذي تم فيه الإعلان عن تأسيس منظمة

التحرير الفلسطينية. "فلسطين" و "الفلسطينيين" لم تكن تعني الكثير للناس هناك، على عكس "العرب". تعلمت في البداية عن السوريين واللبنانيين، ورأيت كم كانوا متعاطفين مع العمال في المنازل. قدموا إلى كندا مصحوبين بمشاكل بلدانهم الأصلية، لكنهم أصبحوا أناس ناجحين في كندا. لقد حافظوا على درجة ما من الولاء والارتباط تجاه بلدانهم الأصلية، وقبلوا بوجودي بينهم كفلسطيني، وعندما كان لديهم مناسبات ونشاطات معينة، كانوا يظهروا أنهم فهموا أننا جزء من العالم العربي.

كانت المواجهة مع المحطة الإذاعية أول مواجهة لي مع وسائل الإعلام. كنت قد واجهت وسائل الإعلام في العام ١٩٥٧ في فيلادلفيا، لكنها كانت حدثا معزولا. ليصبح هذا لاحقا، احد السمات الشائعة لنشاطي في كندا والولايات المتحدة الأمريكية، كوني بدأت الظهور في محطات الإذاعة والتلفزيون. تعلمت أساس دروسي الأولى من قتال هذا الشخص في كندا. بعد عدة سنوات، انتقل نفس الشخص، مقدم البرنامج، من مونتريال إلى مدينة فانكوفر، Vancouver، وكان قد دعا السيد حسن عبد الرحمن، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن، وقد كان في برنامجه هجوميا وجارحا تجاه ضيفه. جاء حسن بعدها يشتكي منه ومن برنامجه محذرا: "عليك ألا تذهب لبرنامج هذا الرجل، انه شرير للغاية". لكنه، لم يجرؤ على أن يكون كذلك معي في العام ١٩٦٥. لاحقا، أعلمت من طرف بعض الأصدقاء، انه قد تم إلغاء رخصة البث الخاصة به في مونتريال، لكنه كان ما زال ناشطا في فانكوفر.

أنا ممتن دوما لتلك السنة التي قضيتها في كندا. أولا، أنا ممتن للتعلم عن كندا نفسها، حيث كانت تجربة رائعة. ثانيا، أنا ممتن للتعلم عن مكغيل "كجزيرة انغلو ساكسونية" في وسط الثقافة الفرنسية. اكتشفت حركات التحرر الفرنسية الكندية، اكتشفت الهياكل والبنى العرقية في كندا. نعم، لقد كانت تجربة رائعة، وأقدر فرصة الظهور علنا في بيئة أقل عدائية. هكذا، عندما جاء العام ١٩٦٧، وحصل ما حصل، كان لدي في الواقع بعض التدريب على كيفية مواجهة وسائل الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية.

الأكاديمي والسياسي

لقد استمتعت حقا في مونتريال، لكن وقتي هناك يوشك على الانتهاء، وكنت قد وعدت سميث كوليدج بأن أعود حال انقضاء فترة الإجازة. رغم ذلك، كانوا في سميث كوليدج على علم بأنني لم أكن أنوي البقاء. لم يكن هذا نتيجة لأي سبب، مرتبط، بسميث كوليدج، على وجه الخصوص، كان الأمر ببساطة، بسبب كونها صغيرة جدا ومعزولة إلى حد ما، وقد أردت أن أكون قريبا من مدينة كبيرة. والأستاذة غويندولين كارتر، Gwendolyn Carter، السيدة التي كان قرارها حاسما في تعييني في سميث كوليدج، قد قبلت منصبا كمديرة لبرنامج الدراسات الإفريقية في جامعة نورث وستيرن في شيكاغو، وقد كانت هناك طوال السنة التي قضيتها في جامعة مكغيل. وبينما كنت في جامعة مكغيل، دعتني لإلقاء محاضرة عامة، وأعتقد أنها كانت "تمهد الطريق"، كانت تختبرني لبيئة أكبر. ذهبت إلى هناك في فصل الشتاء وألقيت محاضرة حول "عامل الإسلام في السياسة الإفريقية". كانت القاعة تعج بالحضور، بما فيهم عميد الكلية، كان الجميع يتفحصني، لم تكن لدي أية فكرة أنهم كانوا يتفحصونني باهتمام زائد، منذ أن قاموا بدفع مبلغ ١٥٠ دولار كمكافأة مقابل المحاضرة العامة، إلى جانب النفقات الإضافية الأخرى. كنت حينها قد ذهبت مع من كانت في ذلك الوقت زوجتي، وكنا أمضينا حينها وقتا جميلا. لم أذهب لإجراء مقابلة. ودعت السيدة غويندولين كارتر لمأدبة عشاء على شرفنا، وكان العميد من بين المدعوين. تحدثنا عن مواضيع كثيرة وسألوني عن جامعة مكغيل وعن خططي المستقبلية. كنت غبيا بما يكفي لعدم إدراكي أنهم كانوا حقيقة يقومون بفحصي، لكن في ذلك الوقت، لم يكن لدي أي خبرة في مثل هكذا أمر. مع نهاية هذا اليوم، الذي استمتعت به بشكل كبير، قامت بسؤالي عما إذا كانت لدي خطة للمستقبل؟ أجبتها بأنني سأرجع إلى سميث كوليدج. قالت: "ربما نتمكن من جذب اهتمامك هنا؟". أجبتها قائلا: "ربما، لكني سأعود إلى سميث كوليدج".

لذا، بدا حديثنا وكأنه مقابلة جد غير رسمية. بينما كنت في سميث كوليدج، دعتني من جديد لإلقاء محاضرة، حيث قالت لي حينها أن هناك إمكانية لاستقطابي وانضمامي إلى الجامعة، وجعلي المسؤول الثاني بعدها: المدير المساعد لبرنامج الدراسات الإفريقية، إضافة إلى التدريس في قسم العلوم السياسية. تمت مقابلتي لاحقا عندما عدت للقيام بمحاضرة أخرى، وقام العميد نفسه بعرض

الوظيفة علي، وأجبت بأنني سوف أفكر في العرض. قبل هذه المقابلة، عرضت سميث كوليج ترقيتي إلى رتبة أستاذ، وأنهم سيقومون بزيادة راتبي من ١٠٠٠٠ دولار إلى ١٢٠٠٠ دولار، وهذا مبلغ كبير نسبيا خصوصا أن لديك زيادة على هذا، السكن المدعوم من قبل الجامعة. المشكلة الوحيدة مع سميث كانت تكمن في شعوري بأنها كانت صغيرة جدا.

في الوقت الذي وصلني العرض كتابيا من نورث وستيرن، كان لدي عرض آخر من جامعة بنسلفانيا، كانوا يبحثون عن مدير لمركز دراسات الشرق الأوسط. كنا متنافسين اثنين للحصول على الوظيفة، وكانوا تقريبا استقروا على اختيار الشخص الآخر، لكنهم أرادوني أن آتي إلى قسم العلوم السياسية، وأخبروني بأنه لا يمكنهم منحي رتبة أستاذ أو الأستاذية الآن لكنهم سيمنحونني ذلك في أقرب وقت ممكن. وعندما عدت، عرضت سميث كوليدج علي الأستاذية، لذا، قررت عدم قبول العرض المقدم من جامعة بنسلفانيا. كما انه في الوقت الذي قررت فيه قبول عرض نورث وستيرن، تلقيت اتصالا من جامعة ويسكونسن تدعوني فيه لمقابلة مع إدارة الجامعة، حيث كانوا يؤسسون لإنشاء مركز لدراسات الشرق الأوسط. ويسكونسن، جامعة جيدة بالتأكيد، لكنها كانت بالنسبة لي، إلى حد ما "خارج المعتاد". أردت أن أكون قادرا على الخروج والسفر في أي وقت من الأوقات، سواء لإعطاء المحاضرات والذهاب إلى الشرق الأوسط. في النهاية قبلت العرض المقدم من نورث وستيرن وأعطوني ١٧٠٠٠ دولار. كانت خطوة جيدة جدا بالنسبة لي، شيكاغو مدينة كبيرة وهي جامعة جيدة.

لقد بدأت العمل في أيلول – سبتمبر ١٩٦٧، وفي الوقت الذي بدأت فيه في جامعة نورث وستيرن، وقبل أن أغادر سميث، تلقيت اتصالا هاتفيا من رجل من نورث وستيرن قائلا: "ننظم مؤتمرا حول الشرق الأوسط ونريد أن نطلب منك مساعدتنا باقتراح بعض الأسماء وهكذا دواليك"، فأعطيتهم مجموعة من الأسماء الجيدة. كانوا غير مدركين كليا "للتوجه السياسي" لهؤلاء الأشخاص. أحدهم، على وجه الخصوص، حوله قصة ظريفة، كان اسمه جون ماركس، وبسبب أن ماركس اسما يهوديا، اعتقدوا أن جون ماركس هذا يهوديا. وعندما بدأ بالحديث، فوجئوا، بأنه لاهوتي مسيحي، ربما كان أسلافه يهودا. في اللحظة التي وصلت فيها إلى هناك، كان جميع المتكلمين مصطفين، وجاء الملك حسين لإلقاء الكلمة الرئيسية قبل أن تنطلق أعمال المؤتمر. في ذلك الوقت،

قال الملك حسين أنه سيتم توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل إذا ما انسحبت من الأراضي المحتلة في العام ١٩٦٧، لقد خوّله عبد الناصر بالتوقيع على معاهدة سلام مع إسرائيل إذا ما انسحبوا من الضفة الغربية، ولم يقبلوا أبدا بالعرض الذي قدمه الملك حسين لهم. لقد قام بإلقاء هذا الخطاب في نورث وستيرن قبل أن يتلو نفس الخطاب في الجمعية العامة للأمم المتحدة.

كانت مساهمتي في برنامج الدراسات الإفريقية في جامعة نورث وستيرن في جعل دول أفريقيا شمال الصحراء ودول أفريقيا جنوب الصحراء وحدة واحدة. المعرفة التي كانت تقبل في تلك الفترة هي أن هناك إفريقيا–تان، اثنتان: شمال أفريقيا، وهي العربية والإسلامية والمتفاعلة مع مصر، وأفريقيا الصحراء التي تتعامل مع أوروبا. كانت مهمتي تبيان واثبات أن هذا التقسيم كان اختراعا من قبل الأوروبيين. تاريخيا، كانت منطقة شمال أفريقيا وأفريقيا جنوب الصحراء مرتبطة عبر الطرق التجارية، من خلال الأفكار المشتركة ومن خلال هجرة الشعوب، وهذا ما يفسر السبب في أن شعوب شمال أفريقيا ذوي لون مختلط إلى حد ما؛ تفاعل هؤلاء الناس مع بعضهم البعض عبر القرون. وشكلت الصحراء حاجزاً في الواقع للاستعمار الأوروبي، ولكن ليس بالنسبة للأفارقة. بذلك، كانت مساهمتي الفكرية للبرنامج. وأصبحت أيضا مسؤولا إداريا يتعامل مع جميع العمداء في الجامعة ومع الرئيس وهكذا دواليك، واكتشفت أنني جيد جدا من الناحية الإدارية. كنا نتقاسم منطقتين أو مجالين إداريين: واحد مع غويندولين كارتر وآخر لي. كنت مهتما بالطلبة وبالكلية على السواء.

كانت نورث وستيرن المكان الذي مارست فيه السياسة حقا. وإن كان على نطاق صغير في الجامعة، بحيث كانت فترة سياسية مهمة: الحقوق المدنية، والسود، واليساريين، والحرب في فيتنام، جميع القضايا. حاولت أن أوصل الطلبة مع الشرق الأوسط من خلال القول أن إسرائيل، وجنوب أفريقيا وفيتنام جميعها مرتبطة ببعضها البعض. لذلك، كانت ساحة الجامعة في غاية الأهمية بالنسبة لي كمنبر للتعبير، لإظهار العلاقة داخل الامبريالية، والعلاقة بين حركات التحرر في العالم.

أصبحت، معروف جدا في الجامعة، كشخص متعاطف جدا مع السود. لذلك، كان بإمكانهم الحضور دوما إلى مكتبي. قمت بتدريس مساق عن القومية، حيث كان مساقا شعبيا جدا، وطلابي في هذا المساق كانوا من قام بالاستيلاء على مبنى الإدارة في الجامعة. ذهبت للقائهم قائلا: "كما

تعلمون، نحن من يعلمكم هذا نظريا، لكن، لا يجب عليكم أن تطبقوا ما تتعلمون"، لقد ضحكوا كثيرا.

كان لدينا أيضا في البرنامج، ما كان يعرف باسم "سلسلة محاضرات مساء الاثنين"؛ كل يوم اثنين، كانت هناك محاضرة عامة تحت رعاية برنامج الدراسات الإفريقية. جرت العادة، قبل مجيئي إلى نورث ويستيرن، أن يقوم علماء معروفين بتقديم هذه المحاضرات، وهذا يعني، أن معظمهم كان من العلماء البيض، ذو الأصول الانجلو ساكسونية، والقادمين من المؤسسات المعروفة والجامعات الشهيرة.

لقد بدأت بتغيير التركيز عندما انتقلت إلى برنامج الدراسات الإفريقية في جامعة نورث ويستيرن. بدأت باستقطاب العلماء الشباب وأيضا البحث عن الأفارقة لإعطاء المحاضرات. مع نهاية السنة، طلبت من الطلبة عمل دراسة أو استبيان للأشخاص الذين حضروا حسب اللون، العمر، وما إلى ذلك. مفاجأة، لقد اكتشفوا أن السود يشكلون الأغلبية العظمى من الحضور. لم اصنع أي قضية من هذا، لقد كنت ببساطة أكثر نشاطا من غويندولين كارتر في السعي إلى إحضار متكلمين آخرين، وكانت تعرف ذلك. لم تعترض على ذلك، لقد قبلت بهذا التوجه وكانت تعرف ما هو قادم، وتركتني أقوم بما فعلت. لذلك، كان واحدا من البرامج القليلة في البلد الذي لم يقم بمحاصرته الطلبة السود. لقد حققنا تحولا وقمت بجعل برنامج الدراسات الإفريقية منحازا إلى حركات التحرر في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك، بطبيعة الحال، المؤتمر الوطني الإفريقي. دعوت في هذه الجامعة، اوليفر تامبو، Oliver Tambo، وقام بإلقاء محاضرة في ٢٢ أو ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣، كما تحدث كذلك في مؤتمر رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، AAUG. لقد حضر كل ممثلي حركات التحرر الوطني الإفريقية لتقديم محاضرات في جامعة نورث ويستيرن. بالإضافة إلى سلسلة محاضرات مساء الاثنين للعلماء الأكثر شهرة، كان هناك أيضا "سلسلة محاضرات مساء الثلاثاء"، والتي كانت مقتصرة على حركات التحرر. لقد طفح الكيل. . . كفانا مما يفعله هؤلاء. كان هذا عندما التقيت بممثلين من موزامبيق ومن أنغولا ومن جنوب أفريقيا وهلم جرا. كنت معتادا على أن ادفع لهم لقاء محاضراتهم، فقد كانوا فقراء جدا. كنا نوفر لهم الإقامة في الفندق، لنرتب لهم كذلك عدد آخر من المحاضرات في المدينة. لقد أصبحت مألوفا ومعروفا جدا مع حركات

التحرر الوطني، مع مبادئها ومع استراتيجياتها. بكل صراحة، كنت أقوم بعمل اتصالات بينهم وبين الحركات العربية. أنا فخور بحقيقة انه في كل مؤتمر من مؤتمرات رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، عندما بدأنا بتحضيرها، كان هناك دائما بعض ممثلي حركات التحرر الوطني، وكان هناك أيضا بعض الأكاديميين من السود لتقديم أوراقهم ومداخلاتهم.

الفصل السابع

الحرب تندلع من جديد

كنت، في نوفمبر من العام ١٩٦٦، منشغلا بإعطاء محاضرات عامة عن القومية العربية ومصر والناصرية، ولم أكن أقدّم أي محاضرات عن فلسطين كحالة خاصة، وإنما كانت ضمن سياق الصراع العربي الإسرائيلي. خلال هذه الفترة، تعلمت الكثير عن الجالية اليهودية في مونتريال، بحيث أنها أضافت لي معرفة مهمة على الصعيدين المهني والسياسي. كنت أعي حقيقة أن الرأي العام الأمريكي، وبالتأكيد، الرأي العام اليهودي الأمريكي، كانا مع الاعتقاد انه ستكون هناك حرب، وان مصر هي من ستقوم بمهاجمة إسرائيل. وقد تعزز هذا الرأي بعد أزمة أيار- مايو من العام ١٩٦٧، عندما طلب عبد الناصر من قوات الأمم المتحدة المغادرة.

في الخامس من حزيران من العام ١٩٦٧، كان لدينا في سميث كوليدج، حفل التخرج السنوي. ومباشرة بعد الانتهاء من الحفل، ذهبت إلى مكتبي وبدأت بكتابة رسالة إلى رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز، قلت فيها، إن كل هذا هراء وكذب؛ لن تكون هناك حرب، ومصر بالتأكيد لن تقوم بمهاجمة إسرائيل. كنت أريد إنهاء الرسالة بالقول أن إسرائيل ربما تستعد للحرب. وبينما كنت على وشك الانتهاء من كتابة الرسالة، جاء أحد زملائي إلى المكتب وسألني، إذا ما كنت قد سمعت الأخبار، قلت: "أي أخبار؟". أجاب: "لقد قامت مصر بمهاجمة إسرائيل، لقد قاموا بالهجوم من خلال قواتهم الجوية". بطبيعة الحال، حصل على كل الأخبار بشكل خاطئ. عدت إلى المنزل واستمعت إلى الراديو لأسمع بأننا دمرنا، لم استطع أن اصدق ذلك، كنت مقيدا بجانب المذياع لمدة ثلاثة أيام. إننا دمرنا كليا. لم أتكلم مع أحد، لم أستطع حتى التحدث إلى أصدقائي، كنت محطما حقا. كان الوضع صعبا على كافة المستويات، وكانت هناك حالة غير معقولة وغير مصدقة من الهستيريا في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان لابنتي ليلى، التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها، اثنين من الأصدقاء الذين قاموا بضربها، كانا من أصحابها المفضلين. ابنتي الثانية، هي الأخرى واجهت العديد من الصعوبات، لكنها كانت

على شكل اعتداءات لفظية. لذلك، طلبت منهما البقاء في المنزل وعدم الذهاب إلى المدرسة. كانوا يقومون بمهاجمة أي شيء عربي. لم يسبق لي أن شهدت أو واجهت هذا النوع من العنصرية، لا قبل ولا بعد. هذه الهستيريا، جعلتني أفهم كيف يمكن لأمريكا أن تكون عنصرية: مثلما فعلوا للألمان وكما يفعلون للسود. نحن، كعرب، لم نكن نشعر بهذا حتى العام ١٩٦٧. كان هجوما ساحقا، علينا كشعب، كان هجوما على هويتنا.

كانت سعادة وسائل الإعلام لا تصدق. لم تقم بادخار أي شيء ضدنا ولم تظهر حتى أي نوع من الإنسانية تجاهنا. شاهدنا الصور التلفزيونية للجنود المصريين الذين احترقت جثثهم بفعل النابالم في سيناء. وكانت وسائل الإعلام كذلك قد عرضت صورا للجنود المصريين يسيرون في الصحراء وأقدامهم حافية، قبل أن يتم رميهم بالرصاص وقتلهم من قبل الجيش الإسرائيلي، كانت تجربة لا تصدق. هذه التجربة كانت الأساس لإنشاء رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. شعرنا بأننا معزولين تماما، مهما كانت مناصبنا ووظائفنا في المجتمع، ليس مهما المكان الذي كنا فيه أو وصلنا إليه، كان لدينا نفس الشعور من العزلة والظلم. كانت إسرائيل تقصف العرب بشدة بالغة، وتقتلهم بشكل جماعي لتكافأ بالتصفيق مقابل ذلك، حتى أن أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي ذهب بالقول أمام المجلس: "علينا الحصول على موشيه ديان والاستفادة منه، ليعلمنا كيفية التغلب على الفيتناميين". في الواقع، زار موشيه ديان فيتنام، حيث قام بجولة هناك وقدم النصيحة للأمريكيين حول طريقة أو كيفية "التعامل مع الفيتناميين".

شكلت هذه الفترة بالكامل هجوما "رائعا" علينا. لحسن أو لسوء الحظ، لا أدري، كنت قد قبلت أصلا أن أبدأ التدريس في جامعة نورث ويستيرن. قضيت صيف العام ١٩٦٧ مديرا لمعهد معلمي المدارس الثانوية في سميث كوليدج، وكان هذا المعهد مختصا في السياسة المقارنة، والشرق الأوسط وأمريكا والتاريخ الأوروبي. أذكر أنني كنت محرجا للغاية لأنه كان علي أن أحاضر عن الشرق الأوسط، لكن المدرسين في القسم كانوا لطفاء ومتفهمين.

مسرح نيويورك للأفكار

في تموز عام ١٩٦٧، ومباشرة بعد مرور شهر على حرب حزيران، كلمني صديق لي واسمه تحسين بشير، وكان في ذلك الوقت، يعمل مع مكتب الإعلام العربي، واعرفه منذ عام ١٩٥٥. وهو مهم

جدا بالنسبة لي كصديق، وعلى الرغم من اختلاف آراءه السياسية، إلا أننا استمررنا كصديقين مقربين. اتصل بي وقال: "هناك امرأة تمثل ما يسمى مسرح نيويورك للأفكار"، The New York Theater for Ideas، وقال بأن هذا هو المكان الذي يلتقي فيه المثقفون لمناقشة "القضايا الساخنة"، وتريد ترتيب شيء ما حول الصراع العربي الإسرائيلي.

كان ذلك في تموز ١٩٦٧، وقبل مؤتمر الخرطوم. قال لي بشير: "لا أحد منا يستطيع الكلام". هو نفسه كان عضوا في مكتب الإعلام العربي، وقال: "لا يوجد هنا صوت عربي". وأضاف قائلا لي: "أنت مستقل، تكلم وقل ما تريد، لكن يجب أن يكون هناك تمثيل للعرب". وافقت في نهاية المطاف. وقامت هذه السيدة بالاتصال بي وقالت لي أنهم يريدون مني أن أشارك في هذا اللقاء أو في هذه الجلسة، وأخبرتني انه لن يسمح لأحد بالدخول والمشاركة دون دعوة مسبقة، لأن المكان كذلك كان صغيرا. أبلغتها بأنه ليس لدي مشكلة بالحديث من على المسرح أمام الناس، واني معتاد على فعل ذلك بشكل يومي كمحاضر جامعي.

في الواقع، كنت على معرفة مسبقة بمسرح نيويورك للأفكار هذا؛ لأن في هذا المكان ناقشوا "بلاك باور"، Black Power، بالإضافة إلى قضايا أخرى مثيرة للجدل. كان المسرح مؤسسة نيويوركية، يهودية بالأساس، وستكون وسائل الإعلام حاضرة في المناقشة التي دعيت للمشاركة فيها، بالإضافة إلى جمهور من المثقفين، ربما يناهز المائة شخص. وأخبرتني السيدة بأن جلسة المناقشة هذه سوف تتألف من ثلاثة أشخاص: بروفسور ماجد خضوري، وبن هالبيرن وأنا شخصيا؛ بن هالبيرن، Ben Halpern، هو مؤلف كتاب "فكرة الدولة اليهودية"، وهو أيضا عضو في الوكالة اليهودية، كنت أعرف كتابه، لذلك، كنت اعرف من كان هذا الشخص. بروفسور خضوري، هو الآخر كنت أعرفه كذلك. سألتهم عن اسم الشخص الذي سيتولى إدارة النقاش، لأني أردته أن يكون شخصا محايدا، بعد فترة وجيزة، استقروا على شخص اسمه روجر فيشر، Roger Fischer؛ كان روجر فيشر هذا قد كتب في أحد الأيام، رسالة رائعة لرئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز. لم أكن أعرفه، لكن بسبب تلك الرسالة، اقترحت اسمه عليهم. كان محامياً دوليا وكان من "الكويكر"، Quaker. لذا، كان لديه العديد من الصفات الضرورية لإدارة النقاش. اتفقنا على أن يكون هو رئيس الجلسة وقبلنا به جميعا.

كان هذا النقاش أول لقاء لي مع "المثقفين اليهود". أتذكر من هذا اللقاء، انه قد مر بشكل حسن، فيما يتعلق بي شخصيا. اعتقدت أن بن هالبيرن ما زال لم يقطف ثمار الانتصار بعد. كان ما زال متمسكا بالماضي، وبقي يتحدث عن الهولوكوست. قلت له: "لقد انتصرتم علينا بقوة، وقصفتمونا بالجحيم باسم المسيح، ألا يمكنك رؤية ذلك؟ لقد قضيتم علينا وقتلتمونا". لكن، كان لا يزال الضحية. اليوم، افهم هذا بشكل أكبر، عندما أشاهد أنهم دوما "الضحايا". أتذكر شيئين اثنين من هذا الحدث، بالإضافة إلى حقيقة أن بروفسور خضوري كان معتدلا جدا، لدرجة انه يصعب عليك تمييزه بأنه عربي، وأن بن هالبيرن تحدث عن الماضي، في حين حاولت أنا الدفاع عن عبد الناصر؛ الشيء الأول هو أن أحد الأشخاص بدأ بالتعقيب، موجها الحديث إلي على أنني "حاخام"، كان عصبيا وضحكنا على ما قاله. ليضيف: "أنت تعرف، لم يكن ما قلت خطأ كبيرا، لأن كلمة حاخام تعني أيضا المعلم"، كان هذا الشخص عصبياً للغاية ومنزعجا جدا من مداخلتي في المناظرة.

الشيء الآخر الذي أتذكر هو أن ماريسا كينت، Marisa Kent، صهيونية بارزة جدا، وجهت إلي سؤالا في غاية الأهمية؛ قالت: "بروفيسور، ماذا يتطلب الأمر بالنسبة للدول العربية لكي تذهب إلى طاولة المفاوضات لتسوية الصراع بين إسرائيل والدول العربية؟". كان هذا السؤال ربما الأكثر إثارة وأهمية في تلك الليلة. أجبتها بالقول: "إذا قام ليفي أشكول، Eshkol، رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الحين، بالوقوف الليلة في الكنيست وإعلان التصريح التالي، أضمن لك، بأنه سيكون هناك، وابتداء من الغد، وفودا رسمية من مصر، وسوريا والأردن لحل المسألة. الإعلان هو التالي: "أنا، ليفي أشكول، رئيس وزراء إسرائيل، ورغم معرفتي المسبقة بأنه لا توجد قوة في هذه المنطقة تستطيع إخراجي من المناطق التي قمت باحتلالها للتو، على استعداد لسحب وإجلاء جميع هذه القوات كنتيجة لتسوية نهائية مع كل هذه الدول". ثم أردفت، قائلا لها: "سيدتي، لن يفعل ذلك". كانت تصغي إلي وأشارت إلى أنني لم آت على ذكر الفلسطينيين، فأجبت بأن هذه مسألة أخرى، قلت: "لن يصرح أشكول بهذا، ولن تتفاوضوا مع الفلسطينيين، لذا، كيف لكم أن تقوموا بتسوية ذلك؟". مع هذا، لقد تغيروا، وفيما يخص التسوية مع السادات ومصر، لقد جعلوا الأمر ممكنا بالنسبة إليهم للوصول إلى اتفاق، والذي بناء عليه قاموا بسحب قواتهم. لم يقوموا بإعادتها

في المجمل، لكنهم انسحبوا مقابل ضمانات معينة. يفعلون ذلك الآن مع الفلسطينيين، بالرغم من أنها احتاجت إلى وقت طويل جدا لفعل ذلك. حاولوا تجاوز الفلسطينيين كل هذه السنوات، وجوابي لها في ذلك الوقت كان صائبا.

بناء رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب

كانت هذه أيضا الفترة عندما أنشأنا رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، والتي جاءت مباشرة بعد حرب العام ١٩٦٧. وكانت نتيجة للحرب نفسها، ونتيجة للعنصرية والكآبة التي شعرنا بها بعد حرب حزيران. حاولنا أن نعتقد في الولايات المتحدة وان نؤمن بها وبعدالتها وما إلى ذلك، لكننا، أصبحنا بين ليلة وضحاها، حثالة المجتمع. الطريقة التي تحدثت بها وسائل الإعلام عنا كانت عدائية جدا. اكتشفنا إلى أي مدى كنا معزولين، باحثين وأكاديميين، مهنيين ومحامين، أياً كنا، شعر كل واحد منا بالوحدة. لقد شكلت رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب المنتدى حيث يمكن لنا أن نتحدث عن العنصرية التي نواجهها وعن شعورنا بالإحباط نتيجة لحرب حزيران. كنا معزولين كأكاديميين وكشعب. على سبيل المثال، كنت في "نورثامبتون"، في ولاية ماساتشوستس، Massachusetts والعرب الوحيدين الذين كانوا قريبين هم إبراهيم عثمان، حاتم الحسيني ونصير عاروري، كنا نواسي بعضنا البعض لأننا كنا جميعا في نفس القارب. بدأ الناس يجتمعون لمناقشة بعض طرق التعبير المنظم. ذهبت إلى العديد من الاجتماعات في نيويورك، لكنني لم أكن راضيا عنها.

أخيرا، وصلني شيء في البريد بينما كنت في نورث ويسترن؛ رسالة موقعة من قبل رشيد بشور، متخصص في علم الاجتماع الصحي في جامعة ميشيغان، لكني أعرفه من قبل كوني حاولت تجنيده في وظيفة ليحل محلي في العمل مع اليونسكو في مصر. كان سورياً، من نتاج وخريجي الجامعة الأمريكية في بيروت. حصلت على اسمه عن طريق أحد الأشخاص في الجامعة الأمريكية. وبالإضافة إلى اسمه، زودت باسم شخص آخر كان أحد زملاء الدراسة واسمه بهاء أبو لبن. وصفهم الشخص الذي قام بتزويدي بأسمائهم على النحو التالي: "بهاء شخص هادئ، وهادئ جدا، وهو ذو إنتاجية ويمكن المراهنة عليه. رشيد قادر على أشياء غير عادية، ليس هادئا، لكنه ذو خيال واسع، وأحيانا، بمقدوره أن يعطيك أشياء مهمة حقا". لذا، في ذلك الوقت قمت بتقديم

اسميهما، بما أن القرار لم يكن قراري. اختير رشيد للوظيفة بعد أن تم ترشيحه من قبل اليونسكو، لكن كما كان الأمر في ذلك الوقت، وكما هو الحال إلى اليوم، يتسنى عليك الحصول على ترخيص عمل من قبل الحكومة المضيفة، الحكومة المصرية في هذه الحالة، ولكن المصريون رفضوه. في ذلك الوقت، في العام ١٩٦٠-١٩٦١، كانت، الجمهورية العربية المتحدة، بين مصر وسوريا، وكان من المفترض، أن يكون رشيد أحد أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي؛ لذا، لم يعطوه ترخيص العمل. لقد كان أكاديميا مثلي.

هكذا، انتهى به المطاف للتدريس في جامعة ميشيغان، وهو ما يزال يدرس هناك. وصلتني رسالته هذه في شهر تشرين أول أو تشرين ثان، ويقول فيها: "التقى البعض منا في ميشيغان بمناسبة انعقاد الجمعية الأمريكية الشرقية، كان هناك حوالي عشرة أشخاص وقرروا دعوة الأكاديميين العرب بهدف تشكيل إطار لجالية أو لمجتمع أكاديمي؛ جمعية أكاديمية تعمل على تحسين صورة العرب، وما إلى ذلك". قالوا، أنهم يريدون دعوتي لإعطائهم بعض الأفكار، والحديث حول أمور أخرى. وقالوا أيضا: "ليس لدينا المال لهذا، لذا، فأننا سنقدر دعمكم، إذا ما كان بالإمكان إرسال بعض المساهمة للمساعدة في تغطية تكاليف البريد. أرسلت لهم عشرة أو خمسة عشر دولارا، وقلت لهم بأن يبقوا على اتصال وإعلامي بأي جديد. في غضون ذلك، كان هناك اجتماع عقد في ديترويت، **Detroit**، وقاد إلى إنشاء وتأسيس المؤسسة الأمريكية لإغاثة اللاجئين في الشرق الأدنى، أنيرا. قررت الذهاب إلى الاجتماع الذي عقد في ديترويت على نفقتي الخاصة.

لم يحضر مؤتمر أنيرا هذا سوى عشرين شخصا. كنت قد اختلفت وتشاجرت مع أحد المنظمين، لأنني اعتقد أن المشروع بأكمله كان نخبويا. اشتمل الاجتماع على عناصر من وزارة الخارجية، وليس على العرب الأمريكيين، لكن الأمريكيين الذين يريدون الدعم العربي. كان اقتراحهم ينصب حول المساعدة في تخفيف معاناة الناس في الشرق الأوسط، وكانت تلك الصيغة محاولة لدمج إسرائيل في إطار الشرق الأوسط. في هذا الاجتماع، كان هناك محام شاب، عابدين جبارة، الذي قام بالإعلان عن تنظيم تجمع لمناقشة شكل آخر مختلف للمنظمة التي من المفترض أن تكون، وكان من الناشطين. استخدم كل المفردات ذات الأهمية بالنسبة لي؛ لذا، حضرت هذا الاجتماع. تحدث عن اجتماع كبير سيعقد في شيكاغو، ومن هذا الاجتماع ولدت رابطة خريجي الجامعات

الأمريكية العرب. والأشخاص المهمين الذين دعوا للمشاركة في هذا الاجتماع (رشيد بشور، وحسني حداد، وعدنان وباربرا أسود، وعابدين جبارة، وفوزي النجار، ومحسن مهدي) وكانوا جميعا أعضاء في الجمعية الأمريكية الشرقية. في ذلك الوقت، لم يكن هناك جمعية دراسات الشرق الأوسط (MESA) أو غيرها من الجمعيات البديلة حول الشرق الأوسط. المنظمات الأخرى الموجودة، كمنظمة "أسوسييشين فور ميدل ايست ستاديز"، The Association For Middle East Studies، كانت تنشط كواجهة إسرائيلية.

عقد الاجتماع في جامعة شيكاغو في شهر كانون أول من العام ١٩٦٧، وكان هناك ما يزيد عن ستين شخصا جاءوا لحضور الاجتماع. وترأس محسن مهدي الاجتماع، بينما كان رشيد السكرتير لهذا اللقاء. كان رشيد واضحا جدا في تقديمه، بأن هذه الجمعية لم تكن لتكون منظمة سياسية، وإنما تنظيما أكاديميا حيث يمكننا استخدام مهاراتنا لإحراز تقدم لمعرفة العرب ولفهمهم لدى الشعب الأمريكي. التوصية الأولى للأعمال كانت لإنشاء لجنة تنفيذية. كان يتوجب علينا عمل النظام الداخلي للجمعية، والاهم من ذلك كله، كان علينا جمع المال. من الواضح، لم يكن لديهم المال، لذلك، قالوا إن من يقوم بدفع مبلغ ١٠٠ دولار سيعتبر على انه عضو مؤسس. ٢٢ شخص من مجموع الحاضرين ال ٦٦ أصبحوا من الأعضاء المؤسسين لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، وقد كنت أحد هؤلاء ال ٢٢، وقلت للجنة: "سأكون سعيدا بعمل كل ما يطلب مني القيام به". منذ أن كنت مسؤولا في الجامعة، وكان لدي حرية الاستخدام المجاني للهاتف، والمستلزمات المكتبية ورسوم البريد وما إلى ذلك من أمور أخرى، بدأت التواصل مع الناس. اكتشفت بعد نحو عامين، وعندما بدأ مكتب التحقيقات الفيدرالي (اف. بي. آي) بتعقبنا، من خلال الاضطلاع على فواتير الهاتف، انه ليس هناك مجال للشك، بأنني أخلط بين العمل وحياتي الخاصة. بعد ذلك، بدأت بتوخي الحذر.

انتخب فوزي النجار رئيسا للرابطة، وانتخب رشيد نائبا له. وكان عدنان أسود أمينا للصندوق وحسني حداد سكرتيرا لأول لجنة تنفيذية لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. وقامت اللجنة بتنظيم انتخابات لأول مجلس إداري للرابطة. حصلت على مجموع ٥٨ صوتا، وكانت النتيجة الأعلى والتي لم يحصل عليها أحد سواي. أصبحت نشطا في إلقاء المحاضرات وكنت

أكاديميا، لذا، كانت لدي كل الدعائم، وانتخبت عضوا في المجلس سنة ١٩٦٨. أصبحنا هشام شرابي، والين هاغوبيان وأنا، بالإضافة إلى أعضاء اللجنة التنفيذية، نشكل أول مجلس إدارة للرابطة.

كنا فقط ٢٢ شخصا، وقررنا أن يكون هناك مؤتمرا سنويا. كلفوني بالسهر على تنظيم هذا المؤتمر، حيث كنت بالفعل صاحب خبرة ومنظما للنشاطات الأكاديمية في جامعة نورث ويسترن، وكان لدي إمكانية وسهولة استخدام الهاتف، وكان هذا الأمر مهم جدا. لم يكن المدير أو المسؤول عني يعير أي اهتمام باستعمالي للهاتف طالما أن هذا لن يخلق لي المشاكل. وافقت على القيام بالتنظيم لعقد المؤتمر، الذي كان موضوعه حول: "العرب الأمريكيون: تحديات المستقبل". كنت أقوم بجمع أي مواد تتعلق بالموضوع من أي شخص كان قد كتب عن العرب الأمريكيين. وبمساعدة زوجة حسني حداد، صوفي، والين هاغوبيان، Elaine Hagopian، وآخرين، قمنا بالإعلان عن موعد للمؤتمر. وبعدها، أصبحت المنظمة معروفة، وبدأت نشاطاتنا تنتشر وتتسع، وقد كنا المصدر الوحيد للأخبار حولها. كنا أصحاب قومية وهوية وكنا مستعدين للكفاح وللدفاع عن ذلك. مع ذلك، كنا على صلة وارتباط بأمريكا. وقد تقرر عقد المؤتمر الأول في واشنطن، وكنت أدير الأمور اللوجستية والخدماتية من شيكاغو. خططنا لعقد المؤتمر في ٢٧ كانون أول ١٩٦٨، بعد سنة واحدة على إنشاء رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب.

كنت المسؤول عن إعداد البرنامج وقمت بعمل جيد. في اليوم الذي سبق انعقاد المؤتمر، هبّت واحدة من أسوأ العواصف الثلجية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. كنت في مطار أوهير، O'Hare airport، أحاول أن أستقل طائرة، لكن لم تحلق أي من الطائرات. وكان رئيس الرابطة، فوزي، موجود في محطة أخرى من المطار. كان كلانا يحاول السفر، لكن لم تكن هناك طائرات. في حوالي الساعة الخامسة مساء، سمح لطائرة واحدة بالمغادرة، وكنت على متنها. كانت الحالة الجوية لا تصدق، لم نتمكن من رؤية أي شيء. أخيراً، وصلت الطائرة إلى واشنطن، حيث لم يكن هناك عاصفة ثلجية، وتابعت الطريق إلى الفندق. كان الأشخاص الذين أتوا من الشرق قادرين على المجيء بالسيارة. لذا، لم يكن لديهم مشكلة حقيقية. رشيد بشور جاء بالسيارة، فقد كان متواجدا. جلسنا حول طاولة في الفندق في الساعة التاسعة مساء، في الليلة التي سبقت يوم المؤتمر،

وكان هناك سبعة منا فقط. كنا محاطين من قبل بعض عناصر مكتب التحقيق الفيدرالي، اف بي آي، ووكالة الاستخبارات المركزية، سي آي آيه. كان عددهم يفوق عددنا، وكانوا جميعاً يقومون بالتنصت علينا والاستماع إلى ما نقول.

كنت قد أرسلت البرنامج قبل الوقت المحدد، لكنه حسب ما أذكر، لم يصل إليهم. كان وليد خدوري، الشخص المسؤول عن الترتيبات المحلية، كان يدرس الدراسات الدولية في جامعة جون هوبكنز، وقد كان يعد للحصول على شهادة الدكتوراه، ولم نتمكن من إيجاده في تلك الليلة. كان من المفترض أن يكون فايز صايغ، المتحدث الأساسي في مأدبة العشاء التي ستقام مساء اليوم الأول للمؤتمر، كونه كان متحدثا جيدا، واسمه يشد الجمهور. في صباح اليوم التالي، كنت، كمنظم للمؤتمر، مجهداً جدا، وعلى وشك الانهيار، ولم يكن هناك شيء معد على الإطلاق. وصل وليد أخيرا، كان مريضا بالأنفلونزا ولم يكن لديه البرنامج. كانت لدي نسخة واحدة، بمعنى آخر، علينا الذهاب لمقر خدمات شركة زيروكس، **Xerox**، لعمل النسخ اللازمة. بدأنا المؤتمر، ولحسن الحظ أو لسوء الحظ، كان الحضور ضعيفا جدا. ببساطة، الناس الذين لم يستطيعوا الوصول بالسيارة، لم يتمكنوا من الوصول إلى واشنطن.

لم يبلغ عدد الحضور عند بدء الجلسة الصباحية، العشرين شخصا. كان متحدثنا الرئيسي في الصباح هو السيد خروب من ديترويت، وهو عضو في الهيئة التشريعية لولاية ميشيغان. بالنسبة لنا في ذلك الوقت، كان يمثل أعلى رتبة وصل إليها عربي أمريكي؛ ولد السيد خروب، على ما أعتقد، في الولايات المتحدة الأمريكية، ويتلائم مع موضوع "العرب الأمريكيين". لقد جاء، وكانت تجربة، حتى لو كنا عشرين شخصا فقط. كان من المفترض أن تكون كلمة الافتتاح من قبل رئيس الرابطة، لكن المشكلة كانت تكمن في أن الرئيس لم يكن حاضرا، ولم يكن بالإمكان القيام بخطاب الافتتاح. قام رشيد، نائب الرئيس، بإلقاء كلمة ارتجالية، ترقى بمستوى الحدث، عن رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. وأشار أيضا إلى الصعوبات التي تحصل عندما لا يتعاون الأشخاص؛ عندما يقومون بإظهار الحماس لفكرة ما في البداية، قبل أن يقوموا بالتخلي والابتعاد عنها في وقت لاحق. كان حاضرا في ذلك اليوم، عابدين جبارة، إضافة لي، ولالين، ونصير، وكمال أبو جابر، وميخائيل سليمان إضافة إلى بعض الأشخاص من واشنطن.

لم يكن متحدثنا الرئيسي، السيد خروب هناك، لكنه ظهر لاحقا وألقى خطابا جميلا، قال فيه "لكي أكون صريحا، فقد دعيت إلى المؤتمر، ولم تكن لدي فكرة حول هذه الرابطة ومن وراءها. انتم مجموعة مختلفة عن تلك التي تحدثت إليها، ولن أقول ما كنت أخطط لقوله، وبدلا من ذلك، سأقص عليكم ما حصل معي يوم ٥ حزيران ١٩٦٧". كان شريكا في مكتب محاماة، وكان شركاؤه الآخرين من اليهود. خلال الحرب، دخل إلى مكتبه أحد الشركاء قائلا: "لماذا لا تحرك مؤخرتك وتذهب لكي تفعل شيئا لشعبك؟". كان يعرف هذا الرجل أن السيد خروب عربيا. أخبرنا السيد خروب بأنه كان عاجزا، ولم يقم بالرد عليه، لأنه كان خائفا من ردة فعل زملائه اليهود تجاهه وتجاه جاليته. قال إنه كان خائفا ولم يفعل شيئا. حتى طلب منه هذا الرجل بأن "أتركه"، وقال: "لذا، أنا هنا؛ تركته وذهبت إلى جاليتي وشعبي، محاولا وبطريقتي الخاصة المساعدة. اعتقد أنكم تقومون بفعل الشيء الصحيح. إذا استطعتم تنظيم ونشر المواد والقيام بكل هذه الأشياء التي تقولون أنكم تريدون القيام بها، أعتقد أن هذا سيكون مهما جدا. سأقوم بكل ما يمكنني القيام به للمساعدة". كان عرضا جميلا. وبعد ذلك، قدم الآخرون مداخلاتهم، من المواد الأكاديمية المعتادة.

في المساء، كانت هناك مأدبة، وكان المتحدث الرئيس فيها فايز صايغ. كنا التزمنا بالدفع لحجز مكان ل ٦٠ شخصا لمطعم في تلك الليلة. بعد أن قمنا بإعطاء تذاكر مجانية لطلبة من منطقة واشنطن، تمكنا من حشد ٤٥ شخص. قمنا بتوزيع التذاكر لأننا لا نريد لمتحدثنا أن يهان نتيجة العدد المتدني للحضور. حتى باستخدام اسمه اللامع، وبدعوتنا مجانا لخمسة عشر شخصا على الأقل، كنا فقط خمسة وأربعون شخصا، وقد كانت هذه خسارة فادحة بالنسبة لنا. قدم فايز صايغ كلمة جيدة، وبينما كان يتحدث، حوالي الساعة العاشرة، رأيت قبعة بهاء أبو لبن. كان عالقا لمدة ٢٤ ساعة في مطار تورونتو، Toronto Airport، لكنه جاء، انه التفاني والإخلاص. خلال مأدبة العشاء، أعلنت عن المتحدثين في جلسة اليوم الثاني، بما فيهم بهاء، الذي حضر الآن. في تلك الليلة، أحد أصدقائي، واسمه حسين حمدان، وصل قادما من برينستون بعد أن دعوته للحضور، لقد جاء، وتقاسمنا غرفة واحدة بسعر ٦٥ دولار، حيث كنا فقراء جدا للحصول على غرفة لكل منا. بينما كنا نستعد للنوم، قلت له: "حسين، أتعتقد أن هذا في الطريق إلى الفشل والموت؟"، أجابني:

"إبراهيم، ألا تعرف بأنك منتهي بالفعل؟"، قلت له: "لا، يا حسين، وسأثبت لك بأنك كنت مخطئ". لم استمع إليه...

في اليوم التالي، قمنا بعقد جلسة صباحية لؤلئك الذين حضروا متأخرين، وكان الحضور على نحو أفضل. حتى أننا تمكنا من استقطاب وتجنيد بعض الأعضاء الجدد، وكان هذا اليوم كذلك يوم الانتخابات لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. قام ميخائيل سليمان بتنظيم الانتخابات، استنادا إلى النظام الداخلي الأولي للرابطة، والتي نصت على وجود لجنة مؤقتة؛ لذا، نحن بحاجة لانتخاب لجنة تنفيذية جديدة. وكنا أعضاء للمجلس، وكان على أعضاء المجلس العمل لمدة عامين. جاء كل من ميخائيل وكمال ليقولا لي بأنهما سيقومان بترشيحي كرئيس للرابطة، أجبت بالرفض قائلا بأن عليهما إيجاد شخص آخر، لكني قبلت في نهاية المطاف. ثم سألوني عن الشخص الذي أريده أن يكون معي. وقد تحدثت إلى نصير عاروري، والين هاغوبيان وحسين حمدان، الذي كان من المفترض أن يكون نائب الرئيس، ولم يكن أحد يعرفه. حتى أنه كان مثل آل غور.

لقد انتخبت رئيسا لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب مع حسين كنائب للرئيس، والين هاغوبيان في منصب سكرتير، ونصير عاروري بوصفه أمينا للصندوق. انتخبنا بالإجماع، لان أحدا لم يكن يريد القيام بهذه المهمة. وبقيت الرابطة ولم تنته وتموت، وكنا قادرين على تحقيق أمرين مهمين. كان انجازنا الأول الانطلاق والتحدث بشكل علني، وبدأنا جميعا، عابدين، ونصير والين وأنا بالتحدث علنا. كنا نستخدم خطاباتنا كشكل من أشكال الاستقطاب والتجنيد لآخرين من المهنيين العرب، وكنا نقوم بمراسلة كل شخص نعرفه. بالإضافة إلى ذلك، قمنا بنشر مداخلات وأوراق المؤتمر الأول، وأصبحت كتابا عن العرب الأمريكيين، وصدر الكتاب بعنوان، العرب الأمريكيين: دراسات في الاستيعاب، متزامنا مع انعقاد المؤتمر السنوي التالي في العام ١٩٦٩، والذي جاء ليجعل منه، ربما، المؤلف الأول عن الأمريكيين العرب.

في الوقت الذي جاء ليعقد فيه المؤتمر السنوي التالي، كنا قد نجحنا في استقطاب العديد من الناس، وكان الجو العام ملائماً إلى حد كبير. وقد اخترنا له موضوعا، بحيث لا يمكن التنافس عليه: "الثورة الفلسطينية"، وكنا قد حشدنا مجموعة رائعة من الأشخاص. كان لدينا امرأة رائعة وجميلة، والتي من المفترض أنها عايشت الهولوكست، أعتقد أنها كانت تروتسكية. كنا

قد جدولنا حضور بعض الأسماء مثل، شفيق الحوت، وكمال ناصر، وعبد اللطيف الطيباوي وبعض الأكاديميين المخلصين. لكن، أفضلهم على الإطلاق، كان باكستانيا يدعى طارق علي، وكان تروتسكيا، وكنت قد دعوته بناء على توصية من طرف صديق باكستاني لي. في مساء يوم من المؤتمر، اتصل بنا طارق علي، ليخبرنا بأن الأمريكيين لن يمنحونه تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة. كنت في حيرة من أمري، لم أكن أعرف ما العمل، لذا، قلت لصديقي إقبال أحمد، الذي كان قد أوصى بطارق علي وبدعوته، بأن ينقذنا مما نحن فيه. كان في طريقه قادما من كندا، عندما اتصلت به زوجته لتخبره بأن أعضاء من مكتب التحقيقات الفيدرالي، اف بي آي، جاءوا لتفتيش شقتهم. كان أخوه مسجونا من قبل الكنديين، وقد كان هو في حالة نفسية سيئة وغير عادية؛ كان في حالة غضب شديد حين وصل. كما دعونا أيضا رئيسة تحرير مجلة أفريقيا-آسيا، انيا ماركوس، Ania Marcos، المرأة الراديكالية والهائلة. وكان هناك، مايكل هدسون، Michael Hudson، وياسين أجودي. كانت مجموعة كاملة استطعت تجميعها حول مؤتمر راديكالي، لكنه نظم بطريقة خيالية ورائعة. كان لدي كل هذه الأسماء، والناس كانوا متحمسين جدا إلى حد أنهم كانوا يكتبون ليسألوا كيف بإمكانهم الوصول إلى المؤتمر، وكيف يمكنهم المساهمة، وما إلى ذلك. قارب عدد الذين تعهدوا بالحضور من المائة شخص، بينما فاق عدد الحضور ال ٣٠٠ شخص، كان حضورا محتشداً من جميع أنحاء الولايات المتحدة. من الواضح، أن الدافع الأساسي الذي دفع إلى نجاح المؤتمر كان سياسيا.

كان هذا عندما قدم وزير الخارجية الأمريكي، وليام روجرز، مبادرته الأولى للشرق الأوسط، لكننا لم نكن نعرف شيئا عن المبادرة لأنها كانت ما تزال طي الكتمان. وتم تسجيل الخطاب الافتتاحي، الذي ألقيته بصفتي الرئيس الحالي للرابطة، دون معرفتي لذلك التسجيل، وهكذا، ظهرت على التلفزيون الوطني. وكان روجرز يعلن خطته للسلام في الشرق الأوسط، وقام المخرج باستخدام لقطات من مؤتمرنا في ديترويت لتوفير خلفية لهذه المبادرة، مبادرة روجرز. هكذا، استخدمنا لضمان الدعاية لوزير الخارجية الذي كان ذاهبا لصنع السلام. جاء هشام شرابي حينها وقال لي: "لقد أقلعنا محلقين في الأفق"، قلت: "نعم، آمل أن لا نتحطم". كان مؤتمرا رائعا.

كنا نكاد أن ننسف، لولا أننا أنقذنا من قبل إقبال أحمد عندما جاء وتحدث في مأدبة العشاء. كما

أننا نقلنا كلمة الطيباوي من الجلسة الصباحية إلى مأدبة العشاء، حيث كنت عريفا للحفل، بصفتي الرئيس. خلال مأدبة العشاء، قام إقبال بإلقاء واحدة من أروع خطبه، وقال: " لم أكن مدعوا من قبل إبراهيم إلى هنا، وإنما فقط بديلا، بديلا لطارق علي". بدأ بمهاجمتي لعدم توجيه الدعوة له، وكسب الجمهور، الذي بطبيعة الحال، أكل كل شيء. وتابع: "طارق علي، هو باكستاني، وهو في لندن، ولم تمنحه الولايات المتحدة التأشيرة، هل تعرفون لماذا؟"، ليرد الجمهور: "لا، نحن لا نعرف لماذا". ليقول، وبصوت درامي للغاية: "لأنهم يتهمونه بتمزيق العلم الأمريكي، لكن هذا كذب، لم يمزق العلم الأمريكي فحسب، وإنما قام بتمزيقه وحرقه". لقد كان خطابا حارقا، خطابا لا يصدق. لحسن حظنا، كان الطيباوي أول المتحدثين، تحدث عن تصريح بلفور، وحول ما كان قد وقع في ١٤ نوفمبر أو ١٤ نوفمبر ونصف. ذهب بنا إلى الأرشيف، ودفع بالجميع إلى النوم؛ حيث تحدث ساعة كاملة، وكانت مداخلة جميلة من العمل الأكاديمي، لكن الناس شعرت بالنعاس ووسائل الإعلام غادرت المكان. وعندما تكلم إقبال، لم يكن هناك، لحسن الحظ أي من وسائل الإعلام، وإلا لقضي علينا. وبالتالي، فإني ممتن جدا للطيباوي على عرضه. بعد أن أنهى إقبال خطابه، وصلتني الكثير من الرسائل من طرف الحضور، لا سيما المحافظين منهم، لفصل الرابطة عن خطاب إقبال. قمت بإدلاء بيان غامض جدا والذي لم يكن مرضياً لا للمحافظين ولا للراديكاليين. أراد الراديكاليون قتل الآخرين، الذين كانوا واقفين يصرخون بأعلى صوتهم: "خذهم بعيدا". لقد كان حقا، واحدا من أفضل العروض التي قام بها إقبال، كان خطابا جميلا متقنا. بعد ذلك، أصبح المتحدث العلني الأكثر أهمية بالنسبة للعرب، خاصة بالنسبة إلى الجيل الشاب، الطلبة.

كانت رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، قد أنشأت حقا في ذلك الوقت. من الواضح، انه كان مؤتمرا ناجحا جدا، وكان هناك ذلك الظهور التلفزيوني وكتاب بأوراق المؤتمر بعنوان الثورة الفلسطينية.

بعد انتهاء فترتي كرئيس، وأنا أصر على أننا، كقائمة علينا الاستقالة، قمت بترشيح شريف بسيوني، وهو مصري، لمنصب الرئيس. كان هناك فريق مصري كبير في رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب في ذلك الوقت، بالإضافة إلى العراقيين والسوريين والفلسطينيين. لم يكن يشكل

الفلسطينيين العنصر المهيمن في ذلك الوقت. واعترض على ترشيح بسيوني العديد من أصدقائي بسبب كونه من المحافظين. لكن، تم انتخابه، حتى من دون الحصول على جميع الأصوات، وتولى قيادة الرابطة. استطاع بسيوني استقطاب عدد كبير من الأعضاء الجدد، وكان ناجحا في هذا. اعتقد انه في ذلك الوقت بعد هذا المؤتمر، كان لدينا ما يقارب الخمسمائة عضو، وهو ما يمثل زيادة ضخمة، مقارنة بما كنا نعتقد، أننا بالفعل كنا "موتى" في واشنطن. أعتقد أن العمل الذي قمنا به الين وأنا، في غاية الأهمية. كنا الأشخاص الأساسيين، الذين كانوا قد ناشدوا الأعضاء، ومختلف الأشخاص المرتبطين بمنح دراسية. نحن، كأساتذة، لدينا المكانة الخاصة، والرابطة كانت نشطة سياسيا. ليس هناك من شك حول حقيقة أنها أصبحت المؤسسة المسيطرة بين العرب الأمريكيين.

تخصصت الرابطة في النشر، كما قال فوزي النجار في إحدى المناسبات: "هي منظمة حيث يمكننا الكتابة، إذا كنت ترغب في مسيرة، هناك منظمات أخرى لتذهب إليها، أما هذه فليست المنظمة التي ستذهب إلى المسيرة". لذا، كان نظام نشر الكتب والوثائق المعلوماتية برمته هاما جدا. بالوقت الذي أوقفت فيه نشاطي تماما، والذي لم يكن قبل بداية التسعينيات، كان لدينا أكثر من عشرين وثيقة معلومات كتبت من قبل أشخاص ممتازين. لقد قمنا بملء فجوة هامة في نظام المعلومات في الولايات المتحدة الأمريكية.

تصريح نيكسون

شكل الإعلان الذي نشرناه في صحيفة نيويورك تايمز، النشاط الأبرز الذي جلب لنا على الأرجح الدعم المالي، واكبر عدد ممكن من الأعضاء. كان إعلانا لامعا، ويعود لي الفضل في ذلك، كوني من قام بكتابته. كان إعلانا من صفحة كاملة، ونشر في صحيفة نيويورك تايمز يوم الأحد، ٢ تشرين ثان ١٩٦٩، اليوم الذي يصادف الذكرى السنوية لتصريح (وعد) بلفور. كلفنا إعلان الصفحة الكاملة في ذلك الوقت ١٢٠٠٠ دولار. اليوم نفس الإعلان يكلف ٣٠٠٠٠ دولار. وقد كان نص الإعلان كما يلي:

مطلوب؛ تصريح من نيكسون لخمسة ملايين فلسطيني من اليهود والمسيحيين والمسلمين.

السيد الرئيس، في خطاب التنصيب الخاص بكم، أعربتم عن تمنياتكم بأن يرتبط اسمكم لدى الأجيال القادمة كصانع للسلام. يمكنكم الفوز بهذا اللقب من خلال تحقيقكم للسلام في أرض فلسطين المعذبة. لقد استمررتم بانتهاج سياسة متحيزة تجاه طرف دون الآخر كما سلفكم من الإدارات السابقة، والذي سيؤدي إلى كارثة حتمية في فلسطين.

نطالبكم، سيادة الرئيس، بالعودة عن هذه السياسات، واعتماد سياسة متوازنة من شأنها أن تؤدي إلى سلام فلسطيني بشرف وكرامة لخمسة ملايين مواطن فلسطيني من اليهود والمسيحيين والمسلمين. السيد الرئيس، تصريح بلفور أصدر من قبل الحكومة البريطانية في العام ١٩١٧، "ينظر بعين العطف" تقطيع أوصال فلسطين، بتشويهها وتحويلها من أرض مقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين يقطنونها سوية، إلى أرض أصبحت حكرا على القليل من الناس. علاوة على ذلك، ينظر إليها بعين العطف لتحويل الأرض التي، تاريخيا، عاش فيها أناس على قدم العدالة والمساواة إلى ارض حصرية، ودولة قائمة على أساس الدين، والتي لم يكن لأهلها سبب في هذا، ومنعت من استيعاب الآخر والعام.

الآن، لديكم الفرصة لوقف وإعادة النظر في العملية التي بدأت بتصريح بلفور من خلال تصريح نيكسون الذي على حكومة الولايات المتحدة الالتزام به قضية، للسلام الدائم في فلسطين، وفي فلسطين حرة وديمقراطية، تمكن الناس من العيش، مرة أخرى، على قدم المساواة والعدالة التي يضمنها القانون الدولي العام القائم على مبدأ رجل واحد، صوت واحد، بغض النظر عن العرق، أو الأصول القومية، أو اللغة أو العقيدة، والذي سيكون المبدأ المهيمن.

نحن، وبناء على ذلك، ندعوكم فخامة الرئيس، إلى إصدار التصريح التالي: " إن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، تنظر بعين العطف لإعادة بناء المجتمع الفلسطيني في فلسطين، وتحويلها إلى دولة مستقلة، وحرة وديمقراطية، يعيش فيها الرجال والنساء حياة بناءة وسليمة مع بعضهم البعض، بغض النظر عن العرق، أو الأصول القومية، أو

اللغة أو العقيدة.

تحقيقا لهذه الغاية، سوف تتبنى حكومة الولايات المتحدة السياسات اللازمة لذلك، وتسعى لتنفيذها بالتنسيق مع جميع الدول المعنية في العالم. تأمل حكومة الولايات المتحدة، بشكل مخلص وحقيقي، بأن يستطيع الخمسة ملايين فلسطيني الحاليين، أينما كانوا، تجاوز المشاعر المريرة والتعاون مع حكومة الولايات المتحدة في محاولتها لتحقيق سلام دائم في فلسطين وإنشاء دولة فلسطينية ديمقراطية لمواطنيها الخمسة ملايين من اليهود والمسيحيين والمسلمين.

تدعو حكومة الولايات المتحدة، كإجراء أولي مهم، جميع الدول إلى الانضمام إلى القرارات الصادرة حسب الأصول عن الأمم المتحدة بشأن فلسطين، لتنفيذها واستخدام أقصى الضغوط على الأطراف المعنية لحثها على الالتزام بهذه القرارات. وعلاوة على ذلك، تعتقد حكومة الولايات المتحدة، أن تهدئة الصراع الحالي هو أمر ضروري وحتمي، وأنها ستستخدم كل ما هو ضمن صلاحياتها لتحقيق التهدئة. ومن أجل ذلك، ستتوقف عن تزويد شحنات الأسلحة لكافة أطراف الصراع، وستدعو الدول الأخرى إلى أن تحذو حذوها.

وأخيرا، تدعو حكومة الولايات المتحدة جميع الدول في العالم للاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني في العيش بكرامة وعدالة وأمن في أرض فلسطين، وتقديم كل المساعدات الممكنة لضمان هذا الاعتراف وتنفيذه.

السيد الرئيس، لم يسبق أن فُتح نهج ومسار السلام لخمسة ملايين فلسطيني من اليهود والمسيحيين والمسلمين. هذا هو الوقت المناسب للمضي قدما، لقد جاءت فرصتك كي تصبح صانع سلام، فاغتنمها قبل أن تصيب العالم كارثة.

من خلال هذا الإعلان، كنا ندعو، أساسا، إلى إقامة دولة علمانية ديمقراطية. وكان سبق هذا الإعلان الميثاق الذي تبنته منظمة التحرير الفلسطينية، وكنت قد تلقيت مطالبة بسحب الإعلان لأنهم اعتقدوا انه لم يكن جيدا، إذ لم يكونوا يريدون دولة علمانية. لم أصغي إليهم، وحصلنا على ١٠٠٠٠-١٢٠٠٠ دولار لنشر الإعلان، من مكتب الإعلام العربي. لم أحصل على شيء

لقاء كتابة هذا التقرير، بطبيعة الحال. كنا، أيضا، تلقينا تبرعات من أشخاص، وقد تجاوزت مبلغ ١٢٠٠٠ دولار. تلقينا مرة واحدة مبلغ ٥٠٠٠ دولار، كان قد تبرع بها شخص من واشنطن، الذي اعتقدنا أنه من وكالة المخابرات المركزية، السي آي آيه. كنا ننظر إلى الجهات المانحة، سواء الأفراد أو المؤسسات، بإمعان وحذر، لأننا كنا نخشى أن تكون هذه الأموال من طرف السي آي آيه. حصلنا على بعض الأموال، التي ساعدتنا في تغطية نفقاتنا. وتمكنا، بفضل ذلك الإعلان، الحصول على الكثير من الأعضاء. كان هذا بسبب أن الناس، في حينه، كانوا يعتقدون أننا كنا جادين في السياسة وفي معتقداتنا السياسية. أعتقد أن الكلمات التي استخدمناها، كانت كلمات معقولة وفي الاتجاه الصحيح، ولم نكن نتحدث بخطابات ضد اليهود. اعتقد أن الناس شعرت، وبعد كل هذا، أنها أفضل بكثير معنا، مما جعلهم ينضمون إلينا.

دعم وإعانة رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب

كنا "نظفاء" في رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، بمعنى أننا لم نكن نحصل على المال. لم تكن الناس تدعمنا بالمال، كانت الدول العربية تقوم بإعطاء أموالها لأشخاص آخرين. ولرصيد الجامعة العربية، كان علينا أن نقول بأنها تدعمنا وتمولنا ببعض المال دوما. كانت في معظمها مبالغ صغيرة، لكنها كانت تعطينا دائما بعض المال، والى حد كبير، من خلال الاتصالات والعلاقات الشخصية. لم نتلق أي مبالغ مالية من أي حكومة عربية، وبالتأكيد، لم نحصل على أية أموال من منظمة التحرير الفلسطينية. رغم أن الصهاينة في جميع حملاتهم العدائية ضدنا، كانوا يدّعون بأننا كنا نعمل مع منظمة التحرير الفلسطينية، لكن ذلك، وبكل بساطة، كان غير صحيح. لم نحصل، قطعيا، على أي مبلغ مالي من طرف منظمة التحرير الفلسطينية.

كانت منشوراتنا من النوع المولّد أو المنتج للمال، وكانت الكتب فقط هي ما نقوم ببيعه. في بعض الأحيان، كان العراقيون يقومون بشراء كتب منا وبهذه الأموال كنا نغطي تكاليف النشر. لا أذكر ما إذا كان الليبيون يشترون كتبنا، لكن هكذا، كنا نفعل. كنا أيضا نقوم ببيع الكتب وإرسالها عن طريق البريد إلى المؤسسات والأشخاص المشتركين بمنشوراتنا. كانت لدينا قوائم بريدية بعناوين هؤلاء، لهذا الغرض. هكذا، تمكنا من دعم أنفسنا. وقمت بنشر كتاب تحت عنوان: المواجهة العربية الإسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ . . . من منظور عربي. وهو عبارة عن مجموعة من المقالات

كتبت خصيصا لهذا الكتاب. شكّل المقال الذي كتبه ادوارد سعيد لهذا الكتاب دخوله الأول إلى عالم السياسة في الشرق الأوسط. في البداية، لم يكن الغرض من هذه المجموعة أن تكون كتابا، وإنما لتنشر من قبل مركز الإعلام العربي في نيويورك في مجلة اسمها "العالم العربي" أو "ذي أراب وورلد". عرض صديقي، تحسين بشير، بأن نقترح مقالات لتنشر في عدد خاص من المجلة، وأخذت هذا العرض على محمل الجد، وكان زملائي متحمسين للكتابة عن الأصول لحرب ١٩٦٧ من المنظور العربي. وكان الكتاب الأول عن الحرب من وجهة النظر هذه.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه حين كنت في جامعة نورث ويستيرن، تم تعييني في مجلس إدارة مطبوعات جامعة نورث ويستيرن. كان السيد بارت ارمسترونغ، Bart Armstrong، مدير مطبوعات الجامعة، زميلي في برنامج الدراسات الإفريقية. وكان هو ونائبه، كلاهما، مقربان لي. بالطبع، لقد قمت بدعمهما في المجلس، منذ أن كان المجلس قد أصبح يهتم بمواضيع السياسة، وكان لي مكانة هامة ووضع خاص في الجامعة. كانت لدي سهولة الاتصال برئيس وعمداء الجامعة والدخول إلى مكاتبهم بحرية. قمنا بنشر سلسلة من الكتب معهم عن أفريقيا، وكنت مسؤولا عن هذه السلسلة المتعلقة بأفريقيا.

أعطيته نسخة من العدد الخاص بمجلة "ذي أراب وورلد"، The Arab World، لأننا تحدثنا عن الحرب، التي تحولت إلى قضية ساخنة. أعجب بعملنا وقال: "إبراهيم، هذه مسألة مثيرة جدا للاهتمام، لماذا لا يتم نشرها في كتاب"؟ قلت له، لم تخطر الفكرة ببالي. قال إنه إذا كان بالإمكان تغيير ما بين ١٥ و ٢٠ بالمائة فلن نكون بحاجة للحصول على حقوق الطبع والنشر، وسيعامل على أنه منشور جديد. وقام بتوضيح العديد من الجوانب الهامة لي فيما يتعلق بعملية النشر: "هذا كتاب أكاديمي لجمهور محدود جدا، وأغلب الناشرين، لن يقوموا بنشره، كونها لا تجلب الربح من عملية نشر مثل هذه الكتب. بالإضافة إلى أنه كتاب مناهض لإسرائيل، وبالطبع هذا شيء غير معقول. لكن، وبالرغم من هذا، لو قام الملك حسين بكتابة كتاب، حتى لو كان الكتاب معاديا لإسرائيل، سيقومون بنشره، كونه سيدر عليهم المال، منذ أن أصبح اسمه يساهم في زيادة المبيعات؛ إنهم مهتمون بالمال". لقد وجدت ذلك مثيرا للاهتمام، لأننا ننشر الكتب الجيدة حقا، لكننا لم نتمكن من بيعها جيدا، لأننا لم نعرف كيف نبيعها. قام بتدريبي لتغيير الإصدار، بإضافة فقرة هنا وفقرة

هناك. في النهاية، تمكنا من إحداث التغيير المطلوب، وأصبح ابتداء من الآن كتابا جديدا. قام بإعادة طباعته ونشره في مطبوعات جامعة نورث ويستيرن، وعرضه على عدد من المقيمين الخارجيين الذين قاموا بالموافقة عليه وبعد ذلك قام بنشره. وكنا مضطرين إلى طباعة الكتاب مرتين، حيث بيع أكثر مما كان يتوقع. قام السيد بارت ارمسترونغ، بعمل لطيف ورائع جدا، بطباعته للكتاب، وربع هذا الكتاب كانت تتراوح بين ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ دولار تقريبا، والتي قمنا بإعطائها إلى رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. حصلت على موافقة جميع المساهمين في الكتاب، وقاموا بتوقيع العقود التي نصت على أن تذهب الأتعاب والعائدات من بيع الكتاب إلى رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، وقد كان هذا دعما مهما لمنظمتنا.

الدعم الثاني والمهم لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب كان كتاب "تهويد فلسطين". حصلت على منحة ٤٠٠٠ دولار لهذا الكتاب من عبد المحسن القطان، وكان هذا المبلغ الوحيد من المال الذي حصلت عليه. لكننا لم نكن نكلّف كثيراً في ذلك الوقت، إذ قمت بدفع مبلغ ٣٠٠ دولار كأتعاب مقابل كل مقال. ثم مع ما تبقى من المال، دفعت لشخص مقابل قيامه بعمل مؤشر، "إنديكس" الكتاب، وكنت، بهذا، أنفقت مبلغ ٤٠٠٠ دولار بالتمام. قمنا بتحويل كامل ريع الكتاب إلى رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، بعد أن وافق جميع المساهمين في الكتاب على ذلك. لم تكن جامعة نورث ويستيرن ترغب بنشر الكتاب بنسخة غلاف عادي. كانوا قد قاموا بفصل المدير في ذلك الوقت، كما قاموا بإذلاله، وقد حل محله شخص يهودي. لم نلمس الكتاب إلا بعد عشرين عاماً، عندما قام المدير الجديد، وكان يهودياً كذلك، بنشره ككتاب بغلاف ورقي. بحلول ذلك الوقت، لم يعد الكتاب يشكل تهديدا، وطبعه كان لطفا منه. من المؤسف حقا أنهم لم ينشروا الكتاب، في ذلك الوقت، بغلاف ورقي، عندما كان بالإمكان وباستطاعتنا بيع الآلاف النسخ. كان ذلك الدعم الثاني في عام ١٩٧٠-١٩٧١ الذي حصلت عليه رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. وكانت تلك مساهمتي: مهاراتي، وطاقتي، والمال من نورث ويستيرن، وهذين الكتابين.

كانت تلك، الطريقة التي تمكنا من خلالها بناء رابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب. بقيت مع الين، وعابدين، ونصير وعدد آخر من خيرة الناس، وكان معظمهم من المحامين وطلبة الدراسات

العليا الذين أصبحوا أساتذة. أصبحت الرابطة، من أهم المنظمات الفكرية في الولايات المتحدة الأمريكية، واعتقد أنها قامت بعمل أشياء قيمة وفي غاية الأهمية. لم تستطع أي منظمة أخرى القيام بنفس ما قامت به والإحلال مكانها. نحن اليوم، في حاجة ماسة لهذا النوع من المخاض أو الحراك الفكري الموجه تجاه العرب والأمريكيين. ليست هناك، اليوم، مثل هذه المؤسسات في الولايات المتحدة الأمريكية.

رابين يزور نورث ويستيرن

أصبحنا نعقد مؤتمرات، ونقوم بعقد محاضرات عامة، ونظهر على شاشات التلفاز والراديو ونحاضر في مختلف الجامعات. أينما ذهبنا، كنا نفكر دوما بمنظمتنا، وكنا نقوم باستقطاب الأساتذة الشباب أو طلاب الدراسات العليا. أظن أننا قمنا بوظيفة هامة في نهاية المطاف، عندما أصبحنا المستشارين الفعليين للطلبة الذين كانوا يكتبون أطروحاتهم. في أغلب الأحيان، كانوا في الدوائر والتخصصات التي لا علاقة لها بالشرق الأوسط، لكنهم كتبوا عن الشرق الأوسط. لقد أصبحوا موردا هاما سواء في المشاركة أو في حضور الاجتماعات. كانوا يأتون للتحدث معي، ومع إدوارد سعيد، والآخرين. لهذا، كان دور الرابطة لا غنى عنه، بحيث كانت تقوم بوظيفة هامة جدا من خلال نشرها لأوراق معرفية بالإضافة إلى الكتب التي كانت منبثقة عن المؤتمر. وقد عقدت المؤتمرات في مدن مختلفة، كل عام في مدينة جديدة. لذا فقد كنا قادرين على جذب الناس من كل المناطق. كان المؤتمر السنوي لرابطة خريجي الجامعات الأمريكية العرب، على الأرجح، واحدا من أهم الأحداث، من الناحية السياسية.

في العام ١٩٧٠، أردنا للمؤتمر السنوي للرابطة أن يعقد في إيفانستون، Evanston، إلينوي. وتحول ليكون مؤتمرا مثيرا للاهتمام، لأن اسحق رابين، السفير الإسرائيلي لدى الولايات المتحدة في ذلك الوقت، سيتحدث في محاضرة جدولت في نفس الوقت الذي سيعقد فيه مؤتمرنا. بطبيعة الحال، كنا خططنا للمؤتمر منذ فترة طويلة وقبل الموعد المحدد. اخترنا نورث ويستيرن، وأنا قمت بالتفاوض مع رئيس الجامعة لتكون قاعات الجامعة تحت تصرفنا، بدون أي تكلفة. دعوت الرئيس ليحل ضيفا على المأدبة التي أصبحت تقليدا سنويا تنظم على هامش المؤتمر، وعلى جميع الجلسات. قام بتقديم الشكر لي على الدعوة الكريمة، لكنه قال بأنه ذاهب لحضور مباراة في كرة قدم في أوهايو

مع فريق الجامعة. قبل المؤتمر مباشرة، كنت في بوسطن لتقديم ورقة في محاضرة نظمتها جمعية الدراسات الإفريقية. استيقظت في الساعة الثامنة صباحا، لأتلقى مكالمة هاتفية: "بروفيسور أبو لغد، الرئيس يريد أن يتحدث إليكم"؛ ليقول، بعد أن أخذ الهاتف: "إبراهيم، هناك تطورات جديدة في نورث ويستيرن، والتي تتطلب وجودي في الجامعة. لقد ألغيت رحلتي التي كانت مقررة إلى "هاي رايز"، High Rise، في ميشيغان، Michigan. هل يمكنني قبول دعوتكم؟"، أجبت: "بالطبع". وتابع: "أعتقد انه يجب علي أن أشرح لكم أنه في غضون ذلك، علي أن أقيم وأشارك في مائدة غداء تقام على شرف السفير رابين. أحسست ومنذ أن قبلت هذه الدعوة وغيرت ترتيب مواعيدي، بأني مدين لك بقبول دعوتكم". قلت: "أيا كان السبب، ستكون أكثر من موضع ترحيب في مؤتمرنا، يسرنا ويشرفنا حضوركم بيننا".

بالطبع، كدت أصاب بانهيار عصبي، وأصبحت في حالة يرثى لها. بحق الجحيم، من هذا الذي قام بتوجيه الدعوة للسفير رابين؟ اتصلت بأحد مساعدي، والذي كان جاسوسا ممتازا، لاحقا، انتهى به الأمر ليصبح عضوا في السي آي آيه. أيقظته من نومه وقلت: "إن سفير إسرائيل سيأتي إلى نورث ويستيرن في يوم كذا وكذا، أريد منك أن تقول لي من الذي دعاه وما الذي ينوي القيام به، أريد جوابا في ساعة واحدة". لقد عاد وفي جعبته الجواب، أخبرني بأن رابين سيقوم بإلقاء محاضرة عامة، في يوم كذا وكذا، في ساعة كذا وكذا، وسيكون برعاية فلان وعلان. . . حتى انه أخبرني عن المكان الذي سيذهب إليه لتناول طعام الغداء.

حزمت حقيبتي وأخذت الطائرة مباشرة إلى إيفانستون لعقد مجلس حرب. وكان متحدثنا الرئيسي السيد كريشنا مينون، وزير الخارجية الهندي السابق، وواحد من ألمع الأشخاص الذين التقيت بهم. عندما كان في الأمم المتحدة، كان يسيطر على الجلسات بخطاباته المعادية للولايات المتحدة وبريطانيا. كان عنوان المؤتمر: "العرب والعالم: وجهات نظر في العلاقة المضطربة". كان وجود رابين في الحرم الجامعي يشكل تشويشا وإزعاجا. قمنا، عائلتي وأنا بعمل لافتة ضخمة، بطول ٣٠-٤٠ قدم، تقول "فلسطين حرة". سألنا واستقصينا، كيف يمكننا التظاهر ضد رابين، بدون أن يتم اعتقالنا؛ لذا، اتصلنا برئيس الشرطة، وأخبرنا: "يجب أن نكون بعيدين عن المبنى مسافة ثلاثين قدما. يمكنكم رفع لافتات، لكن لا يمكنكم إعاقة المرور إلى داخل قاعة المؤتمر". هكذا كان

للرابطة مظاهرتها الأولى. شارك في هذه التظاهرة جميع الأعضاء، حتى الأساتذة الكبار الذين لم يسيروا في مظاهرة احتجاج طيلة حياتهم، بالإضافة إلى الشباب وأعضاء حركة فتح في شيكاغو. لقد كانت مظاهرة كبيرة ومميزة باللافتة التي رفعناها. وتمكّن بعض الطلبة الأفارقة من الوصول إلى داخل القاعة التي سيلقي فيها رابين محاضرته للتشويش عليه. لنعود، بعد ذلك، إلى أشغال مؤتمر منظمتنا، ونقوم بعقد اجتماع لجمعيتنا العامة.

في المأدبة، تحدث رئيس الجامعة، وقال لنا: " لقد تعلمت من والدي أنه لا يوجد شيء اسمه لا، لا. الـ لا، لا، الوحيدة، الموجودة والممكن قولها، هي لمنع أو لانتهاك حرية التعبير. لذلك، هذه الجامعة مفتوحة لجميع وجهات النظر التي يمكن أن تبث، وتناقش وتحاور". في نفس الوقت، كان هناك شجار كبير، خارج القاعة التي فيها المأدبة هذه، كان اليهود الأمريكيين يحتجون علينا عن طريق الاعتصام. ودخل حاتم الحسيني، الذي كان في ذلك الوقت شخصا متهورا، في جدال ومشادة مع المحتجين. كان الهدف من الاعتصام، التشويش على المأدبة التي أقمناها عن طريق إثارة الشجار. اتصلت برئيس الشرطة، وقلت: "هناك بعض الناس الذين يعطلون علينا أعمالنا خارج القاعة". طلبت منه: "بأن يقوم فقط بفحص الأمر والتأكد من هذا". كما يجب، وصلت إلى المكان، سيارة الشرطة، ليقوم الإسرائيليون واليهود بمغادرة المكان على الفور.

في المأدبة، لم يكن الضيف المتحدث أحدا آخر غير الأخ لويس فرخان من منظمة "نيشن اوف اسلام"، Nation Of Islam، أو "أمة الإسلام". كان ينظر إليه بطريقة مختلفة في تلك الحقبة: كان خليفة لمالكوم إكس، Malcolm X. قدم واحدة من تلك الخطب العنيفة جدا والحارقة التي كانت أيضا عنصرية. وكان كل شيء في خطابه عن الشيطان الأبيض. اقترب مني الناس بعد المأدبة لتقول لي أين وجدت هذا الرجل المجنون. كنت في غاية السعادة من حضوره، لقد أحدث خللا في "المحفلة" كلها وفي مأدبة الطعام. كان رئيس الجامعة يجلس بيننا عندما كان لويس فرخان يقوم بإلقاء خطابه، وقد جن جنونه.

الفصل الثامن

كيف أصبحت فلسطينيا

كانت إقامتي، خلال سنوات الخمسينيات، في الولايات المتحدة غير مستقرة؛ إذ لم أكن أملك شيئا من المال، ولم يكن لدي أي منزل. كنت أحمل جواز سفر أردني، بسبب إقامتي القصيرة في الأردن كلاجئ. العالم العربي، العالم الذي كنا نعتبره عالمنا، أصبح على نحو متزايد، غير مرغوب به. أسهمت الدولة العربية الإقليمية، الحديثة النشأة، وبشكل لا لبس فيه، في تعزيز فكرة أن ليس هناك ما نفعله في هذا العالم. وبالرغم من هذا، كان لدي ارتباط قوي بمصر، التي كنت أزورها تقريبا كل صيف. كانت القاهرة مدينة ملهمة، أحببتها كثيرا. خلال زيارتي، كنت ألتقي مع محمد حسنين هيكل للحديث في السياسة. في واحدة من هذه الزيارات التي كانت في شهر آب من العام ١٩٧٠، طلب مني محمد حسنين هيكل البقاء لتناول طعام الغداء، سألته، إلى أين سنذهب لتناول الطعام، أجاب: "في الطابق العلوي، هناك كافتيريا. أعطني فقط نصف ساعة، هناك بعض الناس الذين أعتقد بأنك ستسعد بلقائهم. وربما قد تكون التقيتهم أو على معرفة بهم". لم يكن لدي أي فكرة عن الأشخاص الذين سنذهب للقائهم.

عدت والتقيته مرة أخر في مكتبه قبل أن نتابع، سوية، طريقنا إلى المطعم في الطابق العلوي. انتظرنا في المطعم لبضع دقائق، ليطل فجأة مجموعة كاملة من الناس تدخل إلى المطعم، وكان عرفات بينهم. كان برفقة إبراهيم بكر وأبو إياد وفاروق القدومي. هذا الأخير، زميل الدراسة الإعدادية والثانوية في يافا، كان الشخص الوحيد الذي استطعت التعرف عليه. أذكر أن العديد من الأشخاص الآخرين كانوا قد جاؤوا على هذا الغداء؛ تحسين بشير، كلوفيس مقصود، Clovis Maqsoud، وأحمد بهاء الدين. دخلنا في نقاش صغير، وكنت خجولا بعض الشيء؛ كان هؤلاء قيادتنا وقادتنا. لكني، أردت أن اطرح عليهم سؤالا. نظرت مباشرة إلى عرفات الذي كان يرتدي نظارة سوداء اللون وكوفيته. لم يكن يتحدث كثيرا. سألته: "سيد عرفات، أي دور تنتظرونه منا كأفراد يعيشون في الخارج؟ نحن مثقفون، عملنا في المؤسسات قائم بالأساس على الأفكار والمعرفة، ما هو الدور الذي ترونه لنقوم به في الثورة؟". نظر إلي باستغراب، أجاب عن التساؤل

شخص آخر؛ لكنه في الحقيقة، لم يجب. كان أول المجيبين على السؤال كلوفيس، الذي ألقى خطابا كاملا، ثم تبعه أبو إياد ليكمل بالقول: "يقول الصينيون أنتم بحاجة إلى كل شعبكم". لقد كان هراء ومضيعة للوقت. بينما تحدث بهاء الدين عن أشياء معقولة عن منظمة وطنية. جميع الحاضرين تقريبا، قاموا بعرض لبعض مداخلاتهم وآراءهم.

تحدث عرفات، بعد أن قام الجميع بعرض ما لديهم، ليقول: "دكتور، عندما أعلنا وبدأنا ثورتنا، كنا فلسطينيين نعيش في الكويت أو قطر، نفكر 'بما الذي يمكننا عمله لفلسطين'؟ قررنا القيام بثورة. وهذا هو دورنا، وهذا ما يمكننا القيام به، لذلك، قمنا بتنظيم أنفسنا، ونحن هنا الآن. وها نحن نقوم بالثورة". وتابع: "الآن، لك ولأصدقائك، فكروا بما يمكنكم القيام به. إذا كنتم بحاجة إلى مساعدة منا لعمل ما تريدون القيام به، الرجاء إعلامنا بذلك. لكن، عليكم أن تقرروا انتم كيف يمكنكم أن تساهموا في هذه الثورة، التي هي ثورتكم، كيف يمكن لكم أن تساهموا في تحرير فلسطين؟". لم يكن بالإمكان أن يكون هناك جوابا أفضل. شكرته على ذلك. فهمت تماما ما الذي كان يعنيه.

كنا انتهينا من وجبة الغداء، وقفنا جميعا لوداع عرفات الذي جاء ليعانقني مودعا، ليقول: "دكتور، يجب أن تأتي لحضور اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني"، وكان قد دعي لعقد اجتماع المجلس الوطني في عمان بعد ثلاثة أيام. كنت قرأت عن الاجتماع في الصحف، لكنه لم يخطر على بالي، بأنه بإمكاني المشاركة. قررت قبول دعوة عرفات لأغادر القاهرة والذهاب إلى عمان.

وصلت إلى عمان والتقيت بأصدقائي عبد المحسن القطان وعبد الوهاب الكيالي، وكلاهما من أعضاء المجلس الوطني. تناولنا طعام الغداء في منزل عبد المحسن القطان. بعد الغداء، قررنا الذهاب، سيرا على الأقدام، إلى المكان حيث سيعقد المجلس اجتماعه في عمان. حين اقتربنا من مكان الاجتماع، رأينا الجيش الأردني بمدرعاته، وناقلات الجند المصفحة في مواجهة الفدائيين. لقد كانت مقدمة لحرب أيلول/ سبتمبر. لقد كان الأردنيون يحمون المجلس وكان الفدائيون يحمون المجلس من الأردنيين. ومن أجل الوصول إلى الاجتماع، كان يتوجب علينا عبور ذلك الخط. كانت أفراد المجموعة التي أرافقها، جميعا من أعضاء المجلس، بينما أنا، لم أكن عضوا في المجلس الوطني. لذا، كان على الجميع مساعدتي في الوصول إلى داخل المبنى. بينما كنا واقفين ننتظر في

القاعة، رأيت حنا ميخائيل، صديق قديم لي وأستاذ في جامعة واشنطن في سياتل، Seattle. حنا ميخائيل، ترك منصبه في الجامعة وأصبح ناشطا في حركة فتح. كنا نتحدث، وقال لي: "أتعرف، ما الذي ستراه لاحقا، إنه لا شيء". كان يوضح ذلك بالقول، سياسيا، كانت هذه جلسة كاذبة. قلت: "ما الذي تعنيه؟ هذا هو المجلس. . ." قال: "ليس هنا تكمن القوة". ولم يحالفنا الحظ بمواصلة المحادثة.

في هذه اللحظة، رآني عرفات أعبر قاعة المؤتمرات ليلاقيني ويعانقني، لقد تأثرت به بعمق؛ لعرفات وسيلة أو طريقة خاصة يؤثر بها على الناس. أمسك بيدي وكأنني طفل صغير: كان يقوم بتقديمي وعرضي على الآخرين، قام بتقديمي لنايف حواتمة وكأني صديق قديم له. كنت مسرورا جدا بلقاء نايف والتعرف عليه. لقد كانت هذه القيادة. وقام عرفات بالإطراء علي، إلى ما لا نهاية. أتذكر جلسة المجلس جيدا لأن ياسر عمرو من دائرة التربية والتعليم في منظمة التحرير الفلسطينية، قام بقراءة تقرير اللجنة. اعتقدت أنه كان تقريراً نضالياً. وكانت المسألة المطروحة حينئذ، مبادرة روجرز.

في اليوم الثاني لاجتماع المجلس الوطني، شعرت بقلق شديد إزاء الوضع السياسي في الأردن. واندلعت الحرب في أيلول من العام ١٩٧٠، عندما كنت في طريقي إلى شيكاغو، كان إخلاصي وولائي مع الثورة. لقد كانت لحظة حاسمة بالنسبة لي. لقد مات عبد الناصر، وانتقل تعلقي نحو عرفات. لقد أصبحت فلسطينيا.

تحت الحصار

في الواقع، لقد أصبحت فلسطينيا عندما وصلت إلى بيروت. قبل العام ١٩٧١، كنت فلسطينيا بالهوية، لكني كنت أكثر عربيا قوميا. لقد أعادني جو بيروت بالكامل، بالمعنى السياسي، إلى فلسطين. كنت أسافر عائدا إلى بيروت كل ثلاثة أشهر بهدف إعادة شحن نفسي، للجلوس مع مختلف القيادات ومواكبة الوضع. كنت أشارك في المناقشات السياسية، وحشد وتجميع الأدبيات وتقييم الوضع. وعند عودتي إلى الولايات المتحدة، كنت أقوم بإعطاء المحاضرات حول ما كنت قد رأيت وسمعت.

ذهبت يوما إلى الجنوب اللبناني وتحدثت إلى الطاقم النرويجي العامل في مخيم الرشيدية. حقا، أعجبت وبهرت بعملهم. لقد أقاموا هناك عيادة طبية، كانت الوحيدة التي تقدم خدمات لدائرة مساحتها حوالي ١٥كم. كان الطاقم النرويجي هذا يعيش مع الفلسطينيين في منزل متواضع، يتقاسمون ما يعيشه الفلسطينيون، لقد عانوا مما كان يعانيه الفلسطينيون هناك. عندما رجعت بعدها إلى الولايات المتحدة، بدأت أتحدث عن ضرورة إرسال ومشاركة طواقم طبية إلى لبنان لإظهار الوجه الآخر لأمريكا. هناك بطبيعة الحال، أمريكا التي تدعم إسرائيل، لكن هناك أمريكا ثانية تساعد وتدعم القضايا الإنسانية.

جاءت اليزابيت، زوجة صديقي، سهيل ميعاري، للحديث معي حول هذا المشروع الذي يتحدث عن إحضار طواقم طبية أمريكية إلى لبنان. قررنا أن الخطوة الأولى تتمثل في تنظيم مجموعة من الممرضات والأطباء للذهاب في رحلة استطلاعية أو استكشافية. نجحنا في تشكيل مجموعة من خمسة عشر شخصا، تألفت من ثلاثة أطباء ومجموعة من الممرضات وفنيي المختبرات. وصلت المجموعة إلى لبنان يوم ٣ أو ٤ حزيران ١٩٨٢. وقعت الغارة الجوية الأولى، والتي مهدت لاحقا لبدء الاجتياح الإسرائيلي على لبنان، عندما كان الفريق يقوم بجولة هناك. أراد الفريق البقاء في لبنان، على الرغم من الخطر، لكني نصحتهم بالمغادرة مع عملية إجلاء الأجانب.

كان صديقي، سهيل ميعاري، سيغادر معهم، لكنه كان خائفا بسبب جنسيته الفلسطينية. لذا، ومنذ تلك اللحظة، بقي سهيل معي. جعل سهيل من نفسه مفيدا للغاية، وبدأ العمل مع جمعية الهلال الأحمر كشخص "مثبت". كان الشخص الذي يمكن له أن يحل المشاكل. كان بإمكاني المغادرة مع الأجانب، لكني لم أكن أريد أن أغادر. حاولت زوجتي الاتصال بوزارة الخارجية لكي أتمكن من الخروج ضمن عملية الإجلاء، لكني لم أكن ارغب بأن أطرد من جديد. في نهاية المطاف، ربما كان قراري بالبقاء في لبنان، قد ساهم بتدمير زواجي، لكنني رفضت المغادرة والرحيل.

كانت بيروت بديلا لفلسطين؛ لم أتمكن من الذهاب إلى فلسطين، لذلك، ذهبت إلى بيروت. حيث كان شعبي، وحيث كانت قيادتي. كنت أعرف أن لبنان لم يكن فلسطين، لكنه كان فلسطينيا جدا في المناقشات، والاهتمامات والسياسات الداخلية. كل هذا تغير مع حصار بيروت ومع القصف العشوائي لكل شيء فلسطيني. قامت إسرائيل بقصف المستشفيات والمنازل والتجمعات

والمخيمات الفلسطينية للاجئين. بهذا المعنى، لم يكن القصف والتدمير عشوائيا: أرادوا عزل وتدمير الفلسطينيين.

في كل التحاليل التي قمت بها عن الحركة الصهيونية، كنت أنظر إليها على أنها حركة عنصرية وحصرية. لكن، ما لم أستطع إدراكه حتى بعد الحصار، هو أن إسرائيل كانت أكبر بكثير من أي وصف كنت استخدمته ضدها في السابق. إسرائيل هي الدولة التي على أتم الاستعداد لاستخدام كل أنواع الأسلحة ضدنا بهدف إبادتنا. كانوا قادرين على إحداث أو خلق هلع من هذا القبيل. كنت أرى الأطفال الصغار يصطفون للحصول على الماء، ابتداء من الساعة الثالثة صباحا، كنت أرى الخوف في وجوههم. كان الجميع خائفا. قال لي أحدهم ذات مرة، انه إذا ما مت في غارة جوية، لن انعم باستحقاق الشرف لأكون واحدا من بين المفقودين، لأنني سوف ادفن في أعماق الأرض، ولن يعرف أحد انه كان لي وجودا في هذه الحياة. لدي شريط كان قد وثق الصوت لإحدى الغارات الجوية. كان أحد صحفيي مجلة الدراسات الفلسطينية يقوم بتسجيل مقابلة معي عندما وقعت غارة جوية إسرائيلية، كانت المقابلة قد سجلت وبقي جهاز التسجيل مشغلا خلال القصف. لقد كان ذلك مخيفا ومروعا، ضجيج القصف المصحوب بتلاوتنا لبعض الآيات القرآنية.

كان أحد الأسئلة التي قام الصحفي بتوجيهها إلي حول كيف لي أن أقارن بين الطرد من بيروت وطردي من يافا. كان الفرق الأساسي بين بيروت ويافا، أن القيادة كانت قد نظمت في بيروت، بينما في العام ١٩٤٨، لم يكن هناك قيادة حقيقية فعالة، لذلك، كان خروجنا فوضويا وغير منظم. في بيروت، كنا في انتظار قرار من منظمة التحرير الفلسطينية يعلمنا بالمغادرة. لم يكن في يافا، لا الغذاء ولا الخبز الكافي. في بيروت، كانت منظمة التحرير الفلسطينية قادرة على توفير وتزويد الناس بالماء والغذاء. كان هذا الفرق في غاية الأهمية. كان الإسرائيليون في بيروت يحرضون على التمرد ضد الفلسطينيين، لكن منظمة التحرير الفلسطينية استطاعت أن تبقي على الدعم الشعبي لأنها تمكنت من ضمان تدفق الإمدادات الغذائية والمياه. وثمة فرق آخر مهم هو أنه في العام ١٩٤٨، لم نكن نعرف بأننا كنا ضعفاء، كنا نعتقد أن لدينا الدعم من الجيوش العربية الأخرى. في بيروت، كنا على معرفة، أننا كنا الطرف الأضعف، ولا أحد هناك كان ذاهب لإنقاذنا. لكن، بيروت، لم تكن مدينتنا. ولبنان ليس فلسطين.

غادرت بيروت يوم الرابع والعشرين من آب، في العام ١٩٨٢. توقفت عن العمل لصالح الجامعة المفتوحة، لكن لم أكن أريد أن أطرد من بيروت بنفس الطريقة التي طردت فيها من فلسطين. عندما قررت القيادة الفلسطينية مغادرة بيروت، قررت بأن أغادر معهم. كان يتوجب على كل الأشخاص في منظمة التحرير الفلسطينية ارتداء الزي العسكري عند مغادرتهم للمدينة. كان الزي العسكري، شرطا اشترطه الإسرائيليون الذين كانوا يعتبرون أن منظمة التحرير الفلسطينية، منظمة عسكرية. لكنني رفضت ارتداء الزي، ولذا، اضطررت لمغادرة بيروت ولبنان في سيارة أجرة. قمنا سهيل وأنا بتنظيم قافلة لمغادرة بيروت، وقمت بمرافقة غريس، شقيقة إدوارد سعيد، إضافة إلى ابنتين لأستاذ في الجامعة الأمريكية في بيروت. كما وصلني طلب من صديق لي كان في منظمة التحرير الفلسطينية، بمساعدة اثنين من أصدقائه بمغادرة بيروت، وكان طمأنني بأن هذين الرجلين، يمني وبحريني، كانا يقيمان بطريقة قانونية في بيروت. بدا لي رجلان جديران بالاحترام، كانا يرتديان ملابس أنيقة، قمت بتزودهما برقم هاتف في دمشق، يمكنهما الاتصال به، في حال كانت هناك أي مشاكل على الطريق.

غادرنا بيروت في اليوم التالي للانتخابات. قلت لسهيل، الذي كان مهووسا "بجمع" كل شيء، بأننا ذاهبون لعبور الخطوط الإسرائيلية، بحيث ينبغي عليه بأن لا يحزم معه أي شيء ذو بعد أو مدلول سياسي؛ لا كوفية ولا أي شيء. كان لدي جواز سفر أمريكي، إذا كنت تحمل جواز سفر أجنبي، حتى وان كان جواز سفر أردني، لن يمسّك الإسرائيليون. كنا خائفين أكثر من الكتائب منه من الإسرائيليين. بدا لنا أن الكتائب كانت منشغلة أكثر بالاحتفال بفوز الجميل ولن يقوموا بمضايقتنا. قمنا باستئجار اثنين من سائقي سيارات الأجرة، الذين يعرفون الطرق حول بيروت. قام السائقون بجمع جوازات السفر الخاصة بنا موعزين لنا بعدم البوح بأي كلمة في أي من نقاط التفتيش. بينما كنا نسير خارجين من المدينة، عابرين بالقرب من المطار، انفجر احد إطارات سيارة الأجرة، مباشرة أمام الإسرائيليين، كنا خائفين جدا. لم أر من قبل رجلا يقوم بتغيير الإطار بهذه السرعة، أعتقد أن الأمر لم يستغرق منه سوى دقيقتين. إلى درجة أن الإسرائيليين لم يشعروا بما حدث.

وصلنا إلى أول نقطة تفتيش للكتائب اللبنانية، نظر أحد الجنود إلى داخل سيارة الأجرة وقال: "أجانب". نظر إلينا جميعا، قائلا: "مرحبا بكم في لبنان"، لم يكن يجيد اللغة الانجليزية بشكل

جيد. لم ننطق بكلمة واحدة. كان هناك ثلاث عشرة نقطة تفتيش على طول الطريق إلى دمشق. في واحد من نقاط التفتيش الأخيرة، قاموا بتوقيفنا وفحصنا لمعرفة ما إذا كان هناك أية آثار لبنادق الكلاشينكوف. كانت مهمة الكتائب تكمن كذلك في تفتيش كل المارين وفحص الكتف لمعرفة إذا ما كان هناك إشارة أو علامة على حمل السلاح؛ إذا ما كنت تحمل بندقية كلاشنيكوف لبعض الوقت، فان ذلك سيترك أثرا. كان الرجل اليمني يحمل بعض الأثر على كتفه وتم إنزاله من سيارة الأجرة. بينما كان البحريني رجل سياسي، ولم تكن على كتفه أي علامات أو آثار لحمل السلاح. وصلنا إلى نقطة التفتيش اللبنانية الأخيرة، نقطة تفتيش من نوع نقاط التفتيش الجمركي. مررت دون أية مشاكل، كان لدي جواز سفر أمريكي وتأشيرة دخول صالحة. بينما واجه سهيل الكثير من المشاكل، إذ لم يكن مواطنا أمريكيا، كان يحمل فقط تصريح دخول إلى الولايات المتحدة، بالإضافة إلى تأشيرة لبنانية صالحة لمدة ثمان وأربعون ساعة، وكانت مدة صلاحيتها منتهية بطبيعة الحال. نظر المسؤول إلى سهيل: "لقد تجاوزت مدة التأشيرة، أنت في حالة انتهاك للقانون". كنا مصدومين. كنا قادمين من بيروت، ولم يكن هناك قانون، بل كان هناك حصار. أخيرا، أدركنا أنه كان ينتظر الحصول على رشوة، وطلب ١٢٥ ليرة، وكان صريحا جدا في هذا. لكننا استطعنا مساومته حتى قبل بتخفيض المبلغ إلى خمسة وسبعين ليرة.

أخيرا، وصلنا إلى الحدود السورية. أراد السوريون فتح وتفتيش كل الحقائب التي كانت بحوزتنا، وجاء دور حقيبة سهيل التي عثروا فيها على بعض الرصاصات الفارغة. لقد غضبت جدا. كنت قد قلت لسهيل بأن لا يحمل معه أي شيء قد يورطنا، الآن، ها هم السوريون قد انتابهم الشك، وقاموا بتفتيشنا جميعا بدقة، وقاموا بمصادرة المذياع الخاص بي. أخبروني بأنه بإمكاني إعادة استلامه عند مغادرتي البلد. في نهاية المطاف، أعطيتهم المذياع، لأنهم أخبروني بأن علي أن أدفع الجمرك، حتى وإن كان مذياعاً قديماً. انتقلنا بعدها إلى مراقبة الجوازات. استعملت جواز سفر الأردني، لأن سورية لا تشترط تأشيرة دخول على المواطنين الأردنيين. وقاموا بإعادة الكرة فيما يتعلق بتصريح الدخول الخاص بسهيل، ومن جديد كان عليه أن يخلص نفسه بدفع رشوة من جديد للقائمين على نقطة الحدود السورية. بعد تكاليف السفر هذه للمرور عبر الحدود العربية، قرر سهيل السفر جوا إلى الولايات المتحدة، إذا، ذهب سهيل إلى الولايات المتحدة وذهبت أنا إلى عمان.

دروس وعبر من لبنان

كنا نتصور ما كان ينبغي على العالم العربي فعله لمساعدتنا عندما كنا تحت الحصار في بيروت. حتى قبل أن نصل إلى دمشق، على طول الحدود السورية، شعرنا بأن ما من أحد هناك مهتماً بحقيقة أننا خارجين للتو من جحيم ٨٨ يوما من العيش تحت الحصار. بدلا من أن يعاملوننا على الأقل بلطف وبنوع من المجاملة أو الدعم الودي، كانوا ينظرون إلينا وكأننا مجرد سياح عاديين نقوم بزيارة إلى سورية، حيث قاموا بجباية الرسوم الخاصة للحصول على تأشيرة الدخول، كما قاموا بتفتيش حقائبنا بالكامل، ووصل بهم الأمر بفرض الرسوم الجمركية على مذياعي القديم. لم يكن لديهم الشعور بأنهم كانوا في الواقع على وعي تام بالمعاناة التي مر بها الناس في بيروت، لم يكن هناك ما يوحي بادراك ما قد حدث في بيروت. لقد كنت مندهشا حقا، على الصعيد الملموس لسلوكهم وردة فعلهم. وصدمت أكثر، لما رأيت كيف كانت الحياة طبيعية في دمشق نفسها. بالطبع، ليس هناك من سبب يجعل من الحياة في دمشق غير طبيعية؛ بعد كل هذا، لم تكن سوريا في حالة حرب. ولكني، كنت أعتقد بوجود وعي أكبر بكثير للهجوم الكبير والخطير الذي شنته إسرائيل على لبنان وأيضا على الجيش السوري. بهذا المعنى، لم استطع أن أصدق طبيعية الحياة في دمشق؛ في الأسواق، في التعامل مع الفنادق وهلم جرا.

لقد شكلت دمشق، إلى حد ما، المكان الآمن، أو "غرفة تخفيف الضغط" حيث بدأنا الاسترخاء قليلا، لأننا لم نتمكن حتى من التعبير عن المعاناة الهائلة التي بنيت في داخلنا نتيجة لما عشناه تحت الحصار. شعرنا بالمعاناة الكبيرة جراء نقص الماء والكهرباء، جراء الغارات الجوية، جراء القصف المستمر وجراء قذائف المدفعية. سيطرت علينا جميعا حالة من الهلع الشديد نتيجة لكل هذا، لا سيما من الهجوم على بيروت واحتلالها في نهاية المطاف من قبل الجيش الإسرائيلي. كانت تلك اللحظة، كما لو كنا ندخل مكانا غير عربي بالكامل، باستثناء حقيقة أنهم كانوا عربا. اعتقدنا بأنهم كانوا على علم بمصابنا ونكستنا وآلامنا وغير ذلك مما أصبحنا فيه، وأن هذا سينعكس حتما على سلوكهم وطبيعة ترحابهم واستقبالهم لنا، أو من خلال معرفتهم من وجودنا هناك. في الواقع، كل هذه الأشياء لم تكن موجودة.

بعد ذلك وصلنا إلى الحدود الأردنية. كان لديهم، هناك، نظاما لم أكن قد رأيته من قبل، لأنني

ببساطة لم يسبق لي أن سافرت عبر هذا الطريق. بداية، تتم مقابلتك من قبل ضابط مخابرات قبل أن تصل إلى مكتب أو شباك الجوازات، المسافة بينهما قد لا تتعدى العشرين قدما، وهناك يقومون بتفتيش السيارة إذا كنت قادما بالسيارة. لقد وصلنا بسيارة أجرة معروفة لديهم. كان بحوزتي عندما دخلت الأردن جواز سفر أردني إضافة إلى جواز سفر أمريكي. كنت استخدم جواز السفر الأمريكي عند دخولي إلى لبنان، حيث كان لدي تأشيرة دخول. عندما غادرت لبنان، استخدمت جواز سفري الأردني لدخول الأراضي السورية، لأن السوريين لا يشترطون على الأردنيين الحصول على تأشيرة الدخول بسبب "الوحدة العربية". عندما غادرنا الأراضي السورية، قام السوريين بطبع الجوازات بختم الخروج، ومن ثم جئنا إلى الأردن.

التقى ضابط المخابرات بالآخرين قبل أن يقوم بإرسالهم جميعا إلى شباك مراقبة الجوازات. أراد التحدث إلي كوني أحمل جواز سفر أردني. كنا في سيارة واحدة، منذ أن تركنا سهيل وثلاثة آخرين في دمشق، لأنهم أرادوا العودة والسفر جوا من هناك. كنت برفقة الفتاتين اليونانيتين وغريس، شقيقة إدوارد الصغرى؛ هكذا كنا ثلاثة فتيات وأنا. قام ضابط المخابرات بإرسال الفتيات الثلاث التي كن يحملن جوازات سفر أجنبية إلى مراقبة الجوازات دون تأخير، ومن ثم بدأ يتحدث إلي. سألني من أين جئت، أجبته أنني كنت قادما من سوريا وقبل ذلك من لبنان. سألني عن ما كنت أفعل هناك. لهذا، قلت أنني أستاذ في إجازة. سألني إذا ما كنت أدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت، أجبت بلا، وقلت أنني كنت أقوم بعمل بحث حول التعليم. استمر بطرح الأسئلة، وبعد فترة قال: "أمتأكد انك لست عضوا في منظمة التحرير الفلسطينية؟". لم يكن لدي أي فكرة لماذا تحدث عن منظمة التحرير، وقلت التالي: "بالطبع، لست عضوا في منظمة التحرير، ولست على علاقة معهم". فكرت في نفسي أن منظمة التحرير الفلسطينية أصبحت منبوذة وتهمة بحد ذاتها، ليس فقط للإسرائيليين ولكن لهذا الضابط الأردني أيضا. أعني، أنني كنت أستاذا في إحدى الجامعات الأمريكية وكان يعرف ذلك، ولكنه استمر بسؤالي: "أنت متأكد أنك لست متطوعا في منظمة التحرير الفلسطينية؟". طلب مني أن أريه كم لدي من المال. لهذا، أظهرت له أن لدي بعض المال بالعملة اللبنانية، ومثلها بالعملة السورية وقليل من الدنانير الأردنية، ومجموع ما لدي كان ضمن الكمية المعقولة المسموح بها. ثم ظننت أنه لربما يعتقد أنني مبعوثا لمنظمة التحرير الفلسطينية،

وكنت أقوم بنقل الأموال وتهريبها. واستمر بالاحتفاظ بجواز سفري، وبدا واضحا أن شيئا ما كان يضايقه حول هذا الموضوع. وقام بطرح المزيد من الأسئلة، لقد كان في حالة من القلق الشديد، وكأن هناك شيئا ما على خطأ. في نهاية المطاف، توقف عن التحقيق وطرح الأسئلة، ووقف أمام ذلك المكتب، ينظر إلي ويراقبني عندما عبرت إلى قسم الجوازات. شيء ما بقي غامضا لديه، لكنه لم يعرف ما الذي كان يبحث عنه.

فهمت سبب قلقه، حينما قمت بتسليم جوازي إلى الضابط المسؤول؛ لم يشاهد أي ختم لبناني على جواز سفري، كيف تمكنت إذا من دخول لبنان؟ وقد قلت له أنني قادم من هناك. هذا هو سبب اعتقاده انه قد تم تهريبي إلى لبنان من سوريا. لم يكن هناك ختم دخول إلى سوريا. لربما اعتقد أنني كنت واحدا من كوادر منظمة التحرير الفلسطينية وأنني دخلت كلا من سوريا ولبنان بطريقة غير شرعية. لم يتمكن من حل لغز العنصر المفقود. عندما فهمت هذا، كنت آمل فقط أن لا يؤخرني ضابط الجوازات كثيرا، حيث يمكن لضابط المخابرات أن يعود مجددا وأن يقوم بطرح المزيد من الأسئلة. لم يكن هناك خطأ فيما فعلت، لكن في ذلك الوقت لم يكن يسمح للأردنيين بحيازة جوازات سفر أمريكية.

تمكنت من الوصول إلى عمان، ولاحظت أنها كانت طبيعية أيضا. لذلك، كانت الصورة التي لدي حول ما يشهده العالم العربي في مواجهة هذه الأزمة قد تغيرت بالكامل. لم أتمكن من معرفة لماذا كانت الحياة طبيعية جدا إلى هذا الحد. وصلنا إلى عمان للتو، قادمين من هذه التجربة المؤلمة والمريرة، وليس هناك من أستطيع مشاركته مشاعري في عمان. كانوا يتساءلون عما حدث وكيف استطعنا الوصول إلى عمان والقول: "ماذا كنتم تفعلون عندما تمكن هؤلاء الأوغاد، الإسرائيليون، من دخول بيروت؟". لكني لم ألحظ هناك أي نوع من التعاطف مع ما مررنا به. بقيت في عمان مدة ثلاثة أيام قبل أن أتمكن أخيرا من أخذ الطائرة والعودة إلى الولايات المتحدة. لقد وافق موظفو شركة الخطوط الفرنسية على قبول التذكرة التي لدي والتي كانت مدة صلاحيتها القانونية قد انتهت. قلت لهم بأنني كنت تحت الحصار، وبالتالي، لم يكن بإمكاني الطيران بسبب إغلاق المطار. وقاموا بتسهيل سفري إلى باريس، حيث قمت بتغيير بطاقة الطائرة والذهاب إلى شيكاغو.

في شيكاغو، كان علي معاودة التفاوض بشأن عقدي مع الجامعة؛ كنت قد حصلت على إجازة لمدة

عام ونصف، ولم أستهلك سوى ربعها. لقد قاموا بالتعاقد مع أساتذة بدلاء آخرين. وكان العميد، بالرغم من حقيقة كونه يهوديا، متعاونا، وعدت وحصلت على عملي من جديد.

كان السؤال الذي يطرح نفسه هو: "ماذا أفعل بهذه التجربة؟ ما الذي تعلمته من ذلك؟". لقد لخصتها وساعدت في انجاز عدد خاص من مجلة دورية في بريطانيا واسمها "ريس آند كلاس" (Race & Class)، لقد قمنا بعمل طبعة خاصة حول لبنان، حيث كتبت عن تجربتي الشخصية تحت عنوان "حصار بيروت". وكان الطيباوي هو المحرر المشارك معي في هذه الطبعة الخاصة، والتي كانت طبعة جيدة وشاملة. ما هي العبر والدروس المستفادة من بيروت؟ بداية، وضوح القضايا ووضوح الأهداف. كان العداء بيننا وبين الإسرائيليين مدهشا لجميع قطاعات السكان. كان من بين الأشياء التي تعلمتها في بيروت أن الفلسطينيين قد قاموا بعمل جيد تحت الحصار على الرغم من حقيقة أننا هزمنا. كان هناك تفاوت هائل في القوة بين الفلسطينيين والإسرائيليين. كان صراعا بين الرجل ضد الآلة، صراعا فازت فيه الآلة؛ إذا كنت تمتلك الآلات، وهذا ما كان يملكه الإسرائيليين، بإمكانك إلحاق أضرار لا تصدق. لم أر أبدا مظاهر للقدرة والتضامن كتلك التي رأيت في بيروت في ذلك الوقت.

كان الدرس الثاني، والذي ينبغي أن يُعترف به حقا بشكل علني وبأكبر قدر من الوضوح، ذو علاقة مع تضامن الشعب اللبناني معنا في بيروت. قام الإسرائيليون بإعطاء كميات هائلة من المعلومات الخاطئة حول حفاوة الاستقبال الذي لقوه من قبل اللبنانيين. لقد قالوا إن اللبنانيين استقبَلوهم برش الأرز تعبيرا عن فرحتهم وليرحبوا بهم كمحررين لهم من الفلسطينيين، منظمة التحرير الفلسطينية وما يطلق عليه "بالهيمنة الفلسطينية". ومهما كانت المظاهر لدعم مثل هذه الادعاءات، ينبغي التشديد على أنه من دون دعم الشعب اللبناني في بيروت، لكان دفاعنا قد انهار في غضون أقل من أسبوع. من المهم أن نتذكر أن بيروت هي مدينة لبنانية وليست مدينة فلسطينية، وبأن الفلسطينيين كانوا يشكلون أقلية.

قدّم الإسرائيليون للبنانيين كل الحوافز لتشجيعهم على التمرد والانقلاب ضد منظمة التحرير الفلسطينية، وقاموا برمي المنشورات التي تحث السكان اللبنانيين على مغادرة المدينة من الجو، محذرين من خلالها بأنهم سيقومون بتدميرها كليا. وقالوا أن هدفهم لم يكن تدمير المدينة على هذا

النحو، ولكنهم يريدون القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، وطرد هؤلاء "الإرهابيين الذين يرعبون سكان بيروت". أعتقد أن اللبنانيين فضلوا حفر قبورهم على أن يرحلوا، لأن هذه هي منازلهم، بيروت مدينتهم، ولن يأخذوا الأوامر من الإسرائيليين. ليس لأنهم كانوا يودون تقديم الدعم لنا على وجه الخصوص، لكن الحقيقة أنهم لم يأخذوا بتصريحات الإسرائيليين على محمل الجد، وبالأساس عصيانهم للإسرائيليين، ساعدنا. حقيقة إنهم لم يقوموا بمضايقة الفلسطينيين أو الطلب منهم مغادرة بيروت هو شكل من أشكال الدعم.

من المهم أن نعرف حقيقة أنه في الوقت الذي اتخذت فيه القيادة الفلسطينية القرار بالمغادرة، طلب اللبنانيون من منظمة التحرير الفلسطينية مغادرة بيروت. القول المأثور لماو تسي تونغ، Mao Tse Tung، كان "السمكة والبحر"؛ ليس هناك شك حول حقيقة أننا كنا نمثل السمكة واللبنانيين كانوا هم البحر. لا أريد أن أقول هنا، أن اللبنانيين قد أحبونا أو كانوا مولعين بنا، لا علاقة لهذا الأمر حيال ذلك. أعتقد أنها كانت الحالة التي كان يدرك فيها الشعب اللبناني أن إسرائيل هي المعتدية، وأن إسرائيل هذه هي التي تهاجم بلدهم، حتى وإن كان الفلسطينيون، هم الهدف، من الناحية النظرية، إلا أن جل الخسائر وأغلب القتلى والجرحى من اللبنانيين. أعتقد أنهم فهموا ذلك بوضوح، بالإضافة إلى دفعهم الثمن غاليا في نهاية المطاف.

بحلول شهر آب/ أغسطس، كان اللبنانيون قد تعبوا من الحالة الذي وصلوا إليها. أتذكر جيدا القيادة اللبنانية، الذين كانوا حلفاءنا، والذين كنا نطلق عليهم الحركة الوطنية المشتركة، قالوا لأبو عمار: "يكفينا ما نحن فيه، سنظل نقاتل الإسرائيليين وجها لوجه، لكننا نعتقد أنه من المهم للفلسطينيين مغادرة بيروت". كان هذا عندما قرر الفلسطينيين قبول عرض فيليب حبيب والاتفاقية التي فرضها على منظمة التحرير الفلسطينية. كان قادرا على فرض الحل على منظمة التحرير، بسبب أن القيادة الفلسطينية كانت تعرف بأنها لم تعد قادرة على الصمود والبقاء طويلا في لبنان. أضف إلى ذلك، أنه لا الحركة اللبنانية ولا الوضع الداخلي في لبنان سيسمحان للفلسطينيين بالبقاء والاستمرار في القتال على حساب لبنان. أعتقد انه ينبغي علينا تذكر حقيقة، أن التضامن اللبناني معنا، جعل صمودنا ونجاتنا من الحصار ممكنا؛ هذه هي واحدة من الاستنتاجات.

الاستنتاج الآخر الذي توصلت إليه، والذي آمل أن يكون واضحا كما عُرض في المقالة التي كَتبتُ عن

حصار بيروت، هو أنه لا يمكن للمسألة الفلسطينية أن تحل من خلال العنف. والضرر الذي يحدثه الحل العسكري لكلا الشعبين يجعل من الصعب تحقيق التحرر الفعلي. يمكن للأعمال العسكرية تحقيق الدمار، لكنها لن تجن أبدا الاستسلام من الشعب الفلسطيني. والعكس هو صحيح، كذلك. ليس المشكلة في القوة التي يستطيع الفلسطينيون الحصول عليها، حيث لا يمكنها أن تحقق استسلام الإسرائيليين. لا هم يستطيعون فرض إرادتهم، ولا نحن بقادرين على فرض إرادتنا. لذلك، علينا البحث عن طريقة أخرى تمكننا من التوصل إلى حل يُمكّن كلا الشعبين القبول به والتعايش معه.

القضية الثانية التي عدت بها، والتي لا تزال عالقة في ذهني، هي حجم الأضرار الكبيرة التي تسبب بها الإسرائيليون للفلسطينيين واللبنانيين على حد سواء. كانت لديهم أسلحة خيالية: القنابل، القنابل العنقودية وجميع أنواع الأسلحة المدمرة. يتحدثون عن أسلحة الدمار الشامل، والتي هي بالتأكيد بحوزتهم. لقد عايشت وشاهدت القدرة لشعب أعزل على الصمود ومقاومة هذا النوع من العقاب. لقد عايشت أيضا الآلام والأذى الذي تسبب به الإسرائيليون للأطفال، للكبار، لجميع الذين لم يشاركوا في القتال. رأيت الخوف في عيون الأطفال وشاهدت الطوابير الطويلة للأطفال الحاملين للدلاء، كلٌ ينتظر دوره للحصول على الماء، في الوقت الذي كانت فيه المياه شديدة الندرة. رأيت الدمار والقذارة التي سببتها الغارات الجوية، وتركت في مكانها بسبب عدم وجود المؤسسات لتنظيف وإزالة الأنقاض. والحجم الهائل في الخسائر البشرية التي رأيتها نتيجة لذلك، جعلتني أعاود التفكير في الكثير من القضايا، بما في ذلك معنى الكفاح المسلح، ومن الذي يدفع ثمن الكفاح المسلح؟ في الواقع، لم أتوصل أبدا إلى أية نتيجة حول هذه المسألة.

بعد عودتي، تجولت في مختلف أنحاء الولايات المتحدة وتحدثت عن تجربتي، وكنت أقوم بعرض صور الدمار في كل محاضرة أقوم بإلقائها. أتذكر انه تم تنظيم مؤتمر صحفي لي في ديترويت بولاية ميشيغان، وكانت السيدة جيسيكا ميتشل، Jessica Mitchell، من قام بترتيب هذا المؤتمر الصحفي، حيث كانت حينها في جامعة ميشيغان. كانت المسؤولة في المجلس المحلي للجنة الأمريكية العربية لمكافحة التمييز في ديترويت بولاية ميشيغان. لقد نظموا لي كي أقوم بإلقاء محاضرة، ومؤتمرا صحفيا، وعمل مقابلات مع الصحافة الحرة في ديترويت. أتذكر أن أحد المراسلين سألني: "كيف تلخص تجربتك في بيروت؟ وما هي النصيحة التي تود قولها؟". قلت التالي: "لست متأكدا إذا

ما كان باستطاعتي القول بهذه الطريقة، لكن هذا النوع من الحرب الذي شنه الإسرائيليون ضد الفلسطينيين، ورغم ما تسبب به هؤلاء من أذى ودمار بحقنا، ورغم ما أحدثوه من خوف لدى أطفالنا، لا أريد الانتقام منهم بالطريقة إياها. كان الأمر مروعاً للغاية على مستوى تجربتنا، بحيث لا أريد أن أتمناه لعدوي". لذا، كان السؤال الذي طرحته على نفسي هو ما إذا، في محاولتنا للوصول إلى أهدافنا، كان علينا اللجوء إلى نفس التدابير التي لجأت إليها إسرائيل لتحقيق ذلك. ليس لدي جوابا حتى هذه اللحظة، لكن هذا كان درسا من دروس بيروت.

لذلك، أنا متردد في حث الناس وتشجيعهم للقيام بذلك، على الرغم من أنني متأكد انه باستطاعتي أن أفعل ذلك علانية وصراحة، لحل المشكلة الفلسطينية عن طريق الحل العسكري. أعتقد أن ذلك مستحيلا، لا يمكن أن تحل المشكلة الفلسطينية عسكريا. الأضرار التي قد تحدثها اللقاءات العسكرية لكلا الشعبين لا يمكن لها بأي حال من الأحوال تحقيق التحرر الفعلي. كان هذا الذي قادني في نهاية المطاف نحو الإيمان بفكرة أن ليس هناك حل عسكري للصراع العربي الإسرائيلي. إسرائيل، دولة قوية جدا، وحتى اليوم، لم تتمكن من تحقيق استسلام الفلسطينيين. والعكس هو الصحيح. ليس المشكلة في حجم القوة التي تمكن الفلسطينيون من الحصول عليها، بغض النظر عما إذا كانوا يريدون استخدام هذه القوة أم لا، لا يمكنهم إجبار الإسرائيليين على الاستسلام عن طريق هذا الخيار. كما أنهم لا يستطيعون فرض إرادتهم، في نهاية المطاف، لا يمكننا أن نفرض إرادتنا. لذلك، علينا إيجاد طريقة للتوصل إلى حل يمكن كلا الشعبين العيش من خلاله.

هذا هو التحدي. لقد قلت ذلك في وقت لاحق من محاضراتي في كل من ايداهو، Idaho، وساوث داكوتا، South Dakota. بداية، قلت انه لا يوجد حل عسكري للصراع بين العرب وإسرائيل. ثانيا، دعوت لنزع السلاح كليا من منطقة الشرق الأوسط، وقمت بحث ومطالبة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بحظر جميع شحنات الأسلحة عن كافة الأطراف في الشرق الأوسط. ورُفِضَ هذا الطلب صراحة من قبل فيليب حبيب في المؤتمر نفسه. اقترحت بأن تتقدم الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأمم المتحدة بمشروع طلب لفرض حظر بيع للأسلحة على جميع بلدان الشرق الأوسط، في محاولة لخفض مستوى الصراع. قلت إن الدول العربية وإسرائيل لا يمكنها خوض حروب من دون الحصول على الأسلحة التي يتم تزويدها بها سواء من خلال الولايات

المتحدة أو الإتحاد السوفيتي. لذلك حثثت على هذا الحظر في ذلك المؤتمر. لكن فيليب حبيب عارض هذا الحظر، وقال أن هناك مصالح أمنية مشروعة لبعض البلدان والتي تعهدت الولايات المتحدة بضمان تزويدها ومدها بالأسلحة "وبالتالي لدينا التزام بتزويدها بالوسائل اللازمة للحفاظ على أمنها". بالطبع، كان يعني إسرائيل بالإضافة إلى بعض الدول العربية، التي كانت تعتمد على الولايات المتحدة، لقاء استمرار تزويدها بالنفط.

هذا ما تعلمته من حصار بيروت. في مناقشة الأهداف الإسرائيلية من التورط بتلك الحرب، كانت هناك العديد من الأفكار التي تمت صياغتها. كانت واحدة من هذه الأفكار تقول بأن الحرب كانت تهدف إلى تدمير القومية الفلسطينية. والفكرة الأخرى هي أن إسرائيل كانت تنوي عزل الضفة الغربية وقطاع غزة، بحيث تصبح إسرائيل حرة. ووفقا لهذه الفكرة، فإن تدمير منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان سَيُمَكّنُ إسرائيل من السيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة بشكل لا لبس فيه. هناك الكثير من التأويلات. على وجه الخصوص، أعتقد أنه كان هناك هدف مقنع جدا لتلك الحرب؛ الهدف هو أن نقول للفلسطينيين بأن لا أمل على الإطلاق بتحقيق الاستقلال في فلسطين. كان الهدف الأساسي للضرر الذي يحاول الإسرائيليون إلحاقه بالفلسطينيين كنتيجة للحرب، والوحشية الهائلة لسلوكهم، والعقوبة التي أنزلت على الفلسطينيين، هو القضاء على أمل الاستقلال والسيادة والتحرير المتجذر عند الفلسطينيين. قلت هذا الكلام علانية في اجتماع المجلس الوطني في الجزائر: "إن الغاية من الحرب، ومن ثم، طرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت وتدمير بنيتها التحتية، والعقاب الذي استطاعوا إلحاقه بالفلسطينيين، تصب كلها في اتجاه يجعلنا نفقد أي أمل ممكن في استرداد حقوقنا الوطنية"، وأعتقد انه في وقت لاحق أصبح هذا واضحا من خلال تصرفاتهم عندما كانوا يحاولون إخماد الانتفاضة والقضاء عليها بكل الوسائل. من خلال الضرر الذي ألحقوه بنا، كانوا يحاولون إخبارنا بان ليس لدينا أي أمل على الإطلاق في تحقيق الاستقلال وإقامة الدولة الفلسطينية. أعتقد أنهم لا زالوا يصرون على ذلك، على الرغم من جميع الاتفاقيات، سواء كان اسمها مدريد أو أوسلو، الغاية الأساسية والشاملة لإسرائيل لا تزال تكمن في منعنا من تحقيق الاستقلال، على ما أعتقد.

الثورة من خلال التعليم

بدأ اهتمامي في المنهاج الفلسطيني عندما كنت في بيروت في سنوات السبعينيات، وكانت وسيلة للمساهمة في الثورة. لم يكن هناك مكان يستطيع فيه الفلسطينيون التأثير ولعب دور أساسي في المنهاج التعليمي الخاص بهم، لأنهم كانوا محتلين من قبل هذا البلد أو ذاك، بالإضافة إلى انه لم يكن لديهم السلطة السياسية. لذا، لم نتمكن من التأثير في المناهج التعليمية في تلك البلدان.

وضَعتُ وبعض الزملاء نظاما لتأهيل المعلمين من خلال التدريب. وأعطِيَت لنا مدرسة داخلية للقيام بذلك التدريب. كان لدينا كلية ونحو ثلاثين من الأساتذة الذين قاموا بإعطاء المحاضرات، وكانت كل دورة تدريبية تستمر على مدار يومين. لقد كانت تجربة فريدة من نوعها لجميع المعنيين. تمكن المعلمون من الوصول إلى العديد من المواد التعليمية ذات الأهمية الكبيرة والمتعلقة بفلسطين، ولم تكن مواد دعائية أو تشهيرية. تعلموا عن مشكلة اللاجئين، وعن النضال الفلسطيني، وعن المدن الفلسطينية، وعن الثقافة والاقتصاد. ودربنا كذلك المعلمين على كيفية الوصول إلى المزيد من المواد التعليمية والعلمية وكيفية الاستفادة منها وإعادة استخدامها.

لقد ولدت فكرة الجامعة المفتوحة في واحدة من الدورات التدريبية تلك في العام ١٩٧٥ – ١٩٧٦؛ أردنا إنشاء جامعة فلسطينية، وأعجبت منظمة اليونسكو بالفكرة وطلبت عمل دراسة الجدوى حول الموضوع. عملت مع عدد من الناس الجيدين على إعداد هذه الدراسة، وتمكنا من انجاز الدراسة التي اشتملت على ١٥٠٠ صفحة. قدمنا الدراسة إلى المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو، والذي عقد وقتها في مدينة بلغراد. وافق المؤتمر على الدراسة، وقام بحث الدول الأعضاء على دعم إنشاء جامعة فلسطينية مفتوحة لتلبية الاحتياجات التعليمية لجميع الفلسطينيين. حتى الولايات المتحدة وإسرائيل قامت بالتصويت لصالح الاقتراح بشرط ألّا توجه الأموال من خلال منظمة التحرير الفلسطينية.

في تشرين ثان – نوفمبر من العام ١٩٨١، عدت إلى جامعة نورث ويستيرن للتقدم بطلب الحصول على إجازة علمية بهدف إنشاء الجامعة المفتوحة. وكانت منظمة التحرير قد طلبت مني الذهاب إلى بيروت، مقر الجامعة. كنا نظن بأن حماية كل جامعة تقع على عاتق الدولة التي تنتمي إليها الجامعة. وبما انه لم يكن لدينا دولة، كان يتوجب حماية مؤسستنا من طرف منظمة التحرير الفلسطينية. لذا، عدت إلى بيروت في نهاية العام ١٩٨١. استغرق الأمر بعض الوقت، لأن منظمة التحرير

الفلسطينية، كانت مثل أي بيروقراطية أخرى، إذ كانت الأمور الإدارية فيها تتقدم ببطء شديد. اضطررت إلى تمديد إجازتي من الجامعة لمدة سنتين إضافيتين من أجل إنشاء الجامعة المفتوحة. وأخيرا حصلت الجامعة المفتوحة على موافقة جميع المجالس في منظمة التحرير الفلسطينية، وعُينتُ الرئيس.

كانت مهمتنا الأولى تتمثل في البحث عن الحرم الجامعي، ومن ثم توظيف فريق المؤسسة. في دراسة الجدوى، كان هناك خطة للتنفيذ، لذلك، كنت أعرف بالضبط ما كان ينبغي القيام به. بالنسبة للحرم الجامعي، كنت قد وُجهت نحو قرية شيملان، التي تقع على بعد ٢٠ كم من بيروت؛ تعتبر شيملان قرية لطيفة في المنطقة الدرزية، وكان المبنى الذي وُجهنا إليه يعرف باسم "مدرسة الجواسيس"، وقد تم تأسيسها من قبل البريطانيين لتكون بمثابة مركز لتدريب الضباط الأجانب والمخابرات على اللغة والثقافة العربية. كان هؤلاء الضباط مُعَدين للعمل كجواسيس في العالم العربي، وكان جميع المدربين من العناصر العربية والبريطانية، والذين كانوا يقومون بعمل وبتدريب ممتاز. بالمناسبة، ريتشارد ميرفي، Richard Murphy، كان قد تلقى تدريبه هناك قبل أن يتبوأ عدة مناصب مهمة في الخارجية الأمريكية.

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى هناك، كانت المدرسة قد انتقلت بالفعل، وكان المالك على استعداد لبيع المبنى والأرض. وقد أكِدَ لي أنه نتيجة للمفاوضات بين وليد جنبلاط وياسر عرفات سيسمح لنا بشراء الأرض. كان علينا بداية الحصول على هذا الإذن من جنبلاط، من أجل الالتزام بحكم غير مكتوب ينص على أنه لا يمكن لأي فلسطيني شراء أرض على هذا الجبل من دون موافقة صريحة من جنبلاط. للأسف، ففي غضون بضعة أشهر، اتخذ الغزو الإسرائيلي للبنان مكاناً، ولم ننتقل أبدا بجامعتنا إلى الجبل.

شكل الغزو الإسرائيلي للبنان ضربة قوية للمشروع. كانت المرة الأخيرة التي عملت فيها عليه، يوم ٢٥ حزيران – تموز ١٩٨٢، عملت في ذلك اليوم في شقتي، لأن مبنى اليونسكو أصبح يشكل موقعاً لمدفعية الجبهة الشعبية من الجانبين، وكان هدفا للغارات الإسرائيلية. واليوم الذي توقفت فيه عن العمل كان اليوم الأول من القصف الدموي لبيروت، حيث ضُربنا بالصواريخ؛ قاموا بضربنا بصواريخ يريحو، Jericho، الإسرائيلية الصنع، كنت أراها قادمة من فوق البحر، وكنت أستطيع

أن ألمح الضوء المنبعث منها.

بعد بيروت، واصلت العمل على موضوع الجامعة المفتوحة. ذهبت إلى تونس في كانون أول– ديسمبر ١٩٨٢، لكني قررت عدم الاستمرار في هذا المشروع، الذي كان قد انتقل إلى الأردن؛ وكان الملك حسين قد قال لعرفات إنه يرحب بمشروع إقامة الجامعة المفتوحة في عمان. أراد عرفات التأكيد على دعوة الملك حسين، لذلك قام بإيفادي برفقة حنا ناصر إلى الأردن للقاء ولي العهد الأمير حسن. كان من الواضح أن حسن لم يدعم رؤية الجامعة المفتوحة، وقال إنه لا يعترض على توفير المواد التعليمية للمؤسسات في الضفة الغربية، ولكن لا يمكننا تنفيذ نظام التعليم المفتوح في الأردن؛ كان يرى أن الجامعة المفتوحة يجب أن توجه للفلسطينيين في فلسطين نفسها. لم أوافق على فكرة تقييد الجامعة. ذهبت بعدها إلى السيد عرفات وقدمت استقالتي.

منذ عام ١٩٤٨، لم يكن للفلسطينيين سلطة وطنية كما أننا لم نكن على أرضنا. كنا رهن المناهج التعليمية للدول التي كنا نعيش فيها؛ استخدم الفلسطينيون في الأردن والضفة الغربية المنهاج التعليمي الخاص بالأردنيين، وفي غزة، استخدم الفلسطينيون المنهاج المصري. في الواقع، لا يوجد مكان في العالم، يستطيع فيه الفلسطينيون من تعليم أبنائهم عن طريق المناهج الوطنية الخاصة بهم. نتيجة لذلك، نظمت اليونسكو حلقة دراسية حول منهاج التعليم الابتدائي للفلسطينيين في القدس في العام ١٩٩٣. شارك في الحلقة الدراسية هذه، خبراء تعليم من اليابان واستراليا وفرنسا وألمانيا والسويد وسويسرا وفريق كامل من المعلمين الفلسطينيين والخبراء. وخرجت الحلقة الدراسية هذه باثنين من القرارات أو التوصيات؛ الأول أوصى بوجوب إنشاء مركز لمناهج التعليم في فلسطين، والقرار الثاني، طالب بأن تنظم ورشة عمل أساسية حول التعليم الثانوي في فلسطين.

كان على المركز أن يبنى في مكان آخر غير فلسطين، لأن فلسطين لا تزال واقعة تحت الاحتلال. حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه القيادتان الإسرائيلية والفلسطينية تعملان على تحقيق ما أصبح يعرف لاحقا باسم اتفاق أوسلو، الذي مكّن الفلسطينيين من تنفيذ الخطط التي أقرّت في ندوة اليونسكو، مع فارق أن منظمة التحرير الفلسطينية سيكون لها المسؤولية عن التعليم في فلسطين. أخذت اليونسكو على عاتقها مهمة مساعدة منظمة التحرير الفلسطينية في إنشاء مركز المناهج الفلسطيني الذي يقع على عاتقه مهمة وضع خطة المناهج الفلسطينية المستقبلية. وافقت بأن أقوم

بتولي قيادة المركز الجديد. كنت في ذلك الوقت أعمل بالتدريس في جامعة بيرزيت، وكنت على وشك الانتهاء من فترة ولايتي في منصب نائب رئيس الجامعة. وافقت على إدارة المركز الجديد، وإن كان ذلك رغما عني. كان عليّ بداية أن أقوم بإنشاء المركز، قمت باستئجار المكتب وبتوظيف أعضاء الفريق. بلغت الميزانية للمنحة المقدمة من الحكومة الايطالية عبر اليونسكو ٣٠٠٠٠٠ دولار، وتمحورت المهمة الأساسية في وضع خطة شاملة لمنهاج وطني للتعليم العام الفلسطيني، من الصف الأول إلى الصف الثاني عشر. قمنا بوضع الخطة، وأعتقد أنها كانت خطة رائعة، وقد تم تنفيذ الكثير منها. لم تكن من مسؤوليتنا تطوير المواد التعليمية، كالكتب المدرسية، فقد تركت هذه المهمة إلى وزارة التربية والتعليم.

من المهم جدا بالنسبة لي، أن اذكر بأن قلقي مع التعليم كان ثنائياً. نحن في مرحلة بناء الدولة، ونحن بحاجة لتطوير المؤسسات من أسفل إلى أعلى. كان هذا هو الهدف من البرنامج الجديد لكلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت؛ توفير مهارات ذات مستوى رفيع للفلسطينيين ووضع الأسس المؤسساتية للدولة. التعليم مهم في تطوير نظام متماسك من القيم والمهارات والتوجهات لإعادة إدماج شعبنا المشرد. التعليم هو أحد أهم الوسائل لتحقيق هويتنا الوطنية.

الفصل التاسع

العودة إلى الوطن

كان قرار عودتي إلى فلسطين غير متوقعا من جانبي؛ لقد عشت معظم حياتي في المنفى، لكني كنت دائم التحضير لعودتي، وكنت أصر دوما على حق العودة. والعودة بالنسبة لي كانت تعني على الدوام العودة إلى فلسطين، وليس بالضرورة العودة إلى يافا.

في الواقع، لم يكن هناك أي شيء ملموس أقوم به لتسهيل عودتي إلى فلسطين. كنت أعرف تماما بأنني أعيش في المنفى، على الرغم من أنني تمكنت من بناء أسرة، وكنت ناجحا في وظيفتي، وأنني لم أكن بحاجة إلى شيء على المستوى المادي، إلا أنني كنت أشعر دائما أن هناك شيئا ما ناقص في حياتي. كان شيئاً شخصياً للغاية، لكنه أيضا سياسيا، بمعنى أن القضية الفلسطينية برمتها هي قضية طرد وتهجير؛ أن تجبر على القيام بشيء ضد إرادتك، وأن تمنع كذلك من ممارسة إرادتك. ممارسة إرادتك تعني أنه لا يمكنك اختيار العيش في المنفى.

لم أختر العيش في المنفى، بل كنت مرغما على ذلك. لم أكن مكترثا بالعيش في المنفى، كنت سعيدا وكنت في وضع جيد إلى حد ما. عملت دائما بهمة ونشاط وكان لي أصدقاء في كل الأماكن التي ذهبت إليها. كانت حياتي معقدة من حيث أماكن المنفى؛ في بعض الأحيان، كنت أشعر بأنني في منفى، وفي أحيان أخرى، لم أكن أشعر بذلك. ارتبط هذا الشعور بالأماكن التي كانت غريبة بالنسبة لي، بالمعنى الثقافي واللغوي؛ الولايات المتحدة وكندا وفرنسا. هناك، شعرت أنني كنت غريبا، غريبا تماما. من الواضح، مع كل ذلك، أني كنت قادرا على البقاء والمنافسة، من حيث الوظيفة ومن حيث بلوغ الهدف. كانت هناك أماكن للعمل وأماكن للأسرة. كل هذا كان صحيحا، لكني كنت أشعر دائما بأني في منفى. لم أكن مكترثا كوني كنت غريبا، لكنه لم يكن شيئا قد اخترته طواعية وبحرية.

كان سبب سفري عندما ذهبت في المرة الأولى إلى الولايات المتحدة، بعد أن أصبحت لاجئا، هو أنه لم تتح لي فرصة أو خيار آخر لمتابعة الدراسة، ويمكنني القول، أنها كانت مهمة واضحة

المعالم. ذهبت إلى هناك ومكثت ما يقرب من ثماني سنوات قبل أن أعود إلى العالم العربي. كانت لدي النية، عندما ذهبت إلى الولايات المتحدة، بالعودة من جديد إلى العالم العربي، بعد الانتهاء من دراستي مباشرة. وخلال السنوات الثمانية الأولى من الدراسة، لم أعد على الإطلاق، نتيجة للظروف والوضع المالي، وأيضا لأنني لم أرى أن هناك ضرورة لعودتي، على الرغم أنني كنت في حنين إلى الوطن. كنت محظوظا بالحصول على الوظيفة مع اليونسكو التي أعادتني إلى مصر مباشرة بعد أن أنهيت دراستي.

العودة إلى مصر، والعودة بغرض العمل هناك، لم يكن شيئا آخر غير العودة إلى الوطن بالنسبة لي، بمعنى أنني كنت أنظر إلى نفسي كعربي، وكنت قد نشأت مع هذه الثقافة، ومصر هي جزء من عالمي العربي الذي أنتمي إليه. لذا، كانت عودتي إلى مصر شكلا من أشكال عودتي إلى الوطن. لم يكن سبق لي وأن عشت في مصر، كنت فقط قمت بزيارتها في الماضي لمدة أسبوعين تقريبا. لذا، لم تكن بلدي بأي حال من الأحوال، لا بالمفهوم المادي ولا بالمفهوم القانوني والسياسي. لكني، شعرت أن هذه الثقافة كانت كذلك ثقافتي. اكتشفت، بطبيعة الحال، وفي وقت لاحق، الفروقات بين الدول العربية، لكن في ذلك الوقت، شعرت بسعادة كبيرة نتيجة عودتي إلى الوطن.

عملت في مصر مدة أربع سنوات، وشعرت أنني كنت أقوم ببناء الوطن القومي العربي؛ بمعنى، أنني كنت أقوم ببناء عالمنا العربي. لكني كنت واعيا ومدركا بأن مصر لم تكن دولتي. سياسيا وقانونيا، كل شيء يجعلك مدركا بأنك لست من هذه الدولة، وأنك لست جزءا من هذا البلد، على الرغم من حقيقة أنك ستشعر بالراحة في هذا البلد، إذ شعرت وكأنني في بلدي. شاركت في الأنشطة الثقافية كما لو كنت مصريا. والشيء نفسه تكرر عندما كنت في بيروت، حيث عملت لمدة عام ونصف العام. شعرت أنها كانت موطنا بالنسبة لي، تعاملت مع الناس كما لو كانوا شعبي الفلسطيني. ربما كنا نتكلم لهجات مختلفة، وندين بديانات مختلفة، لكنها كانت أيضا ثقافتي ومكاني. كما أنني لم أذهب إلى بيروت بمحض الاختيار ولكن للعمل.

شعرت كغريب في الولايات المتحدة وكندا على حد سواء؛ عندما تشعر أنك تعيش على هامش المجتمع، تشعر أنك غير كامل هناك. كنت أخشى كثيرا ما سيقوله الناس عني وأنا أستخدم لغة الجسد عندما كنت أتكلم. أحيانا كأستاذ، كنت أحصل على بيانات سيئة من طلاب يتساءلون ما

إذا كنت ذكيا بما فيه الكفاية، لماذا لم أذهب إلى بلدي وعمل شيء مفيد لشعبي؟ في بعض الأحيان، كانت هناك بعض التعليقات التي تذكرني بأنني كنت دخيل وغريب. لم أفكر أبدا، في التحليل النهائي، بأنني سوف أتمكن من إيجاد وطن. أتعامل مع وطني الذي تم احتلاله من قبل إسرائيل. الإسرائيليون هم الذين قاموا بطردي. طالما بقيت إسرائيل راسخة وقوية، بالتأكيد، لا أستطيع أن آت وأعيش تحت قبضتهم وحكمهم، حتى وإن سمحوا لي بذلك، إنها ثقافة مغايرة، ثقافة سائدة، وبالتالي، هي ثقافة قمعية. حتى لو سمح لي بالعودة في ظل شروطهم، فإنني لا أرغب في العيش تحت حكمهم. عشت في المنفى لأكثر من أربعين عاما، وطوال ذلك الوقت، لم أفكر أبدا بالعودة إلى فلسطين في ظل الاحتلال والسيطرة الإسرائيلية.

عليّ أن أفصل بين ما سبق العام ١٩٦٧ وما تلاه. كنت اعتدت على زيارة الضفة الغربية سنويا قبل العام ١٩٦٧، كنت أبقى لمدة أسبوع، أزور خلاله القدس والخليل ونابلس، حيث كنت التقي ببعض الأصدقاء والأقارب. كانت الضفة الغربية جزءا من الأردن، ولم يكن لدي رؤية جيدة للنظام السياسي المسيطر عليها. لم أذهب إلى غزة، بما أنه لم تكن لدي النية لزيارتها، لكني، بقيت على اتصال مع الضفة الغربية حتى العام ١٩٦٧. لكن الأمر تغير ابتداء من العام ١٩٦٧، أريد أن أقول، أنه لم يحصل وان عدت إلى الضفة الغربية، حتى للزيارة. لقد انقطعت عن زيارة فلسطين كليا، ليس فقط من مناطق ٤٨، ولكن أيضا من مناطق ٦٧. كان ذلك خلال الفترة التي كنت فيها في الولايات المتحدة، عندما قمنا بتأسيس جمعيتنا، وبدأنا القيام بحملات ونشاطات سياسية من أجل تحرير فلسطين. بهذه الطريقة، أصبحنا ناشطين في سياق النضال الوطني. بكل وضوح، كانت واحدة من المهام التي تنتظرنا تكمن في الحصول على التحرر الوطني. كنت اقتنعت بأننا على الطريق الصحيح وأنه حتما في اللحظة المناسبة سنتمكن من تحرير فلسطين. حينها، باستطاعتي أن أكون قادرا على ممارسة حقي في الاختيار إذا كنت أرغب في العيش في فلسطين أو في مكان آخر.

أتذكر مناظرة شاركت فيها مع المدير العام السابق لمكتب رئيس الوزراء عندما كانت غولدا مائير، Golda Meir، رئيسة للحكومة الإسرائيلية، كان اسمه يعقوب هيرتسوغ، Jacob Herzog، وكان حاخام ومحامي. كان يقوم في جولة في الولايات المتحدة في خريف العام ١٩٦٨، على ما أظن. ظهرت على شاشة التلفزيون معه ضمن برنامج يطلق عليه "ذي كوبزينتس شو"، The

Kopzinets Show، والذي كان يقدمه الصحفي ايرفينغ كوبزينتس، Irving Kopzinets. وكان برنامجا من تلك التي كانت تنتج لتوزع على أكثر من محطة بث، وربما كان يشكّل هذا البرنامج التلفزيوني، البرنامج الأكثر شعبية في شيكاغو. كان يطلق عليه برنامج "ذي آرت أوف أن ريهيرست كونفيرسيشن"، The Art of Unrehearsed Conversation، أو "فن المحادثة التلقائية". كان ايرفينغ كوبزينتس صحفيا يهوديا وكان ذكيا جدا. بطبيعة الحال، كان لديه الكثير من البحوث حول ما كان يسميه برنامج "تلقائي". بالإضافة إلى هذا، كان مساعدوه يمدونه ببعض الايضحات والملاحظات المتعلقة بموضوع الحلقة من خلال قصاصات الورق التي كانت تمرر إليه. في هذا البرنامج، يقوم بوضع شخصين لمناقشة فكرة مثيرة للجدل، حيث أنها تسجل بشكل منفصل، ليقوموا بعدها بالالتقاء ببعضهم البعض في البرنامج إياه على شاشة التلفاز. كان هذا اللقاء هو الأول لي الذي أتعرض فيه لنوع من الحوار الوطني، وخصمي لم يكن سوى أحد المسؤولين في مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي. كان في الواقع، أكثر موجها في مواقفه وأكثر انتقاء لكلماته لحساسية منصبه مما كنت عليه، حيث كنت أستاذا. لم أكن أمثل أحدا، باستثناء الآراء التي أدافع عنها، ولم أكن أخضع لرقابة أية منظمة أو جامعة أو حكومة. هكذا كنت أملك الحرية التامة بأن أقول ما أريد، لذلك، كنت قادرا على الانتصار عليه. أتذكر أن كلانا، يعقوب هيرتسوغ وأنا قمنا بمناظرة رائعة، وأعتقد، أنه بإمكاني القول أنني تمكنت من القضاء عليه، كما قال أحد علماء الاجتماع: دون منازع، "هاندز داون"، Hands down. لا شك في ذلك. شخص آخر قال لي "بأن الجهد كان باديا عليّ إلى درجة أنه كان مؤثرا على تسريحة شعري". انتقدت النظام وجعلت الأمر واضحا بأنهم قاموا بطردنا، وبأننا سوف نواصل النضال حتى نعود. في سياق هذا الحوار، نفى صحة ما قلته حول الفلسطينيين في إسرائيل. قلت بأنهم يصنفوا كمواطنين درجة ثانية، وأنهم يعيشون تحت الحكم العسكري، وأنهم يخضعون ويساوون في وضعهم وضع السود في الولايات المتحدة، وأن الإسرائيليين متورطون في احتلال عسكري في فلسطين. وقال أنه واضح أنني أجهل ما يجري هناك ولا أعرف شيئا عن الوضع في فلسطين. لذلك، قام بتوجيه دعوة لي للذهاب والاضطلاع بنفسي بأن ما أقوله حول حكمهم للفلسطينيين هو خاطئ. قلت له على شاشة التلفاز: "لست بحاجة لدعوة منك لزيارة بلدي، فلسطين هي بلدي وسأعود إليها ولكن ليس بتصريح منكم، وإنما من خلال العملية التحررية". لهذا، كنت في وضع لا أحسد عليه بعد أن قلت هذه

العبارة، والتي لم تكن المرة الأولى التي أقول فيها مثل هذا الكلام.

قمت بقول هذا الكلام مرة أخرى في سياق إحدى المؤتمرات الدولية التي نظمتها الأمم المتحدة في فانكوفر، Vancouver، في كندا في صيف عام ١٩٧٦، ويطلق عليه اسم "هابيتات"، Habitat، أو السكن، وكان مؤتمرا حول السكن الإنساني. في هذا المؤتمر، كنت أحد أعضاء الوفد الذي مثل منظمة التحرير الفلسطينية. في نهاية الأمر كان جهدا رائعا، حيث قمنا بعرض وجهات نظرنا للجمهور طوال جلسة كاملة، والذي دخلنا، في الواقع، من خلاله الصعيد العالمي؛ كنا وفدا جيدا، وقمنا بالمشاركة في كل المناقشات. في تلك المناقشات، وضعنا إسرائيل وأنصارها، بما في ذلك وفود الولايات المتحدة وكندا، الذين كانوا في الواقع، قد احتجوا واعترضوا على عقد المؤتمر، في موقف دفاعي، فعلنا ذلك من خلال تشكيل تحالف مع الجنوب أفريقيين وبعض الدول الأفريقية. أثناء المؤتمر، نجحنا في تمرير قرار يدعو الأمين العام للأمم المتحدة لإرسال لجنة لتقصي الحقائق وللتحقيق في وضع الفلسطينيين تحت الاحتلال، من حيث السكن والاستيطان الحضري، أي الظروف المعيشية للفلسطينيين. وقف رئيس الوفد الإسرائيلي الحاخام جوسف بورغ، Joseph Burg، والد ابراهام بورغ، Avraham Burg، الذي أصبح رئيسا للكنيست فيما بعد، وقال: "أولا، إن حكومتي لن تعترف بأعضاء هذه اللجنة حتى إذا ما قام الأمين العام للأمم المتحدة بتشكيلها، وثانيا، فإننا لن نتعاون مع الأمين العام في تنفيذ أو تطبيق هذا القرار".

لهذا، أبلغته، وصرحت بالقول: "لسنا بحاجة إلى تصريح منكم للذهاب إلى هناك، يمكننا مساعدة الأمين العام في إرسال هذا الوفد ولدينا طرقنا ووسائلنا للقيام بذلك. هذه بلادنا، وبالتالي، لدينا القدرة على فعل ذلك".

كان هذا بطبيعة الحال، بيانا سياسيا. لكن، هذا أيضا ذكرني بحقيقة أن هناك بلد نقول إنه لنا، ولا يمكننا في الوقت ذاته الوصول إليه، وأن ما يمكننا الوصول إليه هو تحت الاحتلال الإسرائيلي. بهذا المعنى، العودة إلى الوطن، لم تكن واردة في ذهني. لذا، قلت في تصريح بأنني سأعود عندما تتحرر فلسطين. كنت قد عملت في كل من مصر ولبنان، وذهبت إلى جميع الدول العربية، وكلها كانت تمنحني الشعور وكأنني في وطني، لكني بقيت أشعر أنني ما زلت في المنفى. لذا، كانت المهمة تكمن في تحرير الأرض، حتى تتحقق العودة.

خشية الموت في المنفى

في العام ١٩٩٠، عشت لحظات كان لها عظيم الصدمة علي؛ حيث أجريت عملية جراحية في رئتي، فقدت خلالها وعيي، وكدت أموت. وعندما استيقظت، أصبح واضحا لي أننا جميعا بشر وأنني قد أموت قبل تحرير فلسطين، قد أموت دون أن أرى فلسطين مرة أخرى. في تلك اللحظة، قلت لنفسي: "يا إلهي، على الأقل ينبغي أن أرى فلسطين قبل أن أموت، أنا لا أريد أن أموت دون أن أراها". كنت أتحدث إلى نفسي بهذه الطريقة، عندما كنت في الواقع لا أزال في المستشفى، وكنت أشعر أنني ما زلت ضعيفا إلى هذا الحد. ثم، في نهاية شهر كانون الثاني – يناير، بداية شباط – فبراير من العام ١٩٩٠، خرجت من المستشفى، وهذه الأفكار غارقة في ذهني ووعيي. وأخذت فكرة العودة تتجذر في داخلي وبدأت بالنمو.

وأذكر حادثة ثانية حصلت معي عندما بدأت التفكير في العودة بصورة أكثر جدية، خلال عشاء أقامه رشيد الخالدي في ربيع العام ١٩٩٠، التقيت امرأة من جنوب أفريقيا، كانت امرأة جميلة من أصول هندية ولبنانية، بما أن جدتها كانت لبنانية، وكان اسمها فيروز، وكانت "عالمة". كانت حاصلة على منحة زمالة دكتوراة من جامعة شيكاغو، وكانت تعيش عادة في بريطانيا، ولكنها كانت من جنوب أفريقيا، وبالتالي، في المنفى مثلما كنا.

كان عمر والدها على الأرجح من عمري، وكانت قالت لنا بأنها تلقت مكالمة هاتفية من والدها الذي كان طبيبا، ليقول لها أنه عاد للتو من زيارته الأولى لجنوب أفريقيا بعد أن بقي في المنفى لمدة ٢٥ عاما. قالت أنه كاد "يطير فرحا" وكان يتحدث بكثير من الإثارة والسعادة حول زيارته. لقد قرر أن يغلق عيادته الطبية في لندن وأن يعود إلى بلده. قالت لنا كذلك، أن عددا من زملائه، أطباء آخرين من جنوب أفريقيا، قد قرروا العودة إلى بلادهم. وأضافت، أن كل أفراد الجالية الجنوب أفريقية يفكرون الآن بالعودة إلى بلادهم. نظرت إليها بينما كانت تروي هذه القصة وكان بإمكاني رؤية وجهها مفعم بالإثارة، على الرغم من أنها بالكاد تستطيع تذكر جنوب أفريقيا (كانت صغيرة جدا عندما غادروا)، إلا أنها تمكنت من الإعراب عن سعادة والدها.

كان لهذا اللقاء تأثير كبير علي وتمكنت من استيعاب هذه المشاعر. للمرة الأولى في حياتي، بدأت التفكير بجدية حول عودتي وكيف ينبغي أن أفعل ذلك. بداية، كنت أدليت ببعض التصريحات؛

ثانيا، لقد كنت شخصا نشطا؛ وثالثا، لقد كنت عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني، لذلك، لم أكن أعرف ما الذي سيفعلونه معي، لهذا، بدأت بوضع خطط عملية. وأول شيء قمت به، عندما أتيحت لي الفرصة، كان الاستقالة من المجلس الوطني الفلسطيني؛ فعلت هذا كوني لا أستطيع أن اسلم نفسي للسلطات القضائية الإسرائيلية بينما كنت لا أزال عضوا في المجلس الوطني، شعرت بأن ذلك سيكون إهانة للمجلس الوطني الفلسطيني كمؤسسة.

بعد ذلك، كان الأمر عبارة عن عملية منظمة. قررت أن أذهب في زيارة قصيرة قبل أن أقرر ما إذا كنت سأعود إلى الوطن أم لا. قررت الذهاب في زيارة، لرؤية المكان، ولرؤية ما إذا كانوا سيسمحون لي بالدخول أم لا. في كانون أول– ديسمبر من العام ١٩٩١، قررت القيام برحلة إلى فلسطين في فترة أعياد الميلاد من العام نفسه؛ أعياد الميلاد هي مناسبة عند الكثير من الناس الذين يزورون فلسطين. كانت الجامعة وقتها في إجازة وشكل ذلك، الوقت المناسب للذهاب. لم أخبر أحدا بأنني قادم إلى فلسطين. حدث ذلك في الوقت الذي دعت فيه الجمعية الخيرية المتحدة للأراضي المقدسة بعقد مؤتمر في نفس الفترة، وللمرة الأولى، كان من المقرر أن يعقد المؤتمر في القدس. دعوني لحضور المؤتمر وأجبت بأنني سأكون هناك، وربما سأتمكن من حضور إحدى الجلسات، لكنني لا أود التكلم في المؤتمر.

لم أكن أعرف ما يمكن توقعه من الذهاب إلى فلسطين، ولم يكن لدي أي فكرة عما سيحدث، عدا أنهم يقومون بمضايقة الناس في بعض الأحيان، ويمنعون البعض من الدخول.

تخطي المضايقات المعتادة بـ "الواسطة"

كان لقائي الأول مع النظام الإسرائيلي قد تم في مطار أمستردام. أخذت رحلة الخطوط الجوية الملكية الهولندية، كيه إل إم، KLM، من شيكاغو، وغيرت الطائرة في أمستردام. وهناك اكتشفنا أن جميع الركاب المتوجهين إلى إسرائيل كان يتم نقلهم عبر بوابة خاصة في نهاية المحطة، حيث يتم استجوابهم من قبل عملاء إسرائيليين، واللذين أعتقد أنهم كانوا من الموساد. في المطار في أمستردام، كانت هناك قاعة خاصة في الطابق السفلي من المحطة حيث يتم استجواب الركاب. لقد شكل هذا صدمة لي. والأكثر إثارة للصدمة بالنسبة لي كانت طبيعة الأسئلة التي كانوا يسألونها. الآن، أصبحت معتادا على هذه الأسئلة الغبية، مثل ما إذا كانت بحوزتكم أسلحة؛ ومن الذي قام

بتوضيب وترتيب وإغلاق الحقيبة؛ لماذا تحمل هذا وذاك؛ إلى أين ذاهب ولماذا؛ ما هي الغاية أو الغرض من زيارتك؛ من هم الأشخاص الذين ستقوم بالالتقاء بهم؛ وماذا ستفعل هناك. لقد كانت كل هذه الأسئلة السخيفة، تجعلها تبدو وكأنها معدة لاعتقال بعض المتهمين الجنائيين.

كنت أتوقع الأسوأ في مطار بن غوريون كوني سمعت الكثير عن كل هذه القصص المتعلقة بالمضايقات التي يواجهها المسافرين هناك. فوجئت عندما نزلت من الطائرة وتوجهت مباشرة إلى الخارج من خلال معبر مراقبة الجوازات حيث قاموا بختم جواز سفري. مع ذلك، وبعد فحص جواز السفر، جاؤوا ليأخذونني إلى غرفة منفصلة للتحقيق وليسألونني بعض الأسئلة. قلت لهم، أظن أنني انتهيت من كافة الإجراءات اللازمة ومررت للتو من مراقبة وفحص الجوازات. لم أكن أدرك أنه عندما ينتهون من ختم جواز السفر الخاص بك، تحصل كذلك على ورقة خاصة ملونة للتعريف بأنك عربي، وبالتالي أنت معرض للاستجواب من قبل رجال الأمن في المطار.

كنت أسير برفقة ضابط الأمن الإسرائيلي باتجاه الغرفة التي عادة يتم استجواب الناس فيها عندما سمعت أحدا يصيح مناديا باسمي، نظرت حولي، واتضح أنه محمد ميعاري، العضو الفلسطيني في الكنيست الإسرائيلي. كان الشخص الوحيد الذي كان على معرفة بأني قادم. استدار الضابط إليه وسأله: "من أنت؟" تحدث محمد إليه بالعبرية، وقال له من يكون، وحصل بينهما محادثة بالعبرية. بعد ذلك، طلب الضابط مني أن أنتظر، ليقوم بالاتصال مع مسؤوله للتشاور حول ما كان. محمد ميعاري كان أوضح لهم من يكون وأنه جاء إلى المطار لاصطحابي وأخذني إلى حيفا. لهذا، تمكنت من الخروج من المطار دون أن أمر عبر المتاعب والإزعاجات المألوفة. قلت لمحمد بعد الذي حصل بأن إسرائيل أصبحت الآن مثل أي دولة عربية، من حيث نجاعة واستخدام الواسطة، وضحكنا بما يكفي حينما قلنا، أن إسرائيل بدأت تتجه لتكون دولة يمكن لك أن تتخلص فيها من كل القلاقل والمشاكل باستخدام الواسطة الجيدة.

أطارد مثل مراهق

ذهبت مع محمد إلى حيفا حيث أمضيت الليلة. كان محمد ميعاري استقبل في تلك الليلة عدد من الأشخاص إلى منزله للمشاركة في حفل استقبال دعا إليه للمناسبة. كان أحد الضيوف احد أستاذتي السابقين في يافا، وكان من مدينة شفا عمرو في الشمال، وكان درّس في مدرستي لمدة

عامين، ولم يكن قد حصل والتقينا منذ العام ١٩٤٨. كانت تجربة لا تصدق. ذكّرني اللقاء بأن هذا هو وطني، وأن لدي اتصالات مع المكان الذي أنا فيه الآن. في هذا المكان، أحد أساتذتي الذي لم تتغير ملامحه على الإطلاق، عدا أنه أصبح أكبر سنا وأسمن قليلا عما كان عليه. كان أصبح عند لقائي به، مدير مدرسة في شفا عمرو وكان على وشك أن يتقاعد.

قضينا ليلة رائعة من الأحاديث، على الرغم من حقيقة أنني كنت متعبا. لقد كانت لحظة مثيرة في حياتي. كنت هنا، في بيت فلسطيني، بين الأصدقاء الذين هم فلسطينيين، نتكلم نفس اللغة. كان تجمعا في غاية الدفء، لا يصدق. بكل بساطة، لقد كنت في بلدي.

في اليوم التالي، قمنا بجولة في الجليل، أتذكر أنني أعجبت بما رأيت هناك، وما كان يمثله الجليل، من حقيقة أنه كان رائعا وجميلا. بالرغم من حقيقة أن اليهود كانوا ربما يشكلون غالبية السكان في المنطقة، إلا أنني شعرت بالهيمنة الثقافية للعرب. كان هذا واضحا جدا، على الرغم من مرور سنوات عديدة من السيطرة الإسرائيلية. كما سافرنا وتجولنا في القرى وبين المدن، شعرت كما لو كنت في بلد عربي؛ هذه هي فلسطين، تماما، كما كنت أشعر في العام ١٩٤٨، حيث كان اليهود موجودين أيضا. في فلسطين، لم أكن أشعر مطلقا أنني في بلد أجنبي، رغم سنوات المنفى.

حينما كنت في منطقة الشمال، عادت بي الذاكرة إلى العام ١٩٤٨. والشمال، حيث نجح غالبية الفلسطينيين هناك في إحباط أوامر الطرد من الناصرة وشفا عمرو وبقوا في إسرائيل وما زالوا إلى يومنا هذا. تم الإلقاء بهم إلى خارج قراهم، وحاول الإسرائيليون طردهم نحو سوريا، لكنهم قاوموا ومكثوا في العراء، وبقيت بعض العائلات في العراء طيلة عام تقريبا. بدأت أفكر ماذا كنت فعلت لو لم نكن غادرنا يافا أو حيفا. سياسيا، كانت لحظة مهمة في إعادة النظر بما حصل في العام ١٩٤٨؛ لماذا خرجنا من بلادنا وماذا كانت نتيجة الطرد والمغادرة والخوف؟

أمضيت يومين في الشمال، لكني ترددت وخجلت من إخبار محمد بأني متلهف لرؤية يافا. كنت أريد الذهاب إلى بلدي، وأعني ببلدي هنا، مسقط رأسي، يافا. كنت محرجا من قول هذا لأنه كان لطيفا للغاية واستمتعت بإقامتي معهم. ولكن، في اليوم الثالث، أخذني محمد إلى يافا. في الطريق، توقفنا بقرية فلسطينية يقال لها سيدنا علي، حيث ألحقت بمستوطنة هرتسليا، واحدة من أقدم مستوطنات الحركة الصهيونية. كانت قرية سيدنا علي في الماضي تزود كل أنحاء فلسطين

بالبطيخ والشمام، وفي القرية هناك مقام سيدنا علي، وكان الناس يذهبون لزيارته للدعاء وطلب المغفرة، أو للقيام بطقوس يعتقد بأنها تساعد على الإنجاب. اعتدت على زيارة المكان بصحبة العائلة عندما كنت طفلا، كانت تحتوي على أجمل شواطئ فلسطين، شاطئ رائع ونسيم عليل. كأطفال، كنا نحب ذلك كثيرا، إذ كنا نشعر هناك، بحرية التجول بين أشجار النخيل، وكنا نذهب إلى القرى المحيطة المجاورة. وإذا ما كنت شابا، كان بإمكانك السير إلى هناك من تل أبيب، وحتى وإن كانت المسافة طويلة نوعا ما، كنا نفعل ذلك أحيانا. كان من المهم بالنسبة لي رؤية وزيارة هذا المكان، خاصة المسجد الذي صليت فيه للمرة الأخيرة قبل عام ١٩٤٦.

من سيدنا على، انتقلنا مباشرة إلى قرية الشيخ مؤنس التي أقيمت على أراضيها لاحقا جامعة تل أبيب، وهناك قبر الشيخ مؤنس. كنا نذهب أيضا إلى هناك عندما كنا صغارا، حيث كان قريبا من مكان سكننا، وكان هناك نهر اسمه نهر الجريشة، والذي يناديه اليهود باسم اليركون. ذاكرتي لهذا المكان، النزهات التي كنا نقوم بها كأطفال وكمراهقين. كنا نسبح في النهر، لكونه لم يكن ملوثا كما هو عليه الآن. أجمل ما بإمكاني تذكره هو ما كنا نفعله عند عبورنا للنهر، حيث كنا نقوم بحمل ملابسنا بيد واحدة فوق الماء ونسبح معا مثلما تسبح "الكلاب".

أخيرا، اقتربنا من يافا ليسألني محمد: "أين منزلك؟" قلت: "حسنا، هذه تل أبيب، وليست يافا"، ليرد محمد بالقول: "لا، هذه هي يافا". ثم سألته: "أين مسجد حسن بيك؟". قال لي محمد أنه ليس بعيدا من هنا، خلف هذه البنايات، وبالفعل، في تلك اللحظة كان باستطاعتنا رؤية المئذنة. قلت له أن بيتي لا يبعد سوى ١٠٠ متر من المسجد. كان هذا المسجد أصبح معلما هاما لتحديد أين كانت حياتي السابقة، ذلك لأن إسرائيل قامت بهدم المنطقة بأسرها، وكان المسجد الشيء الوحيد الذين أبقوا عليه وكانوا يخططون لتدميره. المجتمع المحلي الفلسطيني استطاع اكتشاف الأمر، وقام بالاحتجاج وجمع ما يكفي من المال لاستعادة وإنقاذ وترميم المسجد. اعتدت الصلاة في هذا المسجد وحضور الدروس والجلسات الصوفية. إحدى أجمل ذكرياتي هي عندما كان يسمح لي إمام المسجد برفع الآذان بدلا منه، لكونه كان كسولا جدا للقيام بذلك. كان يتركني أصعد إلى المئذنة، لأرفع الآذان مناديا للصلاة. أعتقد أنني حصلت على جميع النعم والحسنات الإلهية لفعل مثل هذا العمل الرائع، أن تنادي الناس للصلاة. فعلت ذلك، من آن لآخر على مدار

بضع سنوات في هذا المسجد، لأن الشخص المسؤول كان كسولا جدا ليصعد كل هذه السلالم بنفسه. كصبي، أعتقد أنه كان يقوم بتعليمي وبتوجيهي نحو النشاط الديني، والذي اقدره حقا.

لدي ذكريات جميلة في هذا المسجد ليس فقط لهذا السبب فحسب، ولكن لأسباب أخرى. في رأيي، بدأت الحرب في العام ١٩٤٨، جزئيا من هذا المسجد. كان المسجد واقعا بين تل أبيب ويافا والمسافة بينه وبين القسم اليهودي الأول كانت ١٠٠ متر أو أقل، وكان بالإمكان رؤية العدو من سطح المسجد. أذكر أنه بعد قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، في شهر تشرين ثان – نوفمبر من العام ١٩٤٧، صعد اثنان من الرجال إلى السطح وبدءوا بإطلاق النار تجاه سكان تل أبيب الذين قاموا بدورهم بالرد على إطلاق النار. بعد هذا الحادث، أغلقت الحدود، وتم نقل كل من السكان العرب والسكان اليهود من تلك المنطقة، لتصبح منطقة محرمة، no-man's-land، وأصبحت الجبهة الفلسطينية في يافا في الشارع المجاور لهذا المسجد. طوال هذه الفترة، كان المسجد مستثنى من الهجمات، وكان، بالإضافة إلى ذلك، غير مستخدم من قبل السكان. أعتقد أن حرب ١٩٤٨ بين العرب واليهود الفلسطينيين بدأت هناك. من المؤكد انه المكان الذي اندلعت منه الحرب بين يافا وتل أبيب، الحرب التي لم تتوقف حتى تمكنت العصابات اليهودية، الأرغون والهاغانا، من إيقاع الهزيمة بيافا وإفراغها من سكانها.

قلت لمحمد عن المكان الذي كان يوجد فيه منزلنا، قبل أن يتم تدميره من قبل الإسرائيليين. وكان شقيقيّ قد قدما في زيارة إلى هنا في العام ١٩٧٠ عندما كان المنزل لا يزال قائما. في آخر مرة جاء فيها أخي الأصغر لزيارة يافا، ذهب إلى منزلنا والتقى بالعائلة التي كانت تسكن فيه، وكانت عائلة لبنانية يهودية. وقاموا بإبلاغه بأنهم تسلموا بلاغات من قبل السلطات الإسرائيلية تخبرهم بأنهم سيتم إعادة نقلهم وإسكانهم في أماكن بديلة، وأنه سيتم هدم المنزل. في العام ١٩٧١، قامت إسرائيل بهدم حي المنشية في يافا بالكامل. السؤال السياسي الذي يطرح نفسه بطبيعة الحال هو، لماذا لم يقوموا بهدم المنشية من قبل؟ ولماذا قرروا هدمه لاحقا؟

شعرت بسعادة غامرة لوجودي في حارتي القديمة. بدأت أبحث وأفتش أين كانت بيوت العائلات الأخرى المجاورة لمنزلنا، منزل القدومي، منزل القمبرجي ومنزل شفيق الحوت، كنت ببساطة أريد التعرف على المنطقة. كنت ضائعا في السيارة، لأنهم قاموا بهدم الحي بأكمله، ولم أتمكن

من التعرف على الشوارع. ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الجامع الكبير، وهو الوحيد الذي كانت تقام فيه صلاة الجمعة. قام محمد بإيقاف السيارة في وسط المدينة بالقرب من برج الساعة. بعد ذلك، وصفني قائلا: "كنت أطارد مثل مراهق". كنت متشوقا للغاية للمكان ومتلهفا لرؤيته ولقاءه، لأن كل تاريخي، هنا، في هذا المكان. شعرت بشيء لم اعتده من قبل عندما دخلت إلى المسجد، كما وتذكرت كلاً من صلاة الجمعة وأكبر التظاهرات ضد البريطانيين في يافا، والتي كانت انطلقت من هناك. بعد الصلاة، عندما قام الإمام بإلقاء خطابا لحثنا وتحفيزنا، أو، كما يسمونه في المصطلحات الحديثة، تحريضنا، على الخروج لشجب الامبريالية البريطانية وتصريح بلفور والهتاف بشعارات ضد السياسة البريطانية.

التواصل مع التاريخ

كان أمرا لا يصدّق، أن أرى جميع المحلات التي كنت أعرفها وكنا نشترى منها المثلجات، الآيس كريم، والكنافة وغيرها من الحلويات، إنه بحد ذاته حدث غاية الإثارة. وبرج الساعة ومبنيين قائمين لا تزال في مكانها؛ يمثل المبنى الأول مركز الشرطة؛ استخدم المبنى مركزا للشرطة خلال الحكم التركي وفترة الانتداب البريطاني، ولا يزال المبنى، كذلك، إلى اليوم، مركزا للشرطة الإسرائيلية. كان المبنى يستخدم لغاية التحقيق الأولي مع الأفراد بعد أن يتم اعتقالهم وقبل أن يتم إرسالهم إلى سجون مختلفة. في الجهة المقابلة لمبنى مركز الشرطة من الشارع كان يقع هناك مبنى متميز جدا، والمعروف بالسرايا؛ كان مبنى السرايا، أو قصر السرايا الحكومي، قد بني خلال الفترة العثمانية، وكان يضم المكاتب الرسمية للحكومة. كما أنه استخدم ليكون مقرا للمحكمة، حيث السبب لتسميته بالسرايا، التي تعنى "قصر العدل". كما أنه استخدم كمحكمة خلال الفترة البريطانية، حيث كان جدي يقوم بممارسة مهامه كقاض هناك، لكن استخدامات هذا المبنى بدأت تتغير بعد العام ١٩٣٧.

في كانون ثاني – يناير من العام ١٩٤٨، كنت جالسا في نادي اجتماعي، نادي الشبيبة الإسلامية، على بعد حوالي ٣٠٠ متر من المنزل، عندما سمعنا صوت انفجار شديد، لدرجة أن النادي اهتز هو الآخر من شدة الانفجار، ولم يكن لدينا فكرة عما يمكن أن يكون هذا الانفجار. عندما ذهبنا لتقصي ما جرى، وجدنا الرعب والدمار الذي خلفه انفجار سيارة مفخخة، من فعل العصابات الصهيونية.

هذا الانفجار خلف ٦٩ قتيلا، تسعة منهم فقط من البالغين، والستون الباقين كانوا من المراهقين. كان المبنى يستخدم في ذلك الحين كمقر تابع لقسم الرعاية الاجتماعية الخاص بالأحداث، الجانحين من المراهقين. الرواية الرسمية للوكالة اليهودية والهاغانا، كانت تتحدث عن أن المبنى كان يستخدم كمقر للبلدية وللجنة الوطنية. كان لدى اللجنة الوطنية مكتب على بعد منزلين من المبنى، لكن تم إغلاقه حوالي شهرين من الهجوم.

أعتقد أن الهدف من التفجير كان ترويع السكان؛ وبالتأكيد كان لهذا الحادث تأثير على السكان في يافا، حيث يقع المبنى وسط المدينة. حقيقة أن العصابات الصهيونية كانت قادرة على الوصول إلى هذا الحد، ووضع مثل هذه القنبلة، والقيام بمثل هكذا تفجير في وسط المدينة، أظهر للسكان في يافا كيف تركت مدينتهم دون حماية.

أتذكر عبارة غولدا مائير الشهيرة: "إنه لا وجود للمشكلة الفلسطينية وإنه لا يوجد فلسطينيين". كانت هذه محاولة منهم لطمسنا، ولتدميرنا ولإنكار وجودنا. ومع ذلك، ثقافتنا تعززت من خلال الشهادات الحية، من خلال ذكرياتي ومن خلال المباني التي ما زالت قائمة. باستطاعتي رؤية المدرسة التي درست فيها، مدرسة العامرية، المبنى، لا يزال يستخدم كمدرسة، لكن كمدرسة يهودية، وهكذا أصبحت مدرسة العامرية بقدرة قادر مدرسة وايزمان.

اقتربنا، محمد وأنا، من المدرسة، ورأينا أن هناك اثنين من الجنود يقومون بحراسة بوابة المدرسة. أحد الجنديين كان إثيوبيا والثاني كانت بشرته سمراء قاتمة، وكان من السفارديم. تحدثت إليهم باللغة الانجليزية وقلت بأنني جئت من نيويورك لزيارة مدرستي التي تعلمت فيها حينما كنت صغيرا.

طلبت منهم أن يأذنوا لي بالدخول إلى المدرسة، وإن كانت مغلقة. شاهدت الضوء ينبعث من أحد المباني، وهو المبنى الذي كان خاصا بفنون وحرف الأطفال. سمحوا لي بالذهاب إلى داخل ذلك القسم من المبنى، والذي ما زال يستخدم للوظيفة نفسها حتى يومنا هذا. كان هناك أطفال من نفس العمر، يمارسون الأنشطة ذاتها، إلا أنهم اليوم من الأطفال اليهود. عدت إلى البوابة وشكرت الجنود على السماح لي بالدخول، فسألني أحد الجنود لماذا لا أتكلم العبرية: "لقد درست في هذه المدرسة، أليس كذلك؟". لا يمكن له أن يفهم أن هذه المدرسة، كانت مدرسة فلسطينية قبل العام ١٩٤٨. لقد كانت مدرستي، لكنني لم أكن أرغب بإعطائه محاضرة في التاريخ الفلسطيني. كنت

أريد فقط، أن أتواصل مع تاريخي القديم. لا يمكن لي أن أصف السعادة التي كنت بها لرؤيتي للمدرسة. هذا هو تاريخي، المكان الذي ترعرعت وكبرت فيه، تعليميا واجتماعيا.

بعد ذلك، ذهبنا إلى القدس وبيت لحم ونابلس وغزة قبل أن نعود إلى الجليل. قمت بعمل بعض المحاضرات والتقيت بالكثير من الأصدقاء والمعارف.

شعرت بإثارة وأشياء لم أعهدها من قبل خلال الأسابيع الثلاثة التي قضيتها في فلسطين. كنت في غاية البهجة والسعادة لمشاهدتي أن فلسطين ما زالت هنا، ثقافتنا ما زالت هنا، مهما غيروا في المشهد الفلسطيني. تاريخي واستمراريتي هنا، ولا يمكن لهم أن يقوموا بإزالته وأخذه مني. كان ذلك، وكأن الحياة أعادتني إلى العام ١٩٤٨ من جديد.

كان هذا في العام ١٩٩١، وعلى العكس من الآخرين الذين أصابهم الحزن عندما عادوا، فقد كنت متحمساً جدا للتحدث مع الناس. حرصت على أن أشهد قسوة الاحتلال، والتي كانت جليةً في حقيقة أن هناك حظرا للتجول في رام الله، وبالتالي، لم أتمكن من زيارة المدينة دون وجود شخص لديه تصريح. كانت تلك القسوة جليةً وواضحةً أيضا في الظروف البائسة لقطاع غزة، والتي ببساطة لم أكن لأصدقها لو لم أرى ذلك بنفسي. تفاجأت بحفاوة الاستقبال الذي أعدوه لنا في الخليل، ودهشت بمستوى المناقشات السياسية النضالية. لقد كانت حياتهم بفلسطين، حياة معقدة بحق. لم أكن أتخيل أبدا هذا النوع من فلسطين الذي وجدت هنا.

ذهبت إلى مخيم الدهيشة في بيت لحم، وذكّرني ذلك بمعسكرات الاعتقال، إذ لم يكن للمخيم سوى بوابة واحدة تمكن الناس من الدخول أو الخروج. كانت شوارع المخيم، والغير ممهدة، يغطيها الطين في اللحظة التي يبدأ فيها تساقط الأمطار. كان باستطاعة الإسرائيليين إطلاق النار على الداخلين والخارجين من نقاط وأبراج المراقبة الخاصة بهم؛ كانت لديهم السيطرة الكاملة على مخيم الدهيشة. سألت نفسي إذا ما كان يجب علينا أن نواصل العيش في مخيمات اللاجئين، أم علينا التخلص من هذه المخيمات؟ لقد شكلت هذه المخيمات في الماضي، الرمز المرئي للطرد، ومسألة الهوية الوطنية. لكن النتيجة تحولت إلى سيطرة تامة من قبل الإسرائيليين. كان الناس يعيشون في غيتو مغلق، منفصلا عن باقي المجتمع. هذه أسئلة معقدة، واستغرقت مني بعض الوقت في التفكير. قررت بأنني، ربما، كنت عاطفيا جدا، لأنني قد حرمت من رؤية فلسطين لفترة طويلة.

طلاقي من الولايات المتحدة الأمريكية

عدت إلى شيكاغو واستمررت في التدريس وإلقاء المحاضرات حول زيارتي إلى فلسطين. وحصل أنني تلقيت دعوة للمشاركة في الندوة التي نظمتها مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، في نهاية شهر آذار – مارس من العام ١٩٩٢. قبلت الدعوة، لأنني أردت اختبار مشاعري عن فلسطين. كنت في غاية السعادة بعد زيارتي الأخيرة وأردت اختبار مشاعري الحقيقية.

هذه المرة، قررت العبور إلى فلسطين عبر جسر اللنبي؛ هذه الحدود يتم التعامل فيها مع الناس بشدة وبصعوبة بالغة. وعندما وصلت إلى الحدود، لم يكن هناك أحد، قام الإسرائيليون بأخذ جوازي وطلبوا مني أن أجلس وأنتظر، وجلست أنتظر. بعد مرور حوالي النصف ساعة، سألت ضابط الجوازات ما إذا كان هناك مشكلة؟ قالت لي بأن كل شيء يسير حسب القانون، وأننا نقوم بما يتوجب علينا عمله، وطلبت مني مجددا أن أعود إلى مكاني وأنتظر.

بعد مرور فترة من الوقت، سمعت اسم الكابتن آفي، Avi، اعتقدت أن هذا، قد يكون على علاقة بي. بالطبع، كان هناك رجلان يسيران باتجاهي، أحدهما كان ضابطا عسكريا، كابتن آفي، بينما كان الآخر مدنيا وسألني إذا ما كنت أتحدث العبرية. وكان هذا الرجل يقوم بدور المترجم. سألوني الأسئلة المعتادة: "ما سبب مجيئك إلى هنا؟"، فأخبرته عن الندوة التي سأشارك بها. بعد ذلك رجعوا إلى مكتبهم برهة ليعودوا ويستمروا بالاستجواب. قيل لي بأنه بإمكاني الحصول على تأشيرة سياحية مدتها ثلاثة أشهر ولكن بشرطين. الشرط الأول يتوجب علي أن لا أقبل العمل في إسرائيل. لم أفهم لماذا قال ذلك، ولكني قلت فقط حسنا، لأنني لم أجيء لأبحث عن عمل. في وقت لاحق، اكتشفت أن الكابتن آفي علم بزيارتي الأولى، عندما زرت جامعة النجاح في نابلس، وكانت النجاح، لاحقا، قد أعطت انطباعا بأنه عرض علي بأن أصبح رئيسا للجامعة، وأنني كنت مستعدا لقبول هذا العرض. بالرغم من أن الأمر لم يكن صحيحا، إلا أن نشر الخبر جاء علانية، والكابتن آفي اعتمد هذا الخبر كمرجع.

وكان الشرط الثاني أن لا أتكلم مع الجمهور. سألته ما الذي يقصده، وقلت بأنني أستاذ وأن علي أن أتحدث للجمهور، قال لي أنه يقصد بأن لا أقوم بإلقاء محاضرات عامة وأن لا أقوم "بتحريض الجمهور". من الواضح، أنه كان يشير إلى المحاضرة التي قد قدمتها قبل ثلاثة أشهر في جامعة بيت

لحم. وكان مضيفي، السيد خضر مصلح، قد حقق معه من قبل الحاكم العسكري في بيت لحم لدعوتي للتحدث في الجامعة بدون طلب إذن. وبالتالي، وبهدف الحصول على التأشيرة، وعدت الكابتن آفي بأن أكون مملا وأن أقوم بتنويم الحضور عندما أتحدث في محاضرات عامة.

كان هناك تأخير آخر لمدة ساعة ونصف تقريبا، وبقيت طوال الوقت جالسا مكاني. كنت وحدي، مع واحدة من ضباط مراقبة الجوازات. لم يكن بحوزتي أي من الصحف أو مواد القراءة الأخرى. قمت "بالاتصال" معها من خلال النظرات؛ نظرنا إلى بعضنا البعض وكان هناك اعتراف إنساني، وقفت ومشيت نحوها، أردت أن أعرف سبب هذا التأخير الحاصل. قالت: "من الواضح أنك شخص مهم، هذا هو السبب". بدأنا بالحديث؛ سألتني أين ولدت وأخبرتها. سألتها عن عائلتها؛ كانت من تونس وبعض من عائلتها موجود في شيكاغو. هاجرت إلى فلسطين عندما كان عمرها تسع سنوات. أعتقد أنه بطريقة ما، كلانا لاجئين. هي موجودة هنا نتيجة لأيديولوجية معينة، بينما أنا هنا كزائر، سائح. كان ذلك أول اتصال لي "إنساني" أقوم به مع إسرائيلي ولم يكن "رسميا"، وعلي أن أعترف بأن المحادثة كانت لطيفة.

كنت أثناء هذه الزيارة قد قررت أن مشاعري كانت صادقة، وعلي أن أعود إلى الوطن. لكن بداية ذهبت إلى عمان لرؤية حنا ناصر، رئيس جامعة بيرزيت وصديق قديم، الذي كان يطلب مني دوما التدريس في جامعة بيرزيت منذ السبعينيات. كنت أريد التأكد من أن هذا العرض ما زال قائما، وقد كان لا يزال. وقمت باتخاذ القرار؛ عدت من جديد إلى شيكاغو وأخذت إجازة من الجامعة لمدة سنة واحدة، ١٩٩٢-١٩٩٣، أمضيتها أدرس في جامعة بيرزيت. عندما كنت في بيرزيت، قمت باتخاذ قرار آخر مهم؛ قررت بأنني لن أعود إلى الولايات المتحدة، لكني سأبقى في فلسطين. لم أندم مطلقا على اتخاذي لهذا القرار، ولربما كان القرار الأفضل الذي كنت اتخذته طوال فترة سابقة، أن أعود لبناء دولتنا وشعبنا.

في مفاوضاتي التي أجريتها مع حنا، أعربت عن رغبتي في تدريس حلقة دراسية متقدمة للطلبة الخريجين لتكون متاحة للطلبة من مؤسسات التعليم العالي الأخرى. واقترحت أيضا إنشاء كلية الدراسات العليا على المستوى الوطني لتكون معتمدة من كافة الجامعات الفلسطينية. رغم أن بيرزيت كانت الحاضنة للمشروع، إلا أن هدفي كان يكمن في إنشاء مؤسسة تكون ذات طابع

وطني. في ذلك الوقت، لم أكن أدرك العلاقة بين الجامعات الفلسطينية ولم تكن لدي فكرة عن الظروف الموضوعية في فلسطين.

في رسالة الدعوة التي وجهت لي، سألني حنا عن الإمكانات لتولي منصب إداري في الجامعة، وإن لم أكن أريد حقا. كان حنا سخيا جدا سواء في استيعابه لرغباتي وأفكاري، وبإعطائي الراتب الذي طلبت.

بدأت التدريس في فترة مثيرة للغاية، حيث كان الإسرائيليون لا يزالون في رام الله. وفي أحيان كثيرة، كان هناك حظر للتجول وكنت أرى الدبابات وسيارات الجيب العسكرية. لقد كان بلدا محتلا، لم يكن هناك شك في ذلك. رأيت الناس يعتقلون ويضربون من قبل قوات الجيش الإسرائيلي بشكل يومي تقريبا. كانت رام الله تغلق أبوابها يوميا حوالي الساعة الثانية ظهرا. بما أنني لم أعش في ظل الاحتلال، كنت واحدا من "المجانين" القلائل الذين كانوا يخرجون لزيارة الأصدقاء، وكثيرا ما كنت أجد نفسي الشخص الوحيد في الشوارع بجانب الجنود الإسرائيليين.

وبسبب هذه البيئة، كان من المستحيل على الجامعة أن تؤدي وظيفتها كما الجامعات الأخرى. وقد يتم إغلاق بيرزيت في أي لحظة بعد أن تصبح مطوقة من قبل الجيش، ما يؤدي بالخطط والبرامج الدراسية والمنهجية لتصبح عديمة الجدوى. كانت هناك إضرابات سياسية ضد الجيش وضد الجامعة. لم أكن أتوقع من الطلبة الحضور إلى المحاضرات، لأن الجيش سيقوم باعتراضهم وبإغلاق الطرق. كانت فترة صعبة للغاية.

انقلب مشروعي لإقامة جامعة وطنية لحلم صعب التحقيق. بكل بساطة لا يمكنها أن تقام هنا، على الرغم من صغر حجم البلد، لهذا تخليت عن تلك الفكرة. مشروعي أو الحلم الثاني كان إنشاء كلية للدراسات العليا، وقد أصبح مستحيلاً أيضا، ولكن لأسباب أخرى. السبب الأول هو المنافسة التي لا تصدق والغيرة الموجودة بين الجامعات الفلسطينية، إذ كان من المستحيل التوصل إلى اتفاق على مكان إنشاء الكلية أو الحصول على موافقة الدوائر على إعارة أعضاء هيئة التدريس أو السماح لهم بالتفرغ لهذا المشروع. هكذا، تخليت عن هذه الأحلام.

بدلا من هذه الأحلام، قررت جامعة بيرزيت تأسيس كلية للدراسات العليا خاصة بالجامعة، وقد بدأنا من خلال تعيين لجنة للقيام بدراسة أولية وعمل اللازم للبدء بإنشاء الكلية. قمنا بتعيين

الأشخاص الذين سيكونون في اللجنة: عبد السلام عبد الغني، عميد كلية العلوم، نبيل قسيس، مفاوض فلسطيني في واشنطن، هنري جقمان، نائب الرئيس للشؤون الأكاديمية وعبد اللطيف البرغوثي. عملت اللجنة معا لمدة تسعة أشهر، وقامت بعقد اجتماعات عديدة، مرة كل أسبوع، لمناقشة الكتب، والمرافق، والمعايير والمحاضرات والدروس، ومتطلبات القبول للطلبة وهيئة التدريس. أتضح أن الأمر أكثر صعوبة بكثير مما كنت أعتقد عند إنشاء مؤسسة ما، أكثر صعوبة من أن تعمل مع مؤسسة قائمة أصلا.

بعد عام ونصف العام، وفي سبتمبر من العام ١٩٩٣، أصبح لدينا خطة لإنشاء كلية الدراسات العليا قمنا بتقديمها إلى مجلس الأمناء. كنا قادرين على تحديد التخصصات التي اعتقدنا بضرورة إعطائها الأولوية من حيث أهميتها للتنمية الفلسطينية؛ كانت هذه التخصصات التعليم والدراسات الدولية. كان برنامج الدراسات الدولية حقل متعدد التخصصات يجمع بين العلوم السياسية والتاريخ والقانون والاقتصاد. كنا قادرين على ربط التعليم العالي بمتطلبات المجتمع، وإنشاء كلية للدراسات العليا على أساس ما هو متاح محليا. وجمعت الهيئة التدريسية لبرنامج الدراسات الدولية الحديث النشأة كل من الأساتذة: علي الجرباوي، وزياد أبو عمرو، وهشام أحمد، وروجر هيكوك، وأنا. وكانت الدفعة الأولى من الطلبة الذين تم اختيارهم من الطلبة الاستثنائيين، المثابرين والأذكياء، وقد تخرج جميعهم بمعدلات عالية.

بعد أن تركت موقعي الإداري في جامعة بيرزيت، كنائب للرئيس للشؤون الأكاديمية، واصلت التدريس في الجامعة بجانب تولي المسؤولية عن إنشاء مركز تطوير المناهج. وعند الانتهاء من مشروع تطوير المناهج، عملت مع مؤسسة عبد المحسن القطان للتطوير التربوي.

الخاتمة

يعتبر إبراهيم أبو لغد نموذجا يحتذى به في عملية التنمية الاجتماعية وبناء الدولة الفلسطينية. إذ، ليس من المفاجئ، أن تكون فلسطين – الأرض والشعب – دائما محور تفكيره المستمر. ومع ذلك، لا يمكن لمساهماته أن تكون مقتصرة فقط على المجتمع الفلسطيني؛ وهي ليست كذلك. اكتسب معرفته وعلمه من الثقافات والشعوب الأخرى لتكون كذلك نموذجا لهم.

كان لإبراهيم أبو لغد خلفية متنوعة وخبرة متقدمة في ميادين مختلفة. واستطاع الجمع بين وظائف مهمة في الوسط الأكاديمي، والسياسة والمجتمع.

التقيت للمرة الأولى إبراهيم في منزله في شيكاغو في شهر تشرين الثاني – نوفمبر من العام ١٩٨٣ على غداء عمل أقامه عقب انعقاد مؤتمر حملة حقوق الإنسان في فلسطين. توّجت تلك الجلسة بمناقشات بناءة وبطعام لذيذ أعده بنفسه، وبقي هذا اللقاء يلازمني منذ ذلك الحين. في ذلك الوقت، كان إبراهيم أبو لغد عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني. كانت رؤاه ووجهات نظره، لشاب مثلي، غادر للتو فلسطين المحتلة، لا تقدر بثمن.

منذ ذلك اليوم، ونحن على اتصال مستمر. قرأت مؤلفاته وبقيت على اتصال معه. إعجابي بمستواه العلمي وبمعرفته بلغت ذروتها عندما وافق أن يكون عضوا في لجنة مناقشة أطروحتي للدكتوراه في العام ١٩٨٨.

كان إبراهيم أبو لغد أول مفكر فلسطيني يمارس حق العودة من الولايات المتحدة الأمريكية. ترك إبراهيم أبو لغد موقع التدريس البارز الذي كان يحتله في جامعة نورث ويستيرن في شيكاغو، ليبدأ بالتحضير لرحلة العودة إلى فلسطين في أواخر العام ١٩٩١، أي قبل فترة من اتفاقات أوسلو التي قد تكون سهّلت هذه العملية بعض الشيء.

عند عودتي إلى فلسطين من الولايات المتحدة في العام ١٩٩٣، صداقتي، أو بالأحرى، الشراكة، مع إبراهيم أبو لغد استمرت دون انقطاع. كان أول من قمت بزيارته بعد رؤيتي للعائلة، وقد كان حافلا بالدفء والضيافة والطمأنينة. لقد شكّل إبراهيم بالنسبة لي، بعد غياب عن فلسطين دام عشر

سنوات، المرشد الفكري والثقافي والاجتماعي.

إنجازاته بعد عودته إلى فلسطين كثيرة، وكان العقد الأخير من حياته الأكثر مكافأة، كما كان يقول في كثير من المناسبات: "هذا هو المكان الذي أشعر فيه أنني في وطني". في فلسطين، تعاونا بشكل وثيق كأصدقاء وزملاء في المعهد العالي للدراسات الدولية في جامعة بيرزيت، الذي عمل على تأسيسه والذي يحمل اليوم اسمه.

حتى بعد وفاته، ما يزال إبراهيم أبو لغد يعتبر نموذجا يحتذى به. تحقيقا لوصيته ورغم كل الصعاب، أجريت مراسم جنازته في يافا ودفن هناك. هكذا، بهذه الطريقة، ارتبط ميلاده بمماته بالطريقة الأكثر احتفالية. حدث أو "احتفالية" لم تكن يافا عهدتها منذ العام ١٩٤٨، حيث غطت الأعلام الفلسطينية جثمانه وشوارع مدينته الحبيبة في حدث يوحي بتحقق العودة. وفاة إبراهيم أبو لغد كانت استمرارا وبلوغا لفلسطينيته، كما كانت حياته دوما.